
#5
«إنجاز مذهل ولفتة مؤثّرة من
الإجلال والتقدير
إلى رجل إستثنائي»
Margaret Atwood,
The New York Times
Book Review
الجنرال في متاهته
ترجمة: صالح علماني
15.9.2018
غابرييل غارسيا ماركيز
الحائز على جائزة نوبل للآداب
التنوير

غابرييل غارسيا ماركيز

الجنرال في متاهته

رواية

ترجمها عن الإسبانية

صالح علماني



غابرييل غارسيا ماركيز

الجنرال في متاهته

الكتاب: الجنرال في متاهته (رواية)

تأليف: غابرييل غارسيا ماركيز

ترجمة: صالح علماني

عدد الصفحات: 272 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9953-582-91-7

الطبعة الأولى: 2017

نشر هذا الكتاب في طبعته الأولى في كولومبيا عام1989 بعنوان:

EL GENERAL EN SU LABERINTO

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن - سنتر كريستال، الهزيم - الطابق الأول

هاتف: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة - 2شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي

هاتف: 002022795557

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

إلى ألفارو موتيس
الذي أهدى إليّ
فكرة تأليف هذا الكتاب

يبدو أن الشيطان هو من يوجّه شؤون حياتي

سيمون بوليفار

(من رسالة إلى سانتَندير، 4 آب 1823)

وجده خوسيه بالاثيوس، أقدَم الخدم لديه، طافياً في مياه حوض الحمّام المُطَهِّرة، عارياً ومفتوح العينين، فظنَّ أنه قد غرق. كان يعلم أن تلك هي واحدة من أساليبه الكثيرة في التأمّل، لكن حالة الذهول التي كان مستسلماً لها بدت وكأنها حالة امرئ ليس من هذا العالم. لم يجرؤ على الاقتراب منه، وإنما ناداه بصوت أصمّ، وفقاً للأمر القاضي بإيقاظه قبل الساعة الخامسة ليرحل مع أوّل أنوار الفجر. خرج الجنرال من السحر، ورأى في العتمة عينَي كبير خدمه الزرقاوين الصافيتين، وشعره المجعَّد ذا اللون السنجابي، وجلاله الهادئ وهو يحمل بيده فنجاناً من مغلي شقائق النعمان مع الصمغ. أمسك الجنرال قبضتي حوض الاستحمام، وخرج من المياه باندفاعه دلفين غير متوقَّعة من جسد ضامر مثل جسده، وقال:

«فلنذهب طيراناً. لا أحد هنا يريدنا».

كان خوسيه بالاثيوس قد سمعه يقول ذلك مراراً، وفي مناسبات مختلفة، حتى أنه لم يصدّق صحة ما سمعه، بالرغم من أن القوافل كانت مجهَّزة في الاصطبلات، وبطانة المودّعين الرسمية قد بدأت بالتوافد. ساعده على تجفيف بدنه كيفما اتفق، ووضع المعطف على جسده العاري، لأن الفنجان كان يصطك بصحنه مع ارتعاش يديه. قبل شهور من ذلك، وبينما هو يرتدي سروالاً من جلد الغزال، لم يكن قد استخدمه منذ ليالي

ليما البابلية، اكتشف أنه بمقدار ما كان وزنه ينقص، كانت قامته تتضاءل. حتى أن عريّه كان مختلفاً، فقد أصبح جسده شاحباً، وبدا كما لو أن تقلبات الجو قد حرقت رأسه ويديه. كان قد أتمّ السادسة والأربعين من عمره في شهر تموز الفائت، لكن تجعيدات شعره الكاريبية الخشنة بدت وكأنها من رماد، وكانت عظامه قد اضطربت بفعل الشيخوخة المبكرة، وظهر أن كل ما فيه صار قاصراً حتى بدا وكأنه لن يستطيع البقاء على قيد الحياة حتى شهر تموز التالي. لكن حركات يديه الحازمة كانت تبدو مع ذلك كأنها حركات شخص آخر، أقل معاناة لصروف الحياة، وهو يمشي من دون توقف دائراً حول لا شيء. شرب الشراب الساخن في خمس رشفات متقدة أوشكت أن تحرق لسانه، وكان يمشي في أثناء ذلك هارباً من الآثار المائية التي تتركها قدماه على حصائر الأرضية المشعثة، وكان كمن يشرب شراب البعث السحري. لكنه لم يفه بأية كلمة، إلى أن دقت الساعة معلنة الخامسة في برج الكاتدرائية المجاورة.

حينئذ أعلن كبير الخدم: «السبت 8 أيّار من سنة ثلاثين، ذكرى اليوم الذي أصاب الإنكليز فيه جان دارك بسهم. المطر يهطل منذ الثالثة فجراً».

«منذ الثالثة فجراً من القرن السابع عشر»، قال الجنرال ذلك بصوته الذي ما زال مختلاً بسبب تنفسه المضطرب من الأرق، ثم أضاف بجد: «لم أسمع صياح الديكة».

قال خوسيه بالاثيوس: «لا توجد ديَكة هنا».

فقال الجنرال:

«لا يوجد أي شيء. إنها أرض جاحدين».

كانا في «سانتافي دي بوغوتا»، على ارتفاع ألف وستمئة متر فوق سطح البحر البعيد، ولم تكن غرفة النوم ذات الجدران الجرداء، المعرَّضة للرياح المثلجة التي تنفذ من النوافذ غير المُحكمة، بالغرفة المناسبة لأي شخص

كان. وضع خوسيه بالاثيوس طست رغوة الصابون على الخوان المرمري، وإلى جانبه القراب المخملي الأحمر الذي يضم أدوات الحلاقة المصنوعة جميعها من معدن مذهَّب. ثم وضع الشمعدان ذا الشمعة الواحدة على رفّ قريب من المرآة، بحيث يتوفر للجنرال ما يكفي من الضوء، وقرّب المجْمَرة لتدفئ له قدميه، ثم قدّم له بعد ذلك نظارة بزجاج مربّع وإطار من الفضة الخالصة، كان يحملها له دائماً في جيب صدريته. وضعها الجنرال على عينيه، وحلق ذقنه بالموسى التي يتحكم بها بمهارة متماثلة سواء استخدمها بيده اليمنى أو اليسرى، فقد كان أعسر أيمن طبيعياً، يتمتع بسيطرة مذهلة على نبضه هذا الذي لم ينفعه قبل قليل في حمل الفنجان. وانتهى به الأمر إلى حلق ذقنه من دون أن ينظر في المرآة، ومن دون أن يتوقف عن المشي في أرجاء الحجرة، فقد كان يحاول قدر الإمكان ألّا يرى نفسه في المرآة كي لا يواجه عينيه. بعد ذلك نتف بيده شعر أنفه وأذنيه، ولمّع أسنانه المنتظمة بمسحوق فحم وضعه على فرشاة حريرية ذات مقبض فضي، ثم قلّم أظفار يديه وقدميه وهذّبها، وأخيراً خلع العباءة وأفرغ على نفسه زجاجة كبيرة من ماء الكولونيا، مدلكاً جسده كله بكلتا يديه إلى أن أحسّ بالإنهاك. كان يؤدي في ذلك الصباح طقوس النظافة اليومية بقسوة أكثر احتداماً ممّا هو معتاد عليه، محاولاً تطهير جسده وروحه من عشرين سنة من الحروب غير المجدية ومن خيبات الأمل بالسلطة.

كانت آخر زيارة تلقّاها في الليلة السابقة هي زيارة مانويلا ساينث، ابنة مدينة كيتو المجرَّبة التي تحبّه، ولكنها لن ترافقه إلى الموت. ستبقى، كالعادة، للقيام بمهمة إطلاع الجنرال جيداً على كل ما سيحدث في أثناء غيابه، فمنذ فترة من الزمن لم يعد يثق بأحد سواها. وسيترك في عهدتها بعض آثاره التي لا قيمة لها سوى أنها كانت له، وكذلك بعض كتبه المفضّلة وصندوقين يضمّان أرشيفه الشخصي. لقد قال لها في اليوم السابق، أثناء الوداع الرسمي: «إنني أحبك كثيراً، لكنني سأحبك أكثر إذا ما أظهرت الآن

من الحكمة قدراً أكبر ممّا أظهرتِه في ما مضى». وفهمت هي ذلك على أنه تكريم آخر من تلك التي طالما قدمها لها خلال ثمانية أعوام من الغراميات المتأججة. وكانت هي وحدها التي صدّقته من بين جميع معارفه: إنه راحل حقاً في هذه المرّة. ولكنها كانت الوحيدة أيضاً التي لديها على الأقل سبب ثابت للأمل في أن يعود.

ما كانا يظنّان أنهما سيلتقيان ثانية قبل الرحيل. إلا أن دونيا آماليا، صاحبة البيت، رغبت في أنه تهدي إليهما فرصة الوداع الأخير المخْتلَس، فأدخلت مانويلا عبر بوابة الاصطبلات، متنكرة بزي فارسة، لتغافل بذلك تقاليد المجتمع المحلي المفرط في تزمّته. ليس ذلك لكونهما عاشقين سرّيَين، فقد كانا عاشقين في وضح النهار، وفي فضيحة عامة، بل للحفاظ على سمعة البيت الطيبة بأي ثمن كان. وقد أظهر هو قدراً أكبر من الورع عندما أمر خوسيه بالاثيوس بألّا يُغلق باب الصالة المجاورة، وهي ممر إجباري لخدم البيت، وفيها ظل ضباط حراسته يلعبون الورق إلى ما بعد انتهاء الزيارة بوقت طويل.

قرأت له مانويلا طوال ساعتين. لقد كانت لا تزال شابة حتى وقت قريب، حين بدأ لحمها يترهّل متغلباً على سنّها. وكانت تدخن بغليون بحّار، وتتطيّب بماء أزهار رعي الحمام، وهو عطر كان يستخدمه العسكريون، وكانت تتزيّا بزيّ الرجال، وتتجوّل بين الجنود، لكن صوتها الأبح كان لا يزال ملائماً لعتمة الحب. كانت تقرأ على ضوء الشمعدان الخافت، وهي جالسة على تُكأة ما زالت تحمل على مسندها شعار حاكم الولاية الإسباني الأخير، وكان يصغي إليها مستلقياً على السرير وهو بملابسه المدنية الخاصة بالبيت، مغطى بعباءة من وبر الفيكونيا. ومن إيقاع تنفسه فقط، كان يُعرف أنه ليس نائماً. كان اسم الكتاب الذي تقرأ فيه «**قراءة أخبار وإشاعات انتشرت في مدينة ليما سنة 1826 الحميدة**»، للبيرّوني نوح كالثاديّاس، وكانت تقرأ بتفخيم مسرحي يتناسب تماماً مع أسلوب المؤلف.

لم يكن يُسمع في البيت الهاجع خلال الساعة التالية سوى صوتها. لكن قهقهة مجهولة صادرة عن عدّة رجال انطلقت فجأة بعد الدورية الأخيرة، فهيّجت كلاب الحيّ. فتح عينيه وبه من القلق أقل ممّا به من الفضول، فأطبقت هي الكتاب فوق حضنها، معلّمة الصفحة التي وصلت إليها بإبهامها، وقالت له: «إنهم أصدقاؤك».

فقال: «لا أصدقاء لي. وإذا كان لا يزال لي بعضهم، فإلى زمن قصير فقط».

قالت: «إنهم هناك في الخارج، يسهرون كي يحولون دون قتلك».

هكذا علم الجنرال بما كانت تعرفه المدينة بأسرها. لم تكن تُدبّر محاولة واحدة لاغتياله، بل عدّة محاولات. وكان أنصاره الأخيرون ينتظرون في البيت ليحولوا دون ذلك. كان الخيّالة وجماعة من الجنود طوال القامة يحتلون دهليز البيت والممرات المحيطة بالحديقة الداخلية، وكانوا جميعهم فنزويليين، ممّن سيرافقونه حتى ميناء كارتاخينا دي انديياس، حيث سيُبحر من هناك في سفينة شراعية تحمله إلى أوروبا. كان اثنان منهم قد بسطا فراشَيهما ليناما أمام الباب الرئيسي لمخدعه، وسيواصل ضباط المرافقة اللعب بالورق في الصالة المجاورة عندما ستُنهي مانويلا القراءة، لكن الأزمنة لم تعد ملائمة للوثوق بأي شيء وسط كل أولئك العسكريين ذوي الأصول المشبوهة والأخلاق المتنوعة. أمر مانويلا بمواصلة القراءة، من دون أن يبدي تأثراً بالأخبار السيئة.

كان يرى في الموت دوماً مخاطرة مهنيّة لا بدّ منها. وكان قد خاض جميع حروبه في خطوط الخطر، من دون أن يصاب بخدش واحد، وكان يتنقل وسط النيران المتبادلة بهدوء جنوني، حتى إن ضباطه ارتضوا التفسير السهل القائل إنه يظن نفسه معصوماً من الجروح. وكان قد خرج سليماً من جميع المحاولات الكثيرة التي دُبرت لاغتياله، وقد نجا من عدد منها لأنه لم يكن نائماً في سريره. كان يتنقل من دون حراسة، ويأكل ويشرب ممّا

يقدّم إليه، من دون أيّ احتياطات. ومانويلا وحدها هي التي كانت تعرف أن إهماله ذاك ليس غفلة ولا قدرية، وإنما هو يقين سوداوي بأنه سيموت في فراشه، فقيراً وعارياً، ومن دون امتنان شعبي يمنحه العزاء.

التغيير البارز الوحيد الذي طرأ على طقوس أرَقه في تلك الليلة، هو أنه لم يستحم بماء ساخن قبل أن يأوي إلى الفراش. كان خوسيه بالاثيوس قد جهّز الحمّام منذ وقت مبكر بماء فيه أوراق طبية تعيد إلى الجسم قواه وتسهّل التنخّع، وحافظ على درجة حرارته المناسبة ليكون جاهزاً حين يشاء الجنرال، لكنه لم يشأ. تناول قرصَيْ مليّن من أجل إمساكه المعتاد، واستعدّ للتناوم على هديل نمائم الفجور في ليما. وفجأة، ومن دون سبب ظاهر، باغتته نوبة سعال بدت وكأنها تزعزع ركائز البيت. فبقي الضباط الذين كانوا يلعبون الورق في حيرة من أمرهم. وأطل واحد منهم، هو الإيرلندي بلفور هينتون ويلسون، على غرفة النوم علّهم يطلبون منه شيئاً، فرأى الجنرال منبطحاً على عرض السرير، يحاول أن يتقيّأ أحشاءه. كانت مانويلا تسند رأسه فوق المبولة. أما خوسيه بالاثيوس، وهو الوحيد المسموح له دخول حجرة النوم من دون أن يقرع الباب، فقد بقي في حالة تأهب إلى جوار السرير إلى أن انقضت النوبة. حينئذ تنفس الجنرال بعمق وعيناه ممتلئتان بالدمع، وأشار نحو الخوان قائلاً:

«هذا كله بسبب أزهار الضرائح تلك».

إنها عادته. فدائماً يجد سبباً غير متوقَّع لنكباته. أومأت مانويلا، التي كانت تعرفه خيراً من أي شخص آخر، إلى خوسيه بالاثيوس ليحمل المزهرية وما فيها من أزهار ناردين الصباح الذابلة. عاد الجنرال إلى الاستلقاء على السرير، وأغمض عينيه، وعادت هي إلى القراءة بالنبرة السابقة ذاتها. وحين بدا لها أنه قد نام، وضعت الكتاب على الكومودينو، وطبعت قبلة على جبهته المتّقدة من الحمى، وهمست إلى خوسيه بالاثيوس أنها ستنتظر ابتداءً من السادسة صباحاً، من أجل الوداع الأخير،

عند موقع كواترو اسكيناس، حيث يبدأ الطريق العام إلى أوندا. ثم تخفّتْ في عباءة عسكرية، وخرجت على رؤوس أصابعها من غرفة النوم. حينئذ فتح الجنرال عينيه. وقال لخوسيه بالاثيوس بصوت خافت:

«قل لويلسون أن يرافقها حتى بيتها».

نُفّذ الأمر رغم إرادة مانويلا التي كانت ترى أن ذهابها وحدها أفضل من ذهابها برفقة فصيلة من الرماة. تقدمها خوسيه بالاثيوس حتى الاصطبلات وهو يحمل قنديلاً، وسار حول حديقة داخلية فيها نافورة حجرية، حيث بدأت تتفتح أولى زهرات ناردين الفجر. انحبس المطر بعض الوقت، وتوقفت الريح عن الصفير بين الأشجار، إنما لم تظهر ولو نجمة واحدة في السماء المثلجة. مضى الكولونيل بلفور ويلسون مردداً كلمة السرّ الليلية ليطمئن الحرّاس المستلقين على حصائر الممرات. ولدى مرورهم قبالة نافذة الصالة الرئيسية، رأى خوسيه بالاثيوس ربّ البيت وهو يقدم القهوة إلى مجموعة أصدقاء، عسكريين ومدنيين، كانوا يستعدون للسهر إلى أن يحين موعد الرحيل.

حين رجع خوسيه بالاثيوس إلى حجرة النوم، وجد الجنرال تحت رحمة الهذيان، وسمعه ينطق بعبارات متقطعة يمكن إجمالها في جملة واحدة:

«لم يفهم أحد أي شيء».

كان الجسد يتقد في محرقة الحمى، ويُفلت فسوات حجرية ومنتنة. ولم يكن الجنرال يعلم، حين يستيقظ في اليوم التالي، إذا ما كان يتكلم وهو نائم أم أنه كان يهذي وهو مستيقظ، بل لم يكن قادراً على تذكر ذلك كله. كانت تلك الحالة هي ما يدعوها: «نوبات جنوني»، ولم تعد تثير اهتمام أحد، لأنه يكابدها منذ ما يزيد على أربع سنوات، من دون أن يغامر أي طبيب بمحاولة تقديم تفسير علمي لها. فقد كان يظهر في اليوم التالي سليم العقل، وكأنه ينبعث من رماده. دثّره خوسيه بالاثيوس ببطانية، وترك

القنديل مضاءً فوق مرمر الخوان، وخرج من الغرفة من دون أن يغلق الباب لكي يواصل السهر في الصالة المجاورة. كان يعلم أن الجنرال سيسترد عافيته في أي ساعة من ساعات الفجر، وأنه سيغطس في مياه حوض الحمّام الباردة في محاولة لاستعادة قواه التي أنهكها هول الكوابيس.

كانت تلك هي نهاية يوم صاخب. فقد تمرّدت حامية مؤلفة من ستمئة وتسعة وثمانين فارساً وجندياً طويلاً، متذرعين بالمطالبة برواتب ثلاثة شهور متأخرة. أما السبب الحقيقي لتمرّدهم فكان مختلفاً: فمعظمهم كان من فنزويلا، وخاض كثيرون منهم حروب التحرير في البلدان الأربعة، لكنهم في الأسابيع الأخيرة كانوا ضحية إهانات كثيرة واستفزازات عديدة في الشوارع، فكان ذلك مبرراً لقلقهم على مصيرهم بعد خروج الجنرال من البلاد. سُوّي النزاع بأن دُفعت لهم التعويضات وألف بيزو ذهباً، بدلاً من السبعين ألفاً التي طالب بها المتمردون، ثم انطلقوا في عرض عسكري متوجهين إلى مسقط رأسهم، يتبعهم فوج من النساء الحمالات، ويرافقهم أطفالهم وحيواناتهم الداجنة. ولم تكن ضجة الطبول والنحاسيات العسكرية لتطغى على لغط الشراذم التي كانت تحث الكلاب على مهاجمة الجنود، وتلقي بين أقدامهم أمشاطاً من الأسهم النارية لإرباك مشيتهم، وهو شيء لم يفعلوه أبداً مع أي وحدة عسكرية معادية. فقبل إحدى عشرة سنة، وبعد ثلاثة قرون طويلة من السيطرة الإسبانية، هرب الوالي الإسباني الشرس دون خوان سامانو عبر هذه الشوارع ذاتها، متنكراً بزي زائر غريب، لكنه كان يحمل معه صناديقه المترَعة بتماثيل آلهة مذهَّبة وزمرّد غير مصقول، وطبول توكان مقدّسة، وعلب زجاجية برّاقة فيها فراشات «موثو». ولم يعدم يومها من يبكيه من الشرفات ويلقي إليه بوردة ويتمنى له من أعماق قلبه بحراً هادئاً ورحلة موفقة.

كان الجنرال قد شارك سراً في مفاوضات النزاع مع المتمردين، من دون أن يغادر البيت المستعار الذي يعيش فيه، وهو بيت وزير الحربية والبحرية.

وقد أرسل برفقة الوحدة المتمردة في نهاية الأمر الجنرال خوسيه لاورينثيو سيلفا، زوج ابنة أخته ومعاونه الموثوق، عربوناً على أنه لن تحدث قلاقل جديدة حتى وصولهم إلى حدود فنزويلا. لم يرَ العرض الذي جرى تحت شرفته، لكنه سمع صوت الأبواق وقرع الطبول، وجلبة الناس المحتشدين في الشارع، من دون أن يتمكن من فهم فحوى صرخاتهم. وقد بلغ عدم اكتراثه بالأمر حداً جعله يعكف في أثناء ذلك على مراجعة المراسلات المتأخرة مع كتبه، وإملاء رسالة موجهة إلى الماريشال الأكبر دون أندريس دي سانتا كروث، رئيس بوليفيا، يعلمه فيها بتنحّيه عن السلطة، لكنه لم يؤكد له بشكل قاطع أن رحيله سيكون إلى الخارج. وعندما انتهى من تلك الرسالة، قال: «لن أكتب رسالة أخرى ما بقيت حياً». بعد ذلك، وفيما هو يتعرّق من حمّى القيلولة، تداخلت في أحلامه هتافات حشود بعيدة، واستيقظ فزعاً من أصوات مفرقعات متفرّقة، يمكن لها أن تكون من المتمردين أو من ألعاب نارية. لكنه حين سأل، أجابوه إنها الحفلة. هكذا فقط: «إنها الحفلة يا سيدي الجنرال». من دون أن يتجرّأ أحد، حتى ولا خوسيه بالاثيوس نفسه، على أن يُوضح له أي حفلة هي.

وعندما أخبرته مانويلا حين زارته في الليل، عرف عندئذ فقط أن أولئك كانوا أتباع أعدائه السياسيين، جماعة الحزب الديماغوجي، كما كان يقول عنهم، وأنهم كانوا ينطلقون في الشارع، يحرّضون ضده نقابات الصناع، بتواطؤ من جانب القوّة العامة. كان اليوم يوم جمعة، وهو يوم سوق، ممّا سهّل عليهم نشر الفوضى في الساحة الكبرى. هطل مطر أغزر من المعتاد، ورافقته بروق ورعود، ففرّق مثيري الشغب عند الغروب. لكن الضرر كان قد وقع. فقد قام طلاب معهد سان بارتولومي بالاستيلاء عنوة على مكاتب محكمة العدالة العليا لإجبارها على محاكمة الجنرال محاكمة علنية، ومزقوا صورة له بالحجم الطبيعي، كان قد رسمها بالزيت حامل راية قديم من الجيش المحرِّر، وألقوا بها من الشرفة. وقامت شراذم المخمورين

بشراب التشتشا[1] بسلب متاجر شارع كايه ريال وخمّارات الضواحي التي لم تغلق أبوابها في الوقت المناسب، وأعدموا رمياً بالرصاص، في الساحة الكبرى، جنرالاً مصنوعاً من وسائد محشوّة بنشارة الخشب، ولم تكن هناك حاجة لسترته العسكرية الزرقاء، ذات الأزرار المذهبة، لكي يتعرّف الجميع عليه. اتهموه بأنه المحرّض المستتر للعصيان العسكري، وأنه فعل ذلك في محاولة أخيرة لاسترداد السلطة التي انتُزعت منه بإجماع في التصويت، بعد اثنتي عشرة سنة متواصلة في ممارستها. اتهموه بأنه يريد الرئاسة مدى الحياة ليترك في موقعه أميراً أوروبياً. وأنه يتظاهر بالرحيل إلى الخارج، بينما هو يريد الذهاب في الحقيقة إلى حدود فنزويلا، ليخطط من هناك للعودة على رأس القوّات المتمردة لتسلم السلطة. كانت الجدران مليئة بالقصاصات الورقية، وهو الاسم الشعبي لمنشورات السباب التي كانت تُطبع ضده، وتخفّى أنصاره البارزون في بيوت غريبة ريثما يهدأ الاندفاع. وتبنت الصحف الموالية للجنرال فرانثيسكو دي باولا سانتَندير، خصمه الرئيسي، الإشاعة القائلة إن مرضه غير المؤكد، والمعلن بصخب شديد، والتشدقات الملحفة حول ذهابه، ليست إلا مكائد سياسية يريد منها أن يتوسلوا إليه عدم الرحيل. وفي تلك الليلة، وبينما مانويلا سانيث تروي له تفاصيل أحداث ذلك اليوم العاصف، كان جنود الرئيس المنتخَب يحاولون محو شعار مكتوب بالفحم على جدار القصر الأسقفي يقول: «لن يذهب ولن يموت».

أطلق الجنرال تنهيدة وقال:

«لا بدّ أن الأمور تمضي بشكل سيئ، وأنا أسوأ من الأمور، لأن هذا كله جرى على مسافة كوادرا واحدة من هنا، وجعلوني أصدق بالرغم من ذلك أنها حفلة».

---

(1) تشيتشا Chicha: نوع من المشروبات الكحولية، أشبه بالبيرة، يصنع من الذرة المخمرة.

الحقيقة أن أصدقاءه الحميمين كانوا غير مصدّقين أنه سيذهب، سواء من السلطة أو من البلاد. فقد كانت المدينة صغيرة جداً وكان أهلوها ثرثارين جداً، بحيث لا يمكن لهم إلا أن يعرفوا الصدعين الكبيرين في رحلته المشكوك بأمرها: فهو لا يملك من المال ما يكفيه للوصول إلى أي مكان بصحبة ذلك الموكب كبير العدد، ثم إنه كان رئيساً للجمهورية، وهو غير قادر بالتالي على مغادرة البلاد قبل انقضاء سنة إلا بإذن خاص من الحكومة، وهو ما لم يكلف نفسه عناء طلبه. وأما الأمر بإعداد الأمتعة، وقد أصدره جهاراً ليسمعه كل من يشاء أن يسمع، فلم يفهمه أحد، حتى ولا خوسيه بالاثيوس، على أنه دليل قاطع على الرحيل. إذ كان الأمر قد وصل به في مناسبات أخرى إلى تقويض بيت ليتظاهر بأنه ذاهب، من دون أن يكون ذلك على الدوام إلا مجرّد مناورة سياسية محكمة. كان مساعدوه العسكريون يشعرون بأن أعراض خيبة الأمل لديه صارت جلية الوضوح خلال السنة الأخيرة. لكن شيئاً مشابهاً كان قد حدث مع ذلك من قبل، ثم كانوا يرونه يستيقظ بعد أيام وهو يتمتع بنَفَس جديد، ويُظهر استعداداً للتمسك بخيط الحياة بقوة أشدّ من السابق. وكان خوسيه بالاثيوس، الذي تابع دوماً تلك التبدّلات غير المتوقَّعة، يقول على طريقته: «ما يفكّر به سيدي، لا يعرفه أحد سوى سيدي».

دخلت استقالاته المتراجَع عنها في الغناء الشعبي، بدءاً من أقدم استقالة له، وهي تلك التي أعلن عنها بجملة غامضة من الخطاب الذي تولى فيه السلطة:

«يومي الأول في السلام، سيكون يومي الأخير في السلطة».

وعاد إلى الاستقالة في السنوات التالية مرّات كثيرة في ظروف شديدة التنوع، لم يُعرف معها أبداً متى كانت استقالته حقيقية. وكان أكثرها صخباً تلك التي أعلنها قبل سنتين، في ليلة الخامس والعشرين من أيلول، حين نجا بسلام من مؤامرة لاغتياله في غرفة نومه في البيت الحكومي بالذات.

وقد وجدته لجنة الكونغرس، التي زارته يومئذ عند الفجر، متدثراً ببطانية صوف وقدميه في طست ماءٍ ساخن، بعدما كان قد أمضى ست ساعات من دون دثار تحت أحد الجسور. لكن إنهاكه لم يكن بتأثير الحمى بقدر ما كان بسبب خيبة الأمل. أعلن أمام أعضاء اللجنة أنه لن يجري أي تحقيق في المؤامرة، وأن أحداً لن يُحاكم، وأن الكونغرس المقرَّر عقده في مطلع السنة الجديدة سيجتمع فوراً لاختيار رئيس آخر للجمهورية، واختتم قائلاً:

«بعد ذلك سأغادر كولومبيا إلى الأبد».

لكن التحقيق جرى، وتمت محاكمة المذنبين حسب قوانين حديدية، وأعدم أربعة عشر منهم رمياً بالرصاص في الساحة الكبرى. ولم يُعقد اجتماع الكونغرس التأسيسي المقرر عقده في الثاني من كانون الثاني إلا بعد مرور ستة عشر شهراً، ولم يعد أحد إلى الحديث عن الاستقالة. لكنه لم يقابل في تلك الفترة زائراً أجنبياً، أو أي جليس عارض، أو أي صديق عابر إلا وقال له:

«سأذهب إلى حيث يحبّونني».

لم تكن الأخبار الشائعة عن مرضه المميت بالمؤشر الذي يؤكد أنه سيذهب. لم يكن هناك من يشك بأمراضه، بل على العكس من ذلك: فمنذ عودته الأخيرة من حروب الجنوب، أحسّ جميع من رأوه وهو يمرّ تحت أقواس الأزهار بأنه لم يرجع إلا لكي يموت. وبدلاً من بالومو بلانك، حصانه التاريخي، جاء ممتطياً يومها بغلة متساقطة الشعر، وتغطي ردفيها حصيرة. كان شعره قد شاب، وخطّت جبهته غيوم شاردة، وكانت سترته العسكرية متسخة وأحد كميها مفتوق. كان الجلال قد غادر جسده. وفي السهرة الصامتة التي أقاموها على شرفه في مقر الحكومة في تلك الليلة، بقي منطوياً على ذاته، ولم يُعرف أبداً إذا ما كانت تحيته لأحد وزرائه باسم وزير آخر هي مسألة خبث سياسي أم مجرّد سهو.

لم يكن مزاجه في الفترة الأخيرة كافياً للتصديق بأنه ذاهب، فمنذ نحو ست سنوات وهو يقول إنه يموت، ولكنه كان يحتفظ على الرغم من ذلك باستعداده الكامل للقيادة. الخبر الأول عن مرضه جاء به ضابط من البحرية البريطانية، رآه مصادفة في صحراء باتيفيلكا، إلى الجنوب من ليما، في أوج حرب تحرير الجنوب. وجده ملقى على الأرض، في كوخ بائس ومرتجل يستخدمه مقراً لقيادة الأركان. كان متدثراً بمعطف صوف سميك، ورأسه معصوب بخرقة قماش، لأنه لم يكن قادراً على تحمل برداء عظامه في جحيم تلك الظهيرة، وكان يفتقر حتى إلى القوّة اللازمة لإبعاد الدجاجات التي كانت تنقر الأرض من حوله. وبعد محادثة مضنية، تخللتها ومضات خبل، ودّع الزائر بدراماتيكية مؤثرة، قائلاً له:

«اذهب واروِ للعالم كيف رأيتني أموت مثل خراء دجاج على هذا الشاطئ الكريه».

قيل إن مرضه هو ضربة شمس سببها شموس الصحراء الحمراء القوية. وقيل بعد ذلك أنه كان يحتضر في غواياكيل، وبعدها في كيتو، بحمّى مَعوية كان أكثر أعراضها إثارة هو زهد في الدنيا وسكينة مطلقة في الروح. ولم يعرف أحد حقيقة الأسس العلمية التي تستند إليها تلك الأخبار، لأنه كان معادياً على الدوام لعلوم الأطباء، يُشخّص أمراضه ويصف الدواء لنفسه بنفسه معتمداً على كتاب La médicine de votre maniére لدونوستير، وهو مرجع فرنسي في الاستطبابات البيتية، كان خوسيه بالاثيوس يحمله معه إلى كل مكان، مثل وحي إلهي لفهم وعلاج أي اختلال في الجسد أو في الروح.

لم يكن هنالك على أية حال احتضار مثمر مثل احتضاره. فبينما ساد الاعتقاد بأنه يموت في باتيفيلكا، اجتاز ذرى جبال الأنديز ثانية، وانتصر في خونين، واستكمل تحرير أميركا الإسبانية كلها في الانتصار النهائي في أياكوتشو، وأسس جمهورية بوليفيا، وابتهج بنشوة النصر في ليما بهجة لم يعرف مثلها من قبل، ولن يعود إلى الشعور بمثلها في ما بعد. وهكذا فإن

الإعلانات المكرورة عن عزمه التخلي عن السلطة ومغادرة البلاد بسبب مرضه، ومظاهر الإجراءات الشكلية التي كانت تتخذ تأكيداً للإعلان، لم تكن إلا إعادة مبتذلة لمسرحية لم يعد هناك من يصدقها لكثرة ما شوهدت.

وبعد أيام قليلة من عودته، وإثر اجتماع عاصف للحكومة، تأبط ذراع الماريشال أنطونيو خوسيه دي سوكره، وقال له: «حضرتك ستبقى معي». ثم قاده إلى مكتبه الخاص، حيث لم يكن يستقبل سوى عدد محدود من الأشخاص المختارين، وأجلسه بما يشبه الإكراه على كرسيه الشخصي قائلاً له:

«لقد صار هذا المنصب لك أكثر ممّا هو لي».

كان ماريشال أياكوتشو العظيم[1]، صديقه الحميم، يعرف حالة البلاد معرفة عميقة. لكن الجنرال قدّم له شرحاً مفصلاً للاوضاع قبل أن يصل إلى نواياه: بعد بضعة أيام سيجتمع الكونغرس التأسيسي ليختار رئيس الجمهورية ويصادق على دستور جديد، في محاولة متأخرة لإنقاذ الحلم الذهبي بتوحيد القارة. فالبيرو، التي كان تحت سلطة أرستقراطية مرتدة، بدت استعادتها إلى الوحدة مستحيلة. وكان الجنرال أندريس دي سانتا كروث يمسك بزمام بوليفيا ويقودها في اتجاه خاص. وأعلنت فنزويلا استقلالها الذاتي تحت سلطة الجنرال خوسيه أنطونيو بايث. أما الجنرال خوان خوسيه فلوريس، وهو الجنوبي الكامل، فقد وحّد غواياكيل وكيتو ليخلق منهما جمهورية الإكوادور المستقلة. أما جمهورية كولومبيا، الجنين الأول لوطن فسيح وموحّد، فكانت مختزلة لولاية غرناطة الجديدة سابقاً. وهكذا فإن ستة عشر مليوناً من الأميركيين الذين ما كادوا يبدأون

---

(1) ماريشال أياكوتشو العظيم هو اللقب الذي منحه بوليفار للماريشال أنطونيو خوسيه دي سوكره، بعد الانتصار الحاسم الذي أحرزه في معركة أياكوتشو الفاصلة، والتي أنهت عملياً السيطرة الإسبانية على الجزء الجنوبي من القارة الأمريكية.

الحياة الحرّة، حتى أصبحوا تحت إرادة تسلط زعمائهم المحليين. واختتم الجنرال قائلاً:

«وباختصار، فإن كل ما حققناه بأيدينا، يخرّبه الآخرون بأقدامهم».

فقال الماريشال سوكره:

«إنها إحدى سخريات القدر. يبدو أننا قد غرسنا فكرة الاستقلال عميقاً جداً، حتى أصبحت هذه الشعوب تسعى اليوم إلى الاستقلال بعضها عن بعض».

وكان ردّ فعل الجنرال شديد الحدّة:

«لا تردد سفالات العدو، حتى ولو كانت صائبة تماماً مثل هذه».

اعتذر الماريشال سوكره. كان ذكياً ومنضبطاً وخجولاً يؤمن بالخرافات. وكانت في محيّاه عذوبة لم تستطع النيل منها قروح الجدري القديمة. وقد قال عنه، في أحد الأيام، الجنرال الذي يحبه كثيراً إنه يُظهر التواضع من دون أن يكون كذلك. كان بطلاً في بيتشينتشا، وفي توموسلا، وفي تاركي، وما كاد يبلغ التاسعة والعشرين من عمره حتى قاد معركة أياكوتشو المجيدة التي أجهزت على آخر معقل إسباني في أميركا الجنوبية. لكنه فوق كل هذه المزايا، كان مشهوراً بطيبة قلبه عند الانتصار، وبحنكته السياسية. كان قد تخلى في ذلك الحين عن جميع مناصبه، وكان يمضي من دون أي نوع من الخيلاء العسكري، مرتدياً معطفاً أسود طويلاً يصل حتى كاحليه، ويرفع قَبّته على الدوام ليقي نفسه بشكل أفضل من طعنات الرياح الجليدية التي تهب من الجبال المجاورة. وكان التزامه الوحيد والأخير مع الأمّة، بناء على رغبته، هو المشاركة في الكونغرس التأسيسي مندوباً عن كيتو. كان قد أتم الخامسة والثلاثين من عمره، ويتمتع بصحة صخرية، وكان مجنوناً بحب دونيا ماريانا كارثيلين، مركيزة سولاندا، وهي سيدة جميلة خفيفة الظل من كيتو، تكاد تكون مراهقة. كان قد تزوّج منها غيابياً قبل سنتين من ذلك، وله منها ابنة عمرها ستة شهور.

لم يكن الجنرال يتصوّر أن هناك من هو أكفأ منه ليخلفه في رئاسة الجمهورية. كان يعلم أنه بحاجة إلى خمس سنوات أخرى ليبلغ السن القانونية، وذلك بسبب قيد دستوري فرضه الجنرال رافائيل أوردانيتا ليسد طريق الرئاسة دونه. لكن الجنرال كان يبذل مع ذلك المساعي السرية لإدخال تعديل على التعديل. قال له:

«وافق، وسأبقى أنا جنرالاً أعلى، أدور حول الحكومة مثلما يدور ثور حول قطيع من الأبقار».

كان مظهره خائراً، لكن عزمه كان مُقنعاً. أما الماريشال، فكان يعرف منذ زمن أن الكرسي الذي يجلس عليه لن يكون له على الإطلاق. فقبل وقت قصير، حين طرحت عليه أوّل مرّة إمكانية أن يصير رئيساً، قال إنه لن يحكم أمة يصبح نظامها وتوجهها أكثر شؤماً يوماً بعد يوم. فالخطوة الأولى للتطهير حسب رأيه هي في إبعاد العسكريين عن السلطة، وكان يريد التقدّم إلى الكونغرس باقتراح يدعو إلى عدم تمكين أي جنرال من الوصول إلى الرئاسة في السنوات الأربع التالية، ربّما لسد الطريق أمام أوردانيتا. لكن أقوى المعارضين لمثل هذا التعديل سيكونون هم الأقوى في الكونغرس: لأنهم الجنرالات أنفسهم.

قال سوكره:

«إنني متعب إلى حدّ لا يمكنني معه العمل من دون بوصلة. ثم إن فخامتك تعرف جيداً كما أعرف أنا أن ما يلزم هنا ليس رئيساً، وإنما مُخمِدٌ للفتن».

سيحضر سوكره الكونغرس التأسيسي بالطبع، بل سيرضى كذلك بشرف ترؤسه إذا ما عُرض عليه ذلك، ولكن لا شيء أكثر. فقد علّمته أربع عشرة سنة من الحروب أنه لا انتصار أكبر من بقاء المرء حياً، وعلّمته رئاسة بوليفيا، البلاد المترامية والمجهولة التي أسسها وحكمها بيد حكيمة، ما هي نزوات السلطة، ونبهته فطنته وبُعد بصيرته إلى عدم جدوى المجد.

واختتم كلامه قائلاً: «أعني أنني غير موافق يا صاحب الفخامة». فعليه أن يكون مع زوجته وابنته في كيتو، في الثالث عشر من حزيران، يوم القديس أنطونيو، لا ليحتفل معهما بذلك التماثل في الأسماء وحسب، وإنما بكل تماثل آخر يقدمه له المستقبل. فقراره بالعيش في متع الحب من أجلهما، ومن أجلهما فقط، كان اتّخذه منذ أعياد الميلاد الأخيرة.

«هذا هو كل ما أطلبه من الحياة» ـ قال.

كان لون الجنرال أزرق ضارباً إلى السواد حين قال له: «كنت أظن أنه لم يعد هناك ما يفاجئني». ثم نظر إلى عينيه: «أهذه هي كلمتك الأخيرة؟».

فقال سوكره: «إنها كلمتي قبل الأخيرة. أما كلمتي الأخيرة فهي امتناني الأبدي للطف فخامتك».

ربّت الجنرال على فخذه ليوقظ نفسه من حلم لا سبيل إلى تفاديه، وقال:

«حسن. لقد اتخذت حضرتك الآن بدلاً مني القرار النهائي لحياتي».

أملى في تلك الليلة استقالته وهو تحت تأثير مُقيّئ مثبط، وصفه له طبيب عابر في محاولة لتهدئة غدّته الصفراء. وفي العشرين من كانون الثاني افتتح الكونغرس التأسيسي بخطاب وداع أطرى فيه على رئيسه، الماريشال سوكره، بالقول إنه الأكثر جدارة بين الجنرالات. وقد انتزع ذلك الإطراء تصفيق الكونغرس، لكن مندوباً كان يجلس إلى جوار أوردانيتا، همس في أذنه: «هذا يعني أن ثمة جنرالاً أكثر جدارة من حضرتك». فبقيت عبارة الجنرال ومكيدة المندوب وكأنهما مسماران متقدان في قلب الجنرال رافائيل أوردانيتا.

كان على حق. فإذا كان أوردانيتا لا يتمتع بمثل مزايا سوكره العسكرية، ولم تكن له قدرته العظيمة في استمالة الناس، إلا أنه لم يكن هناك ما يُبرّر التفكير بأنه أقل منه جدارة. فرباطة جأشه وثباته كانا موضع إشادة الجنرال

نفسه، وإخلاصه للجنرال ومودّته كانا أكثر من مجرَّبَين، وكان واحداً من الرجال القلائل في هذا العالم الذين يجرؤون على مواجهته وجهاً لوجه بالحقائق التي يخشى معرفتها. وقد حاول الجنرال، الذي أدرك زلّته، إصلاح الأمر في تجارب المطبعة، وبدلاً من قوله: «الأكثر جدارة بين الجنرالات» صحّح العبارة بخط يده وجعلها: «واحد من أكثر الجنرالات جدارة». لكن التصحيح لم يُخفف من حدّة الضغينة.

بعد بضعة أيام، وأثناء اجتماع الجنرال بعدد من أصدقائه المندوبين، اتهمه أوردانيتا بالتظاهر بأنه سيذهب، فيما هو يحاول سراً أن يجعلهم يعيدون انتخابه. قبل ثلاث سنوات من ذلك كان الجنرال خوسيه أنطونيو بايث قد استولى على السلطة في إقليم فنزويلا، محاولاً فصله عن كولومبيا، فذهب الجنرال يومئذ إلى كاراكاس، وتصالح مع بايث في عناق علني، وسط أغاني البهجة وقرع النواقيس، واصطنع له نظاماً استثنائياً على مقاسه، يتيح له الحكم على هواه.

«هناك بدأت الكارثة»، هكذا قال أوردانيتا. فاسترضاء الجنرال بايث لم يؤدِ إلى تسميم العلاقات مع الغرناطيين وحسب، وإنما لوّثها كذلك بجرثومة الانفصال. وانتهى أوردانيتا إلى القول إن أفضل خدمة يمكن للجنرال أن يسديها إلى الوطن هي الاستقالة من الحكم بلا مزيد من المماطلة، ومغادرة البلاد. وردّ الجنرال عليه بحدّة مماثلة. لكن أوردانيتا كان رجلاً نزيهاً، كلامه بسيط وملتهب، فترك في نفوس الجميع إحساساً بأنهم قد شهدوا انهيار صداقة عظيمة وقديمة.

كرّر الجنرال استقالته، واختار دون دومينغو كايثيدو رئيساً مؤقتاً ريثما يختار الكونغرس الرئيس الفعلي. وفي الأول من آذار، غادر المقر الحكومي من باب الخدم كي لا يلتقي بالمدعوّين الذين كانوا يكرّمون خليفته بكأس من الشمبانيا، ومضى في عربة غير عربته إلى مزرعة فوتشا، وهي بيت ريفي يسوده هدوء مثالي بين تعرّجات النهر خارج المدينة، أعاره إياه الرئيس

المؤقت. وقد فاقم من تأثير المقيّئ عليه يقينه بأنه لم يعد إلّا مواطناً عادياً. طلب من خوسيه بالاثيوس، وهو يحلم مستيقظاً، أن يُعدّ له الوسائل اللازمة للبدء بكتابة مذكراته. فحمل إليه خوسيه بالاثيوس حبراً وورقاً يكفي لاستيعاب أربعين سنة من التجوال، واتفق مع فرناندو، ابن أخيه وكاتبه، على أن يقدّم له مساعدته الحميدة ابتداءً من الساعة الرابعة فجراً من يوم الاثنين التالي، وهي أنسب ساعة للتفكير في الأحقاد ومعاناتها. وكما قال لابن أخيه مرّات كثيرة من قبل، فإنه يريد أن يبدأ مذكراته بأقدم ذكرى لديه، وهي ذكرى حلم حَلَمَ به في مزرعة سان ماتيو، في فنزويلا، بعد إتمامه السنة الثالثة من عمره بقليل. حلمَ يومها أن بغلة سوداء ذات أسنان ذهبية قد دخلت البيت وراحت تجوبه ابتداءً من الصالون الرئيسي وحتى غرف المؤونة، وكانت تأكل على مهل كل ما تجده في طريقها، فيما كان أفراد الأسرة والعبيد ينامون القيلولة، حتى انتهت إلى أكل الستائر، والسجاد، والثريات، والمزهريات، والأطباق، وأدوات الطعام، وتماثيل القديسين التي على المذابح، والخزائن وصناديق الملابس بكل محتوياتها، وقدور المطابخ، والأبواب والنوافذ مع مفصّلاتها ومقارعها، والأثاث كله ابتداء من الرواق وحتى غرف النوم. الشيء الوحيد الذي أبقت عليه سليماً، وطافياً في مكانه من الفراغ هو المرآة البيضوية التي فوق خوان زينة أمه.

لكنه أحسّ بالراحة في بيت فوتشا، وأنعشه الهواء العليل تحت سماء ذات غيوم سريعة، حتى لم يعد إلى الحديث عن المذكرات، وأخذ يستغل ساعات الفجر للنزهة في دروب السهل الشذية. ومَن زاروه في الأيام التالية أحسّوا بأنه قد استعاد عافيته، وخصوصاً العسكريين، أصدقاءه الأكثر وفاءً، الذين كانوا يناشدونه البقاء في الرئاسة، حتى ولو عن طريق انقلاب عسكري. لكنه كان يُخيّب أملهم بحجته القائلة إن الاستيلاء على السلطة بالقوة أمر لا يليق بأمجاده. إنما كان يبدو عليه أنه لم يفقد الأمل بتثبيته في المنصب بقرار شرعي من الكونغرس. وكان خوسيه بالاثيوس يُكرّر:

«ما يفكّر به سيدي، لا يعرفه أحد سوى سيدي».

واصلت مانويلا العيش على بعد خطوات قليلة من قصر سان كارلوس، الذي كان مقراً للرؤساء، مصغية بيقظة لكل أصوات الشارع. كانت تزور مزرعة فوتشا مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع، وأكثر من ذلك إذا كان هنالك أمر ملحّ. كانت تظهر وهي محمَّلة بحلوى اللوز والسكر، وحلويات الأديرة الساخنة، وسبائك الشوكولاته مع القرفة، من أجل وجبه العصر التي كان يتناولها في الساعة الرابعة. ونادراً ما كانت تحمل إليه الصحف، لأن الجنرال صار شديد النزق حيال النقد، وصار يمكن لأيّ ملاحظة تافهة أن تستثير حفيظته. لكنها كانت تروي له خفايا الحياة السياسية، ومكائد الصالونات، وتكهّنات مجالس النمّامين، وكان عليه أن يستمع إلى كل ذلك - حتى ولو كان ضده - وأحشاؤه تتلوى. فمانويلا هي الوحيدة التي يُسمح لها بأن تقول له الحقيقة. وعندما لا يكون لديهما ما يقولانه، كانا يراجعان المراسلات، أو تقرأ له، أو يلعبان الورق مع ضباط المرافقة، لكنهما كانا يتناولان الغداء منفردَيْن دائماً.

لقد تعارفنا في كيتو قبل ثماني سنوات، في الحفلة الراقصة التي أقيمت احتفالاً بالتحرير، وكانت لا تزال حينئذ زوجة للدكتور جيمس ثورن، الطبيب الإنكليزي المندمج بأرستقراطية مدينة ليما في أواخر عهد الولاية الإسبانية. وفضلاً عن كونها المرأة الأخيرة التي أقام معها علاقة غرامية متواصلة منذ وفاة زوجته، قبل سبعة وعشرين عاماً، فقد كانت أمينة أسراره وحافظة أرشيفه الخاص، وقارئته المثيرة، كما أنها كانت في عداد قيادة أركانه برتبة كولونيلة. لقد مضى الزمن الذي أوشكت فيه يوماً أن تصلم إحدى أذنيه، حين عضته إثر خصام غيرة، لكن أشدّ حواراتهما خصاماً كانت تنتهي عادة بانفجارات كراهية تتلوها استسلامات حانية، شأن جميع الغراميات العظمى. ولم تكن مانويلا تبقى للنوم هناك، بل اعتادت أن

تذهب قبل وقت مناسب حتى لا يفاجئها الليل وهي في الطريق، وخصوصاً في فصل الأمسيات القصيرة ذاك.

وعلى عكس ما كان يحدث في مزرعة «لا مجدلينا» في ليما، حيث كان عليه أن يخترع الذرائع ليبقيها بعيدة، كي يغازل سيدات من أصول راقية، وأخريات لسنَ كذلك، فإنه كان يبدي في مزرعة فوتشا ما يؤكد أنه غير قادر على العيش من دونها. كان يراقب الطريق الذي ستأتي منه، ويثير حفيظةَ خوسيه بالاثيوس وهو يسأله عن الساعة في كل لحظة، طالباً منه أن يبدّل مكان التكأة، وأن يُسعّر نار المدفأة، وأن يطفئها، وأن يشعلها ثانية، قانطاً ومتململاً، إلى أن يرى ظهور العربة من وراء التلال، فتشرق له الحياة. لكنه كان يبدي جزعاً مماثلاً عندما تطول الزيارة أكثر مما هو مقدّر لها. وفي ساعة القيلولة كانا يندسان في السرير من دون أن يغلقا الباب، ومن دون أن يخلعا ملابسهما، ومن دون أن يناما. وقد أقدما غير مرة على المجازفة بمحاولة ممارسة حب أخير، لكنه لم يكن يتمتع بقدرة جسدية كافية لإرضاء روحه، وكان يرفض الإقرار بذلك.

وقد أدى أرَقه الدائم في تلك الأيام إلى ظهور بوادر الاضطراب عليه، فكان يغفو في أية لحظة، قبل أن ينتهي من نطق جملة كان قد بدأ بها وهو يُملي الرسائل، أو أثناء لعبه بالورق، ولم يكن هو نفسه يعرف جيداً هل كانت تلك الحالات ومضات نوم خاطفة أم إغماءات عابرة، لكنه ما إن يضطجع لينام، حتى يشعر بأنه مبهور بنوبة صحو. وما يكاد يتوصل إلى نصف إغفاءة عكرة، حتى توقظه من جديد رياح السكون التي بين الأشجار، فيعجز حينئذ عن مقاومة الإغراء بتأخير إملاء مذكراته إلى صباح يوم آخر، كي يقوم، وحيداً، بجولة على الأقدام، تستمر أحياناً حتى موعد الغداء.

كان يذهب من دون حراسة، ومن دون أن يرافقه الكلبان الوفيان اللذان كانا يرافقانه حتى في ساحات المعارك أحياناً، ومن دون اصطحاب أي حصان من خيوله الملحمية، التي بيعت إلى فرقة الخيّالة لزيادة الأرصدة

المالية اللازمة للرحلة. كان يذهب حتى النهر القريب، سائراً فوق فرشة من الأوراق المتعفّنة، عبر درب تحفّ به أشجار حور لا نهاية لها، متّقياً ريح البرية الجليدية بالعباءة المصنوعة من وبر الفيكونيا، والجزمة المبطنة بالفراء، وقبعته الخضراء التي لم يكن يستخدمها في ما مضى إلا للنوم. ويجلس طويلاً للتأمل مقابل جسر العوارض المفلتة الصغير، في ظل أشجار الصفصاف الكئيبة، ساهماً بحركة الماء التي قارنها يوماً بقدَر بني البشر، في تشبيه بليغ استقاه من أساليب معلّمه في سنوات شبابه، دون سيمون رودريغيث. كان أحد حرّاسه يلاحقه من دون أن يُشعره بذلك، إلى أن يرجع مبللاً بالندى، بنفَسٍ واهن لا يكاد يكفيه لأكثر من صعود درج بوابة المدخل، هزيلاً ومذهولاً، ولكن بعينين مثل عيني مجنون سعيد. كان يشعر براحة عظيمة في تلك النزهات الهروبية، حتى أن الحرّاس المختبئين بين الأشجار كانوا يسمعونه يردّد أغنيات الجنود، مثلما كان يفعل في سنوات مجده البعيدة وهزائمه الهوميرية. ومن يعرفونه أفضل كانوا يتساءلون عن سبب صفائه، حيث إن مانويلا نفسها كانت تشك في أمر تثبيته مرة أخرى في رئاسة الجمهورية عن طريق كونغرس تأسيسي وصفه هو نفسه بأنه كونغرس موَقَّر.

في يوم انتخاب الرئيس، وأثناء جولته الصباحية، رأى كلباً سلوقياً من دون سيّد، يثب مرحاً بين الأسيجة مع طيور السمّان. أطلق له صفيراً كذاك الذي يطلقه القوّادون لفتياتهم، فتوقف الحيوان بغتة، وبحث عنه بأذنيه المنتصبتين، واكتشفه واقفاً بعباءته التي تكاد أذيالها تلامس الأرض وقبعته المشابهة لقبعة بابوية فلورنسية، وقد تخلت عنه يد الربّ تحت الغيوم المتسارعة ووسط البراري المترامية. تشمّمه بعمق، فيما راح هو يداعب شعر الحيوان برؤوس أصابعه، لكن هذا ما لبث أن ابتعد عنه فجأة، ونظر إلى عينيه بعينيه الذهبيتين، ثم أصدر همهمة ارتياب وهرب مروَّعاً. لحق الجنرال به عبر طريق مجهول، إلى أن وجد نفسه فاقداً الاتجاه، في ربضٍ

دروبه موحلة، وبيوته طينية ذات سقوف حمراء، يتصاعد من أفنائها بخار الخريف. وفجأة سمع الصرخة:

«لونغانيثو!»[1].

لم يتمكن من تفادي روث بقرة رموه به من إحدى الحظائر، فارتطم بمنتصف صدره، ولطخ بعض ما تناثر منه وجهه. كانت الصرخة، وليس رميه بالروث، هي التي أيقظته من الذهول الذي كان غارقاً فيه مذ غادر مقر إقامة الرؤساء. كان يعرف ذلك اللقب الذي أطلقه عليه الغرناطيون، وهو لقب مجنون يهيم في الشوارع، مشهور ببذلته المبهرجة. بل إن نائباً ممن يقولون عن أنفسهم إنهم ليبراليون قد ناداه بذلك اللقب في الكونغرس، أثناء غيابه، ولم ينهض للاحتجاج سوى نائبين اثنين، لكنه لم يكن قد سمع أحداً يناديه بذلك اللقب مباشرة. بدأ بتنظيف وجهه بأذيال العباءة، ولم يكن قد انتهى من ذلك، حين ظهر من بين الأشجار الحارس الذي يلاحقه خفية، وكان يشهر سيفه ليعاقب من اقترف الإهانة، فألهبه الجنرال بنظرة غضب، وسأله:

«وما الذي تفعله حضرتك هنا؟».

فوقف الضابط متأهباً: «إنني أنفّذ الأوامر يا سيدي».

فرد عليه: «أنا لست سيداً عليك».

جرّده من رتبته وأوسمته بحنق شديد، حتى أن الضابط اعتبر نفسه محظوظاً، لأن الجنرال لم يعد يتمتع بصلاحيات تمكّنه من أن يُنزل به عقوبة أشد قسوة. بل إن خوسيه بالاثيوس، الذي طالما فهمه وجد صعوبة في فهم صرامته تلك.

كان يوماً سيئاً. أمضى فترة الصباح وهو يطوف في أرجاء البيت بقلق مثل ذلك القلق الذي ينتظر به مانويلا، ولكن لم يكن خافياً على أحد أن

(1) لونغانيثو (Longanizo): نوع من السجق الذي يُصنع بحشو الأمعاء الرفيعة جداً بشحم الخنزير ولحمه. وفي اللقب إشارة إلى نحول الجنرال.

احتضاره يومئذ لم يكن من أجلها، وإنما من أجل أبناء الكونغرس. كان يحاول أن يتصوّر تفاصيل ما يدور في الجلسة لحظة بلحظة. وعندما رد عليه خوسيه بالاثيوس قائلاً إن الساعة هي العاشرة، قال:

«مهما بالغ الديماغوجيون في النهيق، فلا بدّ أن يكون الاقتراع قد بدأ الآن».

ثم تساءل بصوت عال بعدما غرق طويلاً في التأمل:

«مَن يستطيع أن يعرف ما الذي يفكر به رجل مثل أوردانيتا؟».

كان خوسيه بالاثيوس يعرف أن الجنرال يعرف ذلك، لأن أوردانيتا لم ينقطع عن إعلان أسباب أحقاده وحجمها في كل مكان. وفي لحظة عاد فيها خوسيه بالاثيوس للمرور، سأله الجنرال وهو ساهٍ:

«لمن سيصوّت سوكره برأيك؟».

وكان خوسيه بالاثيوس يعرف جيداً، مثلما يعرف هو نفسه، أن الماريشال سوكره لا يمكنه التصويت، لأنه كان قد سافر في تلك الأيام إلى فنزويلا برفقة أسقف للتفاوض حول تفاصيل الانفصال، لذلك لم يتوقف حين رد عليه: «أنت تعرف ذلك خيراً من أي كان يا سيدي». فابتسم الجنرال لأول مرّة منذ عودته من نزهته البغيضة.

على الرغم من عدم انتظام شهيته، فإنه كان يجلس دائماً إلى المائدة قبل الساعة الحادية عشرة، ليأكل بيضة فاترة مع كأس من نبيذ أبورتو، أو لينقر فُتاتاً من قشرة الجبن، لكنه بقي يراقب الطريق من الشرفة في ذلك اليوم، فيما الآخرون يتناولون طعام الغداء، وكان ذاهلاً إلى حد لم يتجرّأ معه خوسيه بالاثيوس نفسه على إزعاجه. وبُعَيد الساعة الثالثة، نهض قافزاً حين سمع وقع حوافر البغلتين، قبل أن تظهر عربة مانويلا من خلال التلال. وهرع لاستقبالها، وفتح الباب ليساعدها على النزول، ومنذ اللحظة التي

رأى فيها وجهها عرف الخبر. فدون خواكين موسكيرا، الابن البكر لأحد بيوت بوبايان العريقة، اختير رئيساً للجمهورية بالإجماع.

لم يكن رد فعله غضَباً ولا خيبة أمل، وإنما دهشة وذهولاً. فقد كان هو نفسه الذي اقترح على الكونغرس اسم خواكين موسكيرا، لثقته بأنه لن يوافق على المنصب. غرق في تأمّل عميق، ولم يعد إلى الكلام إلا في موعد وجبة العصر، حين سأل:

«ولا صوت واحد لي؟».

ولا صوت واحد. ومع ذلك، فإن الوفد الرسمي الذي زاره في ما بعد، وكان مؤلفاً من نواب يناصرونه، أوضح له أن أنصاره قد اتفقوا على أن يكون التصويت بالإجماع، حتى لا يبدو وكأنه قد خسر في منافسة انتخابية. وكان الجنرال واقعاً في تناقض شديد، حتى أنه بدا غير راضٍ عن فطنة تلك المناورة الذكية. وكان يرى بالمقابل، بأنهم لو قبلوا استقالته منذ قدّمها أوّل مرة لكان ذلك أكثر توقيراً لأمجاده.

تنهد قائلاً: «وباختصار، لقد عاد الديماغوجيون للفوز، وكان فوزهم مضاعفاً».

لكنه تصرّف بحذر بالغ مع ذلك، لئلا يظهر عليه الاضطراب الذي كان فيه، إلى أن ودّعهم عند المدخل. ولكن ما كادت العربة تغيب عن الأنظار، حتى سقط مصعوقاً في نوبة سعال أبقت البيت كله في حالة من التأهب حتى الغروب. كان أحد أعضاء الوفد الرسمي قد قال إن الكونغرس كان شديد الحكمة في قراره الذي أنقذ الجمهورية. وكان هو قد تجاوز ذلك القول، ومرّ عليه مرور الكرام. لكنه في تلك الليلة، وفيما كانت مانويلا تجبره على تناول كأس من الحساء، قال لها:

«لم ينقذ أي كونغرس في يوم من الأيام أية جمهورية».

وقبل أن ينام، جمع مرافقيه وخدمه، وأعلن لهم باحتفاليته المعهودة التي كان يعلن بها استقالاته المشكوك فيها:

«غداً بالذات سأغادر البلاد».

لم يبدأ ذلك غداً بالذات، وإنما بعد أربعة أيام. استرد خلالها زهده الضائع، وأملى بيان وداع لم يُظهر فيه آثار جراح قلبه، ثم رجع إلى المدينة للإعداد للرحيل. حمله الجنرال بيدرو الكانتارا هيران، وزير الحربية والبحرية في الحكومة الجديدة، إلى بيته في شارع إنسينيانثا، لا لمنحه مشفى، وإنما لحمايته من التهديدات بالقتل التي كان خطرها يزداد.

قبل مغادرته سانتافي، صفّى الممتلكات القليلة التي بقيت بحوزته ليُحسّن من وضعه المالي، فباع - إضافة للخيول - أدوات مائدة فضية ترجع إلى زمن بوتوسي التبذيري، وقد قدّر بيت المال الذي اشتراها قيمة معدنها فقط، من دون الأخذ في الحسبان جمال صنعتها أو مزاياها التاريخية: ألفان وخمسمئة بيزو. بعد الجرد النهائي للحسابات، كان مجموع ما معه هو سبعة عشر ألف وستمئة بيزو وسبعون سنتافو نقداً، وأمر صرف بثمانية آلاف بيزو تسحب من خزينة كارتاخينا العامة، ومعاش تقاعدي مدى الحياة أقره له الكونغرس، وأكثر قليلاً من ستمئة أونصة ذهبية موزّعة في صناديق مختلفة. كان ذلك هو الرصيد المحزن لثروة شخصية كانت يوم مولده واحدة من أكثر ثروات أميركا ازدهاراً.

وفي الأمتعة التي أعدّها خوسيه بالاثيوس بتمهّل صبيحة يوم الرحيل، حين كان الجنرال ينهي ارتداء ملابسه، لم يكن يوجد سوى غيارين داخليين مستعملين طويلاً، وقميصين، والسترة العسكرية ذات الصفين من الأزرار التي يفترض أن تكون مصنوعة من ذهب أتاوالبا، وطاقية النوم الحريرية، وقلنسوة حمراء أحضرها له الماريشال سوكره من بوليفيا. ولم يكن لديه ما ينتعله سوى الخف البيتي والجزمة التي يلبسها. أما في صناديق خوسيه بالاثيوس الشخصية، والى جانب علبة الأدوية وبعض الأشياء القيّمة الأخرى، كان هناك كتابا **العقد الاجتماعي** لروسو، و**الفن العسكري** للجنرال الإيطالي رايموندو مونتيكوشلّي، وهما درّتان مكتبيتان كانتا ملكاً

لنابليون بونابرت، وقد أهداهما إليه السير روبيرت ويلسون، والد مرافقه. وما خلا ذلك كان قليلاً. حتى إنه حُشر كله في جعبة عسكرية. وعندما رأى الأمتعة، وكان يستعد للخروج إلى الصالة، حيث تنتظره بطانة المودّعين الرسميين، قال:

«لم نكن نظن يوماً يا عزيزي خوسيه، أن كل ذلك المجد سيُحشر في حذاء».

على الرغم من ذلك، كانت بغال الحمولة السبعة محملة بصناديق أخرى للميداليات وأطقم مائدة من الذهب وأشياء أخرى متنوعة لها بعض القيمة، وعشرة صناديق لأوراقه الخاصة، وصندوقين ممتلئين بكتب مقروءة، وخمسة صناديق ملابس على الأقل. وعدة علب تضم خليطاً من أشياء جيدة وعديمة القيمة لم يصبر أحد على جردها. ولكن ذلك كله لم يكن يساوي مجرد شبح الأمتعة التي عاد بها من ليما قبل ثلاث سنوات، متولياً السلطة الثلاثية كرئيس لبوليفيا وكولومبيا وديكتاتوراً للبيرو: كانت الحمولة مؤلفة يومئذ من اثنين وسبعين صندوقاً. وأكثر من أربعمئة علبة تحتوي على أشياء لا حصر لها، ولها قيمة لا يمكن تحديدها. وكان قد ترك في تلك المناسبة في كيتو، أكثر من سبعمئة كتاب لم يحاول استردادها مطلقاً في ما بعد.

كانت الساعة نحو السادسة، وكان المطر الألفي قد توقف. لكن الدنيا كانت لا تزال غائمة وباردة. وكان البيت الذي تحتله الوحدة العسكرية قد بدأ يعبق برائحة الثكنة. نهض رجال الخيّالة والجنود بجلبة حين رأوا الجنرال بين أعوانه، وهو يتقدم مطرقاً من نهاية الممر. كان أخضر في تألق الفجر، يضع عباءته على كتفيه، ويعتمر قبّعة تزيد حوافها العريضة من قتامة ظلال وجهه. كان يغطي فمه بمنديل مضمَّخ بماء الكولونيا، عملاً بالخرافة الأنديزية القديمة للوقاية من الهواء الخبيث لدى الخروج المفاجئ إلى العراء. لم يكن يضع أيّ إشارات تدل على رتبته. كما لم يعد لديه أدنى قدر

من السلطة الكبيرة التي كان يتمتع بها في أزمنة أخرى. لكن هالة السلطة السحرية كانت تميّزه وسط موكب الضباط الصاخب. توجه إلى صالة الاستقبال، ماشياً بتمهّل في الممر المفروش بالحُصر والمحاذي للحديقة الداخلية، غير مكترث بجنود الحراسة الذين كانوا يتأهبون لدى مروره. وقبل أن يدخل إلى الصالة خبّأ المنديل في كمّه، مثلما كان يفعل رجال الإكليروس وحدهم في ذلك الحين، وأعطى القبعة التي كان يعتمرها لأحد مرافقيه.

كان هناك مدنيون وعسكريون يتوافدون منذ الفجر، إضافة إلى أولئك الذين سهروا طوال الليل في البيت. وكانوا يتناولون القهوة في مجموعات متفرقة، وكانت الملابس القاتمة والأصوات المكتومة قد أشاعت في الجو وقاراً حدادياً، عندما علا فجأة صوت دبلوماسي مرهف فوق الوشوشات:

«يبدو وكأننا في مأتم».

ما كاد ينتهي من قول ذلك، حتى شم وراء ظهره رائحة الكولونيا التي ملأت جو الصالة. استدار حينئذ وهو يحمل بإبهامه وسبّابته فنجان قهوة يتصاعد منه البخار، وقد أقلقته فكرة أن يكون ذلك الشبح الذي دخل للتو قد سمع وقاحته. ولكن لا: فعلى الرغم من أن الزيارة الأخيرة التي قام بها الجنرال إلى أوروبا قد جرت منذ أربع وعشرين سنة، وكان ما يزال عندئذ شاباً يافعاً، إلا أن أشواقه الأوروبية كانت أكثر اتّقاداً من ضغائنه، فكان ذلك الدبلوماسي هو أوّل شخص يتوجه الجنرال لمصافحته بلياقة مفرطة، تليق بالإنكليزي وقال له:

«آمل ألا يكون هناك ضباب كثير في هايد بارك».

تردد الدبلوماسي برهة، لأنه سمع في الأيام الأخيرة أن الجنرال قد يذهب إلى واحد من ثلاثة أماكن، لم تكن لندن منها. لكنه استعاد سيطرته على نفسه في الحال، وقال:

«سنحاول أن تكون هناك شمس في النهار وفي الليل من أجل فخامتكم».

لم يكن الرئيس الجديد موجوداً هناك، فقد انتخبه الكونغرس غيابياً، وكان يحتاج إلى شهر آخر قبل أن يصل من بوبايان. إنما كان يمثّله هناك الجنرال دمينغو كايثيدو، نائب الرئيس المنتخب، والذي كان الجنرال قد قال عنه يوماً إن أي منصب في الجمهورية سيكون ضيّقاً عليه، لأن له مظهر ملك ومهابته.

حيّاه الجنرال باحترام كبير، وقال له بلهجة ساخرة:

«أتعرف حضرتك أنني لا أملك تصريحاً بمغادرة البلاد؟».

قوبلت العبارة بقهقهة من الجميع، بالرغم من أن الجميع كانوا يعرفون أنها ليست مزحة. فوعده الجنرال كايثيدو بأن يرسل له جواز سفر نظامياً إلى أوندا في البريد التالي.

كانت بطانة المودّعين الرسمية مؤلفة من أسقف المدينة، وهو شقيق الرئيس المكلَّف، وشخصيات بارزة أخرى، وموظفين من أعلى المراتب مع زوجاتهم. كان المدنيون منهم يرتدون معاطف جلدية والعسكريون ينتعلون أحذية ركوب الخيل، لأنهم كانوا يستعدون لمرافقة المبعَد السامي لعدة فراسخ. قبّل الجنرال خاتم الأسقف وأيدي السيدات. وصافح أيدي الرجال من دون حرارة، كمعلم مطلق في التقاليد الراقية، لكنه كان غريباً تماماً عن جبلة تلك المدينة المغلوطة التي قال عنها في أكثر من مناسبة: «هذه المدينة ليست مسرحي». صافحهم جميعاً. بالترتيب الذي التقاهم به في جولته في الصالة. وكان يوجه إلى كل واحد منهم عبارة جاهزة، مستخلصة من دراسته متاهة آداب المجاملة، ولكنه لم ينظر إلى عينَي أيٍّ منهم. كان صوته المعدني الذي تتخلله شروخ حمّى، ونبرته الكاريبية التي لم تروّضها كل تلك السنوات من الترحال والتنقلات الحربية، تجعله يشعر بأنه يكون أكثر راحة حين يواجه لهجة الأنديزيين الشعبية في الحديث.

عندما انتهى من المصافحات. تسلم من الرئيس المؤقت رسالة مختومة وممهورة بتواقيع عدد من الشخصيات الغرناطية البارزة، يعبّرون له فيها عن امتنان البلاد لسنوات خدمته الطويلة. تظاهر بقراءتها أمام صمت الجميع، كضريبة أخرى من ضرائب الشكليات الاجتماعية المحلية، لكنه لم يكن قادراً في الحقيقة على قراءة كتابة ذات حروف أكبر حجماً من دون استعمال النظارة. ومع ذلك، وعندما تظاهر بأنه انتهى من القراءة، توجه إلى المودّعين بكلمة شكر مقتضبة، وكانت شديدة الارتباط بموضوع الوثيقة، بحيث لم يكن بمقدور أحد القول إنه لم يقرأها. وأخيراً، جال ببصره في الصالة، وسأل من دون أن يخفي شيئاً من الجزع:

«ألم يأت أوردانيتا؟».

أخبره الرئيس المؤقت أن الجنرال رافائيل أوردانيتا قد انطلق في أثر القوّات المتمردة ليساعد الجنرال خوسيه لاوروينثيو سيلفا في مهمته الاحترازية. ورفع أحدهم حينئذ صوته ليعلو على بقية الأصوات:

«وسوكره لم يأت كذلك».

لم يستطع الجنرال أن يتجاهل شحنة النيّات التي كان يحملها ذاك الخبر غير المطلوب. تألقت عيناه، المطفأتان والجافتان حتى ذلك الحين، ببريق محموم، وردّ من دون أن يعرف لمن يوجه إجابته.

«لم نخبر ماريشال أياكوتشو العظيم بموعد الرحيل كي لا نزعجه».

كان يجهل حينئذ، كما يبدو، أن الماريشال سوكره قد رجع قبل يومين من مهمته الفاشلة في فنزويلا، حيث حُظر عليه دخول أرض بلاده ذاتها. لم يخبره أحد بأن الجنرال ينوي الرحيل، ربما لأنه لم يخطر ببال أحد ألّا يكون هو أوّل من يعرف بالخبر. لقد علم خوسيه بالاثيوس بأمر عودته في لحظة نحس، ثم ما لبث أن نسي ذلك في جلبة الساعات الأخيرة. ولم يستبعد بالطبع الفكرة الخبيثة، بأن يكون الماريشال سوكره مستاء لعدم إعلامه.

كانت المائدة في صالة الطعام المجاورة مجهزة بالفطور الكريولي الرائع: رقائق التامال[1]، ومورثيللا[2] الأرز، والبيض المقلي مخفوقاً. وتشكيلة غنية من أصناف الخبز المحلّى فوق فوط من الدنتلا، وأواني الشوكولاته الساخنة والكثيفة التي تشبه عجينة عطره. كان أصحاب البيت قد أخّروا الفطور عن موعده، لعله يوافقه على ترؤس المائدة، بالرغم من أنهم يعرفون أنه لا يتناول شيئاً في الصباح سوى مُغلي شقائق النعمان مع الصمغ العربي. ومع ذلك، فقد قامت دونيا آماليا بواجب دعوته ليحتل المقعد المخصص له على رأس المائدة، لكنه أبى التكريم وتوجه إلى الجميع بابتسامة بروتوكولية. وقال:

«الطريق طويل. أرجو لكم شهية طيبة».

ألحف في وداع الرئيس المؤقت، فرد عليه هذا بعناق مهيب، أتاح للجميع التأكد من ضآلة جسد الجنرال، ورؤية كم يبدو مخذولاً وأعزل في لحظة الوداع. عاد بعد ذلك لمصافحة الجميع وتقبيل أيدي السيدات. وحاولت دونيا آماليا أن تؤخّره إلى أن يتوقف هطول المطر، بالرغم من أنها كانت تعرف جيداً، مثلما يعرف هو، أن المطر لن يتوقف طوال ما تبقى من القرن. إضافة إلى أنه كان يبدي رغبة شديدة في الذهاب بأسرع ما يمكن، ما جعلها ترى في محاولة تأخيره نوعاً من السفاهة. قاده رب البيت إلى الحظائر تحت رذاذ المطر غير المرئي في الحديقة. كان قد حاول مساعدته بإمساكه من ذراعه بأطراف أصابعه، وكأنه مصنوع من زجاج، ففوجئ بضغط الطاقة التي تسري تحت جلده، مثل تيار سرّي ليس له أدنى علاقة بضعف جسده. كان هناك مندوبون من الحكومة، ومن السلك

(1) التامال (Tamal): نوع من الفطائر، تصنع من عجينة الذرة، وتلف بأوراق الموز بعد حشوها بتتبيلة متنوعة.

(2) مورثيلا (Morcilla): نوع من السجق المحشو بشحم الخنزير ودمه ممزوجاً مع الأرز.

الدبلوماسي، ومن القوى العسكرية يغوصون في الوحل حتى كواحلهم، مبللين بماء المطر، وينتظرون مرافقته في المرحلة الأولى من رحلته. لكن أحداً لم يكن يعرف مع ذلك، معرفة يقينية، مَن هم الذين يرافقونه مَوَدّة، ومَن هم الذين يرافقونه لحمايته، ومَن هم الذين يرافقونه ليتأكدوا من أنه راحل حقاً.

البغلة المخصصة له كانت أفضل دابة في قطيع مؤلف من مئة بغلة، قدمها للحكومة تاجر إسباني مقابل إتلاف إضبارته كلص مواشي. كان الجنرال قد أدخل حذاءه في الركاب الذي قدمه له السائس، حين ناداه وزير الحربية والبحرية: «يا صاحب الفخامة» بقي ثابتاً وقدمه في الركاب ويداه الاثنتان تمسكان بالسرج.

فتابع الوزير قائلاً: «ابق هنا، وقم بتضحية أخرى لإنقاذ الوطن».

فرد عليه: «لا يا هيران. لم يعد لي وطن أضحّي في سبيله».

كانت تلك هي النهاية. فالجنرال سيمون خوسيه أنطونيو دي لاسانتيسيما تراينيداد بوليفار أي بالاثيوس، سيذهب إلى الأبد. كان قد انتزع من إسبانيا إمبراطورية أكبر من أوروبا بخمس مرات، وقاد عشرين سنة من الحروب للإبقاء على تلك البلاد حرّة وموحَّدة، وحكمها بقبضة حازمة حتى الأسبوع الفائت. لكنه لم يحمل معه في لحظة ذهابه، حتى ولا عزاء أن يصدقوه بأنه ذاهب. الشخص الوحيد الذي كان يتمتع بما يكفي من بعد النظر ليعرف أنه ذاهب حقاً، وليعرف كذلك إلى أين هو ذاهب، كان الدبلوماسي الإنكليزي الذي كتب في تقرير رسمي إلى حكومته:

«الوقت الذي تبقّى له لا يكاد يكفيه لأكثر من الوصول إلى القبر».

كانت المرحلة الأولى هي الأكثر مشقّة، ولا بدّ أنها ستكون كذلك حتى لشخص أقل منه مرضاً: فقد كان مزاجه معتكراً بسبب العداوة المستترة التي أحس بها في شوارع «سانتافي» صباح يوم الرحيل. كان الجو قد بدأ يصفو تحت رذاذ المطر، ولم يجد في طريقه سوى بعض الأبقار التائهة، لكن حقد خصومه كان محسوساً في الهواء. وبالرغم من احتياطات الحكومة، التي أمرت بانتقاله عبر شوارع أقل ارتياداً، فإن الجنرال تمكن من رؤية بعض الشتائم المكتوبة على جدران الأديرة.

كان خوسيه بالاثيوس يمضي على دابّته بجانبه. مرتدياً كعادته، حتى وهو في خضم المعارك، السترة الكنسية، ومشبك الياقوت الأصفر في ربطة العنق الحريرية، والقفازين المصنوعين من جلد جَدْي، وصدرية الحرير المزركش التي تتقاطع عليها سلسلتا ساعتَيْه التوأمين. كانت زينة سرج دابته مصنوعة من فضة بوتوسي، ومهمازاه من الذهب. وذلك ما جعل الناس يظنّون أنه الرئيس في أكثر من ضيعتين من ضياع الأنديز. ومع ذلك، فإن الاهتمام الذي كان يوليه لتلبية أدنى رغبات سيده جعل أي خطأ في الظن أمراً لا يمكن التفكير فيه. كان يعرفه ويحبه لدرجة التألم من ذلك الوداع الهروبي، في مدينة كان أقل إعلان عن وصوله إليها يتحول إلى عيد وطني. فقبل أقل من ثلاث سنوات، لدى عودته من حروب الجنوب

الظافرة، مثقلاً بأمجاد لم ينَل مثلها أي أميركي من الأحياء والأموات، حظي باستقبال عفوي صار أحد معالم ذلك العصر. كان الناس في ذلك الزمان يتعلقون بلجام جواده ويوقفونه في الشارع ليشكوا إليه من الخدمات العامة أو من الضرائب، أو ليطلبوا منه العطايا، أو لمجرد الشعور بالاقتراب من ألَق العظَمة، وكان يولي تلك المطالب الشارعية اهتماماً لا يقل عن اهتمامه بأخطر الشؤون الحكومية، ويبدي معرفة مذهلة بالمشاكل الخاصة بكل فرد، أو بحالة تجارته، أو بمعاناته الصحية، وكان يترك لدى كل من يتحدث إليه إحساساً بالمشاركة، لبرهة، في ملذات السلطة.

ما كان أحد ليصدّق أن من يرحل الآن هو ذلك الشخص نفسه، ولا أن تلك المدينة هي المدينة الصامتة نفسها التي يغادرها إلى الأبد باحتراس قاطع طريق. لم يشعر بالغربة في أي مكان مثلما شعر بها في تلك الأزقة المجافية، ذات البيوت المتماثلة بسقوفها البنية وحدائقها الداخلية ذات الأزهار العابقة بروائح طيبة، حيث كانت تُطهى على نار هادئة جالية ريفية، تنفع أساليبها المتأنقة ولهجتها ذات اللكنة في الإخفاء أكثر مما في التصريح. وبالرغم من ذلك، ومع أن الأمر بدا له وكأنه سخرية من سخريات المخيلة، فإن تلك المدينة ذات الضباب والهبّات الجليدية، هي المدينة ذاتها التي اختارها قبل أن يعرفها ليشيد فيها أمجاده. وهي المدينة التي أحبها أكثر من أي مدينة أخرى، وتخيلها بمثالية على أنها مركز حياته ومبرر وجوده، وعاصمة نصف العالم.

وكان هو نفسه يبدو، في آخر الحسابات، المتفاجئ الأكبر بضياع اعتباره وصِيته. كانت الحكومة قد بثت حراساً غير مرئيين حتى في أقل الأماكن خطراً، فحال ذلك دون أن تخرج أمامه الزُمر الساخطة التي أعدمت دمية تمثّله في مساء اليوم السابق، لكنه كان يسمع على امتداد الطريق صرخة واحدة نائية: «لونغانيثووو!». والنفسُ البشرية الوحيدة التي أشفقت عليه كانت امرأة في الشارع، قالت له وهو يمر:

«ليكن الله معك أيها الشبَح».

لم يُبدِ أحد ما يشير إلى أنه قد سمعها. فغرق الجنرال في تأمل مكفهرّ، وواصل المسير فوق صهوة دابّته، غير عابئ بالدنيا، إلى أن خرجوا إلى السهل البهي. وفي موقع كواترو أسكنياس، حيث يبدأ الطريق الحجري، انتظرت مانويلا ساينث مرور الموكب، وحيدة على صهوة حصان. ولوّحت بيدها للجنرال من بعيد تلويحة الوداع الأخيرة. ولوّح هو لها بالطريقة ذاتها، وواصل السير. ولم يلتقيا بعدها أبداً.

توقف زذاذ المطر بعد وقت قصير، وصارت السماء إلى زرقة مشعّة، وبقي بركانان ثلجيان ثابتان في الأفق طوال ما تبقى من مسيرة ذلك النهار. لكنه لم يبدِ هذه المرّة مظاهر شغفه بالطبيعة، ولم يولِ اهتماماً للقرى التي كانوا يجتازونها في خبَبٍ متواصل، ولا لتلويحات الوداع التي كان الناس يلوّحون بها لهم، من دون أن يعرفوهم، لدى مرورهم. لكن ما بدا غريباً لمرافقه هو أنه لم يلقِ ولو مجرد نظرة حنان واحدة على قطعان الخيول العظيمة في مرابع تربية الخيول الكثيرة المنتشرة في السهل، والتي كثيراً ما قال إنها أكثر مشهد يُحبّه في الدنيا.

في بلدة فاكاتاتيفا، حيث باتوا ليلتهم الأولى، ودّع الجنرال مرافقيه الطوعيين، وواصل الرحلة مع موكبه. كانوا خمسة أشخاص، فضلاً عن خوسيه بالاثيوس، وهم: الجنرال خوسيه ماريا كارينيو، وذراعه اليمنى مبتورة بسبب إصابة حرب، ومرافقه الإيرلندي الكولونيل بلفورد هينتون ويلسون، ابن السير روبيرت ويلسون، الجنرال المجرّب في حروب أوروبا جميعها تقريبا؛ وفرناندو، ابن أخيه ومرافقه وكاتبه الذي يحمل رتبة ملازم، وهو ابن أخيه الأكبر الذي قضى نحبه في حادث غرق سفينته خلال عهد الجمهورية الأولى، وقريبه ومرافقه الكابتن أندريس ايبارا، وذراعه اليمنى عاجزة كذلك بفعل ضربة سيف تلقاها قبل سنتين، أثناء هجوم الخامس والعشرين من أيلول، والكولونيل خوسيه دي لاكروث باريديس، المجرّب

في عدد من حملات الاستقلال. وكان حرس الشرف مؤلفاً من مئة فارس وجندي طويل مختارين من أفضل عناصر الفرقة الفنزويلية.

كان خوسيه بالاثيوس يولي اهتماماً خاصاً لكلبين غنموهما من حرب في أعالي البيرو. كانا كلبين جميلين باسلين، وأصبحا حارسين للبيت الحكومي في سانتافي إلى أن لقي رفيقان لهما مصرعهما طعناً بالمدى، في ليلة محاولة الاغتيال. وأثناء الرحلات المتواصلة من ليما إلى كيتو، ومن كيتو إلى سانتافي، ومن سانتافي إلى كاراكاس، ثم العودة مرّة أخرى إلى كيتو وغواياكيل، كان الكلبان يحرسان الأحمال بالسير في أثر القافلة. وقد فعلا الشيء ذاته في الرحلة الأخيرة من سانتافي إلى كارتاخينا، بالرغم من أن الحمولة لم تكن كبيرة يومئذ، وكانت هناك فرقة عسكرية تقوم على حراستها.

استيقظ الجنرال في فاكاتاتيفا معتكر المزاج، لكنه راح يتحسن شيئاً فشيئاً مع نزولهم من السهل عبر درب بين رَوابٍ متعرجة، وبدأ الجو بالاعتدال وصار الضوء أقل صفاء مما كان عليه. دعوه للاستراحة في عدة مناسبات، لقلقهم على حال جسده، لكنه فضّل مواصلة المسير من دون غداء حتى الأراضي الدافئة. كان يقول إن وقع خطى الدابة ملائم للتأمل والتفكير. وكان يسافر سفراً متواصلاً يستمر عدة أيام وليال، مستبدلاً ركوبته مرات ومرات لكي لا يتعبها. كانت ساقاه معوجّتين مثل سيقان الفرسان القدماء، وكان يمشي مثل من ينامون والمهاميز في أقدامهم، وقد تشكلت حول شرجه بقعة قاسية وخشنة تشبه مِسَنّ الحلاق، مما جعله جديراً بلقب الشرف: ذا الطيز الحديدية. لقد اجتاز على صهوة جواده، منذ بدأت حروب الاستقلال، ثمانية عشر ألف فرسخ: أي ما يزيد على مسافة الدوران حول العالم مرتين. ولم يُكذّب أحد على الإطلاق الأسطورة القائلة إنه كان ينام وهو راكب على حصانه.

بعد الظهر، حين بدأوا يشمّون البخار الساخن المتصاعد من حقول القصب، مُنحوا استراحة قصيرة في دير بعثة تبشيرية. وقد قامت الراهبة

العليا بنفسها على خدمتهم. ووزعت عليهم راهبات مستجدّات من بنات السكان الاصليين حلوى من اللوز المعجون بالسكر أُخرجت من الفرن لتوّها، وعصيدة من ذرة حُبيبية موشكة أن تختمر. حين رأت الراهبة العليا طليعة الجنود المتعرّقين بملابسهم التي لا تحمل أية رتب عسكرية، فكرت بأن ويلسون هو من دون ريب أعلاهم مرتبة، ربما لأنه وجيه وأشقر ويرتدي بدلة أكثر فخامة، فأحاطته وحده برعاية شديدة الأنوثة أثارت تعليقات خبيثة.

لم يُضِع خوسيه بالاثيوس فرصة الانتفاع من ذلك الخطأ كي يتيح لسيده أن يستريح في ظل أشجار الثيبا التي في الدير، حيث كان يجلس مشتملاً بدثار من الصوف ليتعرّق حُمّاه. وبقي على تلك الحال، من دون أن يتناول طعاماً أو شراباً، يستمع وسط الضباب إلى أغنيات المجموعة الكريولية التي غنتها المستجدات بمصاحبة قيثارة كانت تعزف عليها راهبة عجوز. أخيراً، طافت إحداهن في الرواق حاملة قبّعة وتطلب الصدقات للإرسالية. وقد قالت لها راهبة القيثارة حين مرّت أمامها: «لا تطلبي شيئاً من المريض» لكن المستجدة لم تكترث لكلامها. فقال لها الجنرال بابتسامة مريرة، ومن دون أن ينظر إليها: «إنني موجود لجمع الصدقات يا بنيتي». أعطاها ويلسون من ماله الخاص بإسراف استحق عليه سخرية رئيسه الودّية: «هاأنتذا ترى كم هو المجد مكلف يا كولونيل». وقد أبدى ويلسون نفسه استهجانه في ما بعد لأن أحداً ممن في الدير، أو ممن التقوا بهم في بقية الطريق لم يتعرّف على الرجل الأوسع شهرة في الجمهوريات الجديدة. وكان الأمر بالنسبة للرجل نفسه درساً غريباً بلا شك، جعله يقول: «أنا لم أعد أنا».

أمضوا الليلة الثانية في مصنع سيجار قديم حُوّل إلى نزل للمسافرين، قريباً من بلدة غوادواس، حيث انتظروهم ليقيموا لهم حفل إنصاف لم يشأ

الجنرال مكابدته. كان البيت فسيحاً ومعتماً، والمكان بأسره يبعث في النفس كآبة غريبة، بسبب الخضرة الشرسة والنهر ذي المياه السوداء التي تهوي على المنحدر الوعر بصخب مدمّر حتى بيارات الموز في الأراضي الساخنة. كان الجنرال يعرف المكان، وقد قال عندما مرّ من هناك أوّل مرّة: «إذا كنت سأنصب كميناً مميتاً لأحد، فإنني سأختار هذا الموقع». وقد تفادى المرور من المكان في مناسبات أخرى، لمجرد أنه يذكّره بممر برويكوس، وهو ممر مشؤوم في الطريق إلى كيتو ما زال أشد المسافرين جسارة يفضلون تجنب المرور فيه. وقد أقام معسكره في إحدى المناسبات على مسافة فرسخين من المكان، مخالفاً بذلك رأي الجميع، لأنه كان يعتقد أنه عاجز عن تحمّل كل تلك الكآبة. أما هذه المرّة، وبالرغم من الإرهاق والحمى، فقد بدا له المكان محتملاً على أي حال أكثر من مأدبة العزاء التي ينتظره بها أصدقاؤه المرتبكون في غوداواس.

حين رآه صاحب النزل يصل وهو في تلك الحالة المحزنة، اقترح عليه أن يستدعي من إحدى القرى القريبة هندياً قادراً على علاج المريض بمجرد أن يشتم قميصه المضمّخ بالعرق، مهما كانت المسافة بينهما بعيدة، ومن دون أن يكون قد رأى المريض على الإطلاق. سخر الجنرال من سذاجته، ومنع كل من يرافقونه من محاولة التعامل بأي شكل من الأشكال مع ذلك الهندي المبروك. فإذا كان لا يؤمن بالأطباء الذين يقول عنهم إنهم تجّار ألم الآخرين، فلا سبيل للأمل بأن يسلم مصيره إلى روحاني من الطريق. وأخيراً، وتأكيداً لازدرائه للعلوم الطبية، احتقر غرفة النوم الجيدة التي أعدوها له، لكونها أكثر ملاءمة من سواها لحالته الصحية. فعلق أرجوحة نومه في الرواق الفسيح المكشوف والمطل على وادٍ منخفض، حيث سيمضي الليل معرِّضاً نفسه لمخاطر الأرق.

لم يكن قد تناول طوال اليوم شيئاً سوى الشراب الساخن الذي شربه عند الفجر، لكنه لم يجلس إلى المائدة إلّا مجاملة لضباطه. وبالرغم من

أنه كان قادراً على التلاؤم مع الحياة في المعسكر أكثر من أي شخص آخر، وكان أقل من ناسك في ما يتعلق بالطعام والشراب، فإنه كان يحب نتاج الأقبية والمطابخ، ويعرفه مثل أوروبي نقي. وقد تعلم من الفرنسيين، منذ رحلته الأولى، عادة التحدث عن الطعام أثناء الأكل. لم يشرب في تلك الليلة سوى نصف كأس من النبيذ الأحمر. وتذوّق، بدافع الفضول، لقمة واحدة من الغزال المطبوخ، ليتحقق من صحة ما قاله صاحب النزل وأكده ضباطه: من أن للحم المتفسفر مذاق الياسمين. ولم يقل سوى جملتين خلال العشاء. لم ينطق بهما بحماسة أشدّ مما أبداه في أقواله القليلة جداً في أثناء الرحلة، لكن الجميع قدّروا جهده في تحلية خلّ نكباته العامة وسوء صحته بملعقة من الآداب الحميدة. لم يعد إلى التفوّه بكلمة واحدة في السياسة. ولم يأت على ذكر أي حدث من أحداث يوم السبت، وهو الرجل الذي لا يستطيع تجاوز حكّة الضغينة ولو بعد انقضاء سنوات على الإهانة التي سببتها.

استأذن في الانصراف قبل أن ينتهوا من تناول الطعام. ارتدى ثوب النوم وطاقيته وهو يرتعش من الحمى، وتهالك على الأرجوحة. كانت ليلة باردة، وبدأ يرتفع من بين التلال قمر برتقالي هائل، لكنه لم يكن راغباً في رؤيته. انطلق جنود الحراسة يغنون أغنيات شعبية دارجة على بعد خطوات قليلة من الرواق. فقد كانوا ينامون قريباً من حجرة نومه، تنفيذاً لأمر قديم أصدره، مثل فيالق يوليوس قيصر، ليعرف أفكارهم ونواياهم من خلال أحاديثهم الليلية. وكثيراً ما كانت مسيرات أرقه تقوده إلى أماكن نوم عناصر الحملة. ولم تكن قليلة المرّات التي شهد فيها بزوغ الفجر وهو يغني مع الجنود أغنيات الثكنة، مرفقة بمقاطع إطراء أو سخرية تُرتجل في حرارة الحفلة. لكنه لم يتحمل الغناء في تلك الليلة، فأمر بإسكاتهم. وانضمّ ارتطام النهر الأبدي بالصخور، الذي فاقمته الحمى، إلى الهذيان فصرخ:

«أير! لو أنهم يستطيعون وقفه لحظة على الأقل».

لكن ذلك لم يكن ممكناً: فهو لم يعد قادراً على وقف مسار الأنهار. أراد خوسيه بالاثيوس أن يهدئه بأحد المسكنات الكثيرة التي يحملها في علبة الإسعاف، لكنه رفض ذلك. وكانت تلك هي المرّة الأولى التي سمعه يقول فيها عبارته الشائعة: «لقد تخليت لتوي عن السلطة بسبب دواء مقيّء تناولته بطريق الخطأ، ولست مستعداً للتخلي عن الحياة أيضاً». كان قد قال الكلام ذاته قبل سنوات، حين عالجه طبيب من حمى ثلاثية بشراب زرنيخي كريه الطعم كاد يميته بالدوزنطاريا. ومنذ ذلك الحين صارت الأدوية الوحيدة التي يتقلبها هي حبوب المليّن التي يتناولها بتكتم عدة مرات كل أسبوع للتخلص من إمساكه العنيد، وحقنة شرجية بمغلى أوراق السَنا في حالات التأخر العصيبة.

بعد منتصف الليل بقليل، استلقى خوسيه بالاثيوس، المنهوك من هذيان الآخر، وغطّ في النوم على أحجار الأرضية الجرداء. عندما استيقظ لم يجد الجنرال في أرجوحة النوم، ورأى أنه قد ترك قميص نومه المبلل بالعرق على الأرض. لم يكن في ذلك ما يدعو إلى الاستغراب، فقد كان من عادة الجنرال مغادرة الفراش والطواف عارياً حتى الفجر كي يسلو أرقه حين لا يكون هناك أحد في البيت. أما في تلك الليلة فكانت الأسباب كافية ليخشى من إصابته بمكروه، فقد أمضى يوماً سيئاً من حياته، ولم يكن الجو البارد والرطب مناسباً للتمشي في العراء. بحث عنه خوسيه بالاثيوس في أرجاء البيت المضاء بالنور القمري الأخضر، وهو يحمل معه دثاراً، إلى أن وجده مضطجعاً على عتبة الممر، مثل تمثال رابض فوق جثوة قبر. التفت الجنرال نحوه بنظرة صاحية لا أثر فيها للحمى، وقال:

«ما يحدث الآن يبدو وكأنه إعادة لتلك الليلة التي قضيناها في سان خوان دي بايارا، ولكن بغياب رينا ماريا لويسا للأسف».

كان خوسيه بالاثيوس يعرف تلك الذكرى جيداً. فالجنرال يشير إلى ليلة من ليالي شهر كانون الثاني سنة 1820، في بلدة فنزويلية منسية في سهوب

أبوريه المرتفعة، والتي كان قد وصلها مع ألفي رجل من جنوده. كان يومها قد حرَّر ثماني عشرة مقاطعة من السيطرة الإسبانية، وأسس جمهورية كولومبيا من الأراضي التي كانت تعرف سابقاً باسم ولاية غرناطة الجديدة وقيادة فنزويلا العامة ورئاسة كيتو، وكان هو رئيسها الأول حينئذ والقائد العام لجيوشها. كان حلمه النهائي هو توسيع الحرب إلى الجنوب لتحقيق الحلم الخيالي بإقامة أكبر أمة في العالم: بلد حر واحد موحد، ابتداء من المكسيك وحتى رأس هورنوس.

ومع ذلك، لم يكن وضعه في تلك الليلة بالملائم للأحلام. لأن وباءً مفاجئاً كان قد بدأ بالانقضاض على البهائم وهي سائرة، مخلفاً في السهب ركاماً من النتانة المبعثرة على امتداد أربعة عشر فرسخاً نتيجة الخيول النافقة. انهارت عزيمة عدد كبير من الضباط الذين أخذوا يشغلون أنفسهم بأعمال السلب والنهب ويميلون إلى العصيان. ووصل الأمر ببعضهم حدّ السخرية من تهديدات الجنرال بإعدام المذنبين. كان ألفان من الجنود ذوي الأسمال والحفاة، الذين باتوا من دون أسلحة، ومن دون طعام، ومن دون بطانيات لمقاومة مناخ القفر، والمتعبين من الحروب، والذين هدّ المرض معظمهم، قد بدأوا ينشقّون ويتشتتون. ونظراً لغياب حل جذري، أصدر الجنرال يومها أمراً بتقديم عشرة بيزوات مكافأة للدوريات التي تعتقل زميلاً منشقّاً وتسلمه، أو تعدمه من دون التحرّي عن الأسباب التي دفعتها إلى ذلك.

كانت الحياة قد قدّمت له ما يكفي من الأسباب ليعرف أنه لا وجود لهزيمة أخيرة. فقبل أقل من سنتين من ذلك، وفيما هو تائه مع قواته بالقرب من هناك، في أدغال أورينوكو، اضطر إلى إصدار أمر يسمح بأكل الخيول، خشية إقدام الجنود على أكل بعضهم بعضاً. في تلك الفترة، واستناداً إلى شهادة ضابط من الفيلق البريطاني، كان له مظهر محارب جاف وخشن. فقد كان يعتمر خوذة فارس روسي، وينتعل صندل بغّال، ويرتدي سترة

زرقاء عليها زخارف حمراء وأزرار مذهبة، ويحمل راية قراصنة سوداء مرفوعة على رمح، عليها رسم جمجمة وعظمَيْ ساق متقاطعين فوق شعار مكتوب بالدم: «الحرية أو الموت».

أما في ليلة سان خوان دي بايارا، فكان زيّه أقل تشرداً، لكن وضعه لم يكن أفضل. ولم يكن يعكس حينئذ حالة قواته الراهنة، وإنما مأساة الجيش المحَرِّر كله، الذي كان يخرج من أشنع الهزائم وهو أكثر عظمة، ولكنه مع ذلك كان يكاد يهلك تحت ثقل انتصاراته الكثيرة. بينما كان الجنرال الإسباني، دون بابلو موريو، يملك بالمقابل جميع أنواع الموارد اللازمة لإخضاع الوطنيين وإعادة ترميم النظام الاستعماري، وكان لا يزال مسيطراً على قطاع واسع من غرب فنزويلا، إضافة إلى إحرازه قوة متفوقة في الجبال.

أمام ذلك الوضع، كان الجنرال يرعى أرقه بالمشي عارياً في حجرات البيت القديم المقفرة، وسط مزرعة يبدّل البهاء القمري من مظهرها. كانت معظم الخيول التي نفقت في اليوم السابق قد أُحرقت بعيداً عن البيت، لكن رائحة النتانة كانت لا تطاق. ولم يعد الجنود يغنّون كعادتهم بعد أسفار الأسبوع الأخير القاتلة، ولم يكن هو نفسه قادراً على منع الحرّاس من النوم بعدما هدّهم الجوع. وفجأة، في نهاية ممر مفتوح يطل على السهوب الزرقاء المترامية، رأى رينا ماريا لويسا جالسة على العتبة. كانت خلاسية جميلة في زهرة العمر، صورة وجهها الجانبية تبدو أشبه بتمثال إله، وكانت تلفّ جسدها، حتى قدميها بمنديل كبير مطرزة عليه رسوم أزهار، وتدخن سيجاراً طوله شبر. فزعت حين رأته، ومدّت نحوه صليباً شكلته بإصبعَيْها، السبابة مع الإبهام، وقالت:

«سواء كنت من جانب الربّ أم من جانب الشيطان، قل ما الذي تريده!».

فقال لها:

«أريدك أنت». وابتسم لها.

وستتذكر هي بريق أسنانه اللامعة على ضوء القمر. احتضنها بكل قواه، مانعاً إياها من الحركة فيما هو ينقرها بقبلات متتالية على جبهتها، على عينيها، على خديها، على عنقها، إلى أن تمكن من ترويضها. حينئذ نزع عنها المنديل الكبير، وانقطعت أنفاسه. لقد كانت عارية أيضاً، فجدتها التي تنام معها في الغرفة ذاتها، تخلع عنها ملابسها كي لا تنهض من الفراش وتدخّن، من دون أن تدري أنها تهرب عند الفجر وهي تلف جسدها بالمنديل الكبير. حملها الجنرال إلى أرجوحة النوم، من دون أن يتيح لها فرصة للمقاومة بقبلاته البلسمية. لكنها لم تستسلم له بدافع الرغبة والحب، وإنما بسبب الخوف. كانت لا تزال عذراء. وعندما استعادت سيطرتها على قلبها، قالت له:

«إنني عبدة يا سيدي».

فقال: «لم تعودي كذلك. لقد أعتقك الحب».

في الصباح اشتراها من صاحب النزل بمئة بيزو من ماله الخاص المتناقص، وأعتقها من دون شرط. وقبل أن يرحل لم يقاوم إغراء أن يعرض عليها أمام الملأ معضلة ذات حدَّين. كان في فناء البيت الخلفي مع مجموعة من الضباط. وكانوا يمتطون صهوات بهائم الخدمة التي نجت من الوباء وبقيت على قيد الحياة، بينما كانت تجتمع لوداعهم فرقة أخرى بقيادة الجنرال خوسيه أنطونيو بايث، الذي كان قد وصل إليهم في الليلة السابقة.

ودّعهم الجنرال بخطبة قصيرة، لطّف فيها من مأسوية الوضع. وعندما استعد للمسير، لمح رينا ماريا لويس وهي في وضعها الجديد: امرأة حرّة وراضية. كانت قد استحمت للتو، فبدت جميلة ومشعّة تحت سماء السهب، وكان كل ما ترتديه أبيض مُنشّى ومؤلفاً من تنورة مزينة بكشاكش الدنتلا، وبلوزة صغيرة كالتي ترتديها العبدات. فسألها برغبة طيبة:

«هل ستبقين هنا أم ستأتين معنا؟».

ردّت عليه وهي تضحك ضحكة فاتنة:

«سأبقى يا سيدي».

قوبل ردّها بقهقهة جماعية احتفالية. حينئذ قام صاحب البيت، وهو إسباني انضمّ منذ اللحظة الأولى إلى قضية الاستقلال، وصديق قديم للجنرال، وألقى إليه بالجراب الجلدي الذي ضم المئة بيزو، وهو غارق في الضحك. فتلقفه الجنرال في الهواء.

قال صاحب النزل:

«احتفظ به من أجل القضية يا صاحب الفخامة. فالشابة ستبقى حرّة على أي حال».

أما الجنرال خوسيه أنطونيو بايث، الذي كانت ملامحه الفونوية[1] تتناسب تماماً مع قميصه ذي الرقع الملونة، فقد أطلق ضحكة مجلجلة وكاشفة وقال:

«ها أنتذا ترى أيها الجنرال. كل هذا يحدث لنا لأننا جعلنا من أنفسنا محَرِّرين».

أيد الجنرال ذلك، وودع الجميع بحركة دائرية واسعة من يده. ثم أشار أخيراً إلى رينا مارليا لويسا مودعاً إياها مثل خاسر طيب، ولم يعد يعرف عنها شيئاً على الإطلاق. وحسبما يذكر خوسيه بالاثيوس، فإنه لا تمر سنة ذات أقمار بدور إلا ويقول له الجنرال إنه قد عاد يعيش تلك الليلة مرّة أخرى، ولكن للأسف من دون ظهور رينا ماريا لويسا العجيب، وتكون تلك الليلة على الدوام ليلة هزيمة.

في الساعة الخامسة، حين حمل له خوسيه بالاثيوس أوّل فنجان من الشراب المغلي، وجده مضطجعاً مفتوح العينين. لكنه حاول النهوض

---

(1) الفونوية: نسبة إلى فونو Faunus: إله الحقول عند الرومان.

باندفاعة شديدة كاد يهوي معها على وجهه، وهاجمته نوبة سعال حاد. بقي جالساً في أرجوحة النوم، مسنداً رأسه بكلتا يديه وهو يسعل، إلى أن مرّت النوبة. حينئذ بدأ يشرب الشراب الساخن وتحسّن مزاجه منذ الرشفة الأولى.

قال: «حلمت الليل بكاسانديرو».

كان ذلك هو الاسم الذي يطلقه سراً على الجنرال الغرناطي فرانثيسكو دي باولا سانتَندير، صديقه العظيم في زمن آخر، وعدوه اللدود في كل الأزمنة، ورئيس أركانه منذ بداية الحرب، والرئيس المكلف بإدارة شؤون كولومبيا خلال حملات تحرير كيتو والبيرو وتأسيس بوليفيا. وبدافع الحاجة التاريخية الماسة أكثر مما هو بدافع المَيْل والرغبة، صار عسكرياً كفوءاً وشجاعاً، فيه ميل غريب إلى القسوة، لكن مزاياه المدنية وتحصيله الأكاديمي العالي كانوا وراء ترسيخ مجده. ولا شك في أنه كان الرجل الثاني في تحقيق الاستقلال، والرجل الأول في وضع القانون الحقوقي للجمهورية، التي فرض عليها وإلى الأبد، طابع روحه الشكلانية والمحافظة.

في واحدة من المرّات الكثيرة التي راودت الجنرال فيها فكرة الاستقالة، قال لسانتَندير إنه سيغادر الرئاسة مطمئناً «لأني سأتركها لك، وأنت لست إلا أنا آخر، وربما أفضل مني». لم يول أي شخص آخر، سواء بالعقل أو بقوة الوقائع، كل تلك الثقة التي أولاه إياها. وكان هو الذي خصّه بلقب رجل القوانين. ومع ذلك، فإن الشخص الذي استحق عن جدارة كل تلك الأشياء كان يعيش منذ سنتين منفياً في باريس لمشاركته التي لم تثبت مطلقاً في مؤامرة لاغتيال الجنرال.

جرى الأمر على هذا النحو: يوم الأربعاء 25 أيلول 1828، عند خيط انتصاف الليل، أقدم اثنا عشر مدنياً وستة عشر عسكرياً على خلع بوابة البيت الحكومي في مدينة سانتافي وذبحوا اثنين من كلاب الرئيس،

وجرحوا عدداً من الحرّاس، وأصابوا ذراع الكابتن أندريس ايبارا بجرح بليغ بضربة سيف، وقتلوا بطلقة رصاص الكولونيل الاسكتلندي وليم فيرجسون، عضو الفيلق البريطاني، ومرافق الرئيس الذي كان قد قال عنه إنه شجاع مثل قيصر، وصعدوا إلى مخدع الرئيس وهم يصرخون: تحيا الحرية والموت للطاغية.

سيبرّر المتمردون محاولة الاغتيال بالصلاحيات الاستثنائية التي تنم عن روح ديكتاتورية واضحة، والتي كان الجنرال قد تولّاها قبل ثلاثة شهور، لكي يعوّض عن الانتصار الذي حققه السَنتانديريين في معاهدة أوكانيا. وألغي منصب نائب الرئيس، الذي كان سانتَنَدير قد شغله طوال ست سنوات. وقد أخبر سانتَنَدير أحد أصدقائه بالأمر في عبارة نموذجية تعبّر عن أسلوبه الشخصي:

«لقد نلت متعة السقوط تحت أنقاض دستور 1821».

كان عمره حينئذ ستة وثلاثين عاماً. وقد عُين وزيراً مفوضاً في واشنطن، لكنه أجّل سفره إليها عدة مرات، ربما بانتظار انتصار المؤامرة.

كان الجنرال قد بدأ للتو ليلة مصالحة مع مانويلا ساينث، فقد أمضيا نهاية الأسبوع المنصرم في بلدة سواتشا، على بعد فرسخين ونصف، ورجعا يوم الاثنين في عربتين منفصلتين بعد نزاع غرامي أشد حدة من النزاعات المعتادة، لأنه أصمّ أذنيه على تحذيراتها له من مؤامرة لقتله، يتحدث الجميع عنها بينما لا يصدق هو وحده أي شيء عن أمرها. وقد تجاهلت مانويلا جميع الرسائل الملحّة التي أرسلها إليها من قصر سان كارلوس، على الرصيف المقابل لبيتها، حتى الساعة التاسعة من تلك الليلة، حين نهضت بعد تلقيها ثلاث رسائل أشد إلحاحاً، فانتعلت خفاً واقياً من المطر فوق حذائها، وغطت رأسها بمنديل كبير، واجتازت الشارع الغارق بماء المطر. وجدته طافياً على ظهره في مياه حوض الاستحمام الشذية، من دون حضور خوسيه بالاثيوس، وإذا كانت لم تظنه ميتاً، فلأنها

رأته مرات كثيرة وهو غارق في تأملاته على تلك الحالة من الاستسلام. عرفها من خطواتها، وكلّمها من دون أن يفتح عينيه. قال:

«سيقع تمرّد». فردت عليه:

«مبروك. يمكن أن تكون هناك حتى عشر مؤامرات. لأن حضرتك لا تكترث بالتحذيرات».

فقال: «لا أؤمن إلا بالإيحاءات».

كان يبيح لنفسه تلك اللعبة لأن رئيس أركانه، الذي أطلع المتآمرين على كلمة سر تلك الليلة كي يتمكنوا من خداع حراس القصر، أكّد له أن المؤامرة قد أخفقت. ولهذا فقد خرج من الحمّام جذلاً، وقال: «لا تقلقي، يبدو أن عصفورة أولئك المخنثين قد بردت».

كانا قد شرعا بمداعبات الحب في السرير، وكان هو عارياً، فيما خلعت هي نصف ملابسها عندما سمعا الصرخات الأولى، والرصاصات الأولى، ودوي القذائف الموجهة إلى معسكر مُوالٍ له. ساعدته مانويلا على ارتداء ملابسه بأسرع ما يمكن، وأنعلته الخف الواقي من المطر الذي جاءت وهي تلبسه فوق حذائها، لأن الجنرال كان قد أرسل جزمته الوحيدة لتلميعها، وساعدته على الهرب من الشرفة ومعه شرشف ومسدس. ولكن من دون أي شيء آخر يقيه المطر الأزلي. وما إن أصبح في الشارع حتى رفع مسدسه الذي كان زنده مرفوعاً، وسدّده نحو شبح يدنو منه: «مَن الذي يعيش!» كان ذاك هو حلوانيّه عائداً إلى البيت، متألماً للخبر الذي سمعه عن مقتل سيّده. قرر الحلواني مشاركة الجنرال مصيره حتى النهاية، وبقي مختبئاً معه وسط أجمة جسر الكارمن، في نهير سان أغوسطين، إلى أن أحبطت القوّات الموالية الفتنة.

استقبلت مانويلا شاينث المهاجمين، الذين حطموا باب غرفة النوم، بدهاء وشجاعة كانت قد أبدت مثلهما في حالات طوارئ تاريخية أخرى.

سألوها عن الرئيس، فأجابتهم إنه في صالة المجلس. سألوا عن سبب فتح باب الشرفة في ليلة شتائية. فقالت إنها فتحته لترى سبب الضجة التي انتشرت في الشارع. سألوا لماذا كان السرير دافئاً. فقالت لهم إنها استلقت عليه من دون أن تخلع ملابسها بانتظار مجيء الرئيس. وفيما هي تكسب الوقت بأجوبتها المحددة، كانت تدخن سيجار حوذيّ من أرخص الأنواع، وتنفث دخاناً كثيفاً لتغطي به على رائحة ماء الكولونيا الباردة التي ما زالت تعبق في الحجرة.

أقرت محكمة يرأسها الجنرال رافائيل أوردانيتا بأن الجنرال سانتَنْدير هو العقل المدبّر للمؤامرة، وحكمت عليه بالإعدام. وسيقول أعداء سانتَنْدير بعد المحكمة إن ذلك هو أخف مما يستحق. ليس لذنبه في محاولة الاغتيال، بل لوقاحته في كونه أوّل من وصل إلى الساحة الكبرى لمعانقة الرئيس. كان هذا الأخير يمتطي جواداً، تحت رذاذ المطر، ويرتدي سترة عسكرية ممزقة ومبللة، من دون قميص تحتها، وسط هتافات الجنود وعامة الشعب الذين هرعوا في جماعات حاشدة من الضواحي مطالبين بالموت للقتلة.

«جميع المشاركين في المحاولة سيعاقبون بالعقوبات التي يستحقونها»، هذا ما قاله الجنرال في رسالة إلى الماريشال سوكره. وقد أضاف فيها: «سانتَنْدير هو المذنب الأول، لكنه الاوفر حظاً، لأن كرمي سيحميه».

وقد استخدم صلاحياته المطلقة فعلاً، ليخفف حكم الموت الصادر بحقه ويستبدله بالنفي إلى باريس. بينما تم، من دون أدلة كافية، إعدام الاميرال خوسيه برودينثيو باديللا، الذي كان معتقلاً في سانتافي بسبب تمرّد فاشل قام به في كارتاخينا دي اندياس.

لم يكن خوسيه بالاثيوس يعرف متى تكون أحلام سيّده بالجنرال

سانتَندير حقيقية ومتى تكون خيالية. ففي إحدى المرّات، في غواياكيل، روى الجنرال أنه قد حلم به، وأنه رآه يحمل كتاباً مفتوحاً فوق كرشه المكوّرة، لكنه بدلاً من قراءة الكتاب، كان ينتزع أوراقه ويأكلها ورقة ورقة، متلذذاً في مضغها مثل عنزة. وفي مرّة أخرى في كوكوتا، حلم بأنه رآه وهو مغطى تماماً بالصراصير. وفي مرّة أخرى استيقظ مطلقاً الصرخات في بيت مونسرات الريفي، في سانتافي، لأنه حلم بأن الجنرال سانتَندير، وبينما هما يتناولان طعام الغداء وحدهما، أخرج كرتَيْ عينيه لأنهما تعوقانه عن الأكل، ووضعهما على المضدة. لذلك حين قال الجنرال لخوسيه بالاثيوس فجر ذلك اليوم، وهم على مقربة من غوادواس، إنه قد حلم مرّة أخرى بسانتَندير فإن خوسيه بالاثيوس لم يسأله عن فحوى الحلم بل حاول أن يعيده إلى الواقع، فقال له:

«بيننا وبينه بحر فسيح».

لكن الجنرال أوقفه على الفور بنظرة حادة وقال:

«لم يعد الأمر كذلك. أنني واثق بأن خواكين موسكيرا الجبان سيسمح له بأن يعود».

كانت هذه الفكرة تؤرقه منذ عودة الأخير إلى البلاد، حين أصبح تنحّيه النهائي عن السلطة مطروحاً كمسألة شرف. وقد قال حينها لخوسيه بالاثيوس:

«أفضل المنفى أو الموت على عار ترك أمجادي في أيدي طلبة معهد سان بارتولومي».

ومع ذلك، فان الترياق كان يحمل معه السم الزعاف. فكلما اقترب من اتخاذ القرار النهائي، كان يقينه يزداد بأنه ما إن يغادر البلاد، حتى يُستدعى من المنفى الجنرال سانتَندير، الخرّيج الأكثر شهرة بين خرّيجي وكر أدعياء العلم بالحقوق ذاك.

قال: «هذا داهية بحق».

كانت الحمى قد توقفت تماماً، وأحس أنه يتمتع بحماس وافر، فطلب من خوسيه بالاثيوس أن يأتيه بريشة وأوراق، ثم وضع نظارته على عينيه، وكتب بخط يده رسالة من ستة سطور إلى مانويلا ساينث. كان لا بدّ لتصرفه ذاك من أن يبدو غريباً، حتى لشخص مثل خوسيه بالاثيوس المعتاد على تصرفاته الغريبة، ولم يكن فهم ذلك التصرف ممكناً إلا باعتباره ضربة إلهام لا تطاق، لأنه لا يتناقض مع قراره المتَخَذ يوم الجمعة السابق بعدم كتابة أيّ رسالة في ما تبقى من حياته وحسب، وإنما كان يخالف كذلك عادته في إيقاظ كتبته في أي وقت لإنجاز المراسلات المتأخرة، أو ليملي عليهم بياناً، أو لترتيب الأفكار المتفرّقة التي ترد إلى ذهنه في تأملات الأرق. وسيبدو الأمر أكثر غرابة عند العلم أن الرسالة ليست مُلحّة ومستعجلة، لأنه لم يضف إلى نصيحته التي وجّهها إليها عند الوداع سوى جملة واحدة تبدو أقرب إلى الغموض: «حذار مما تفعلين، وإلا فأنك ستضيعيننا معاً بإضاعتك نفسك». وقد كتبها بأسلوبه اللجوج، وكأنه لم يفكر بها، ثم واصل بعد ذلك هز الأرجوحة وهو غارق في التفكير، بينما الرسالة في يده.

«السلطة الكبرى قائمة في قوة الحب التي لا تقاوَم». ثم تنهد فجأة وأضاف: «من الذي قال هذا الكلام؟».

فقال خوسيه بالاثيوس:

«لا أحد».

لم يكن خوسيه بالاثيوس يعرف القراءة ولا الكتابة، وقد رفض التعلم دوماً متعللاً بحجة بسيطة تقول إنه لا وجود لحكمة أكبر من حكمة الحمير. لكنه كان قادراً بالمقابل على تذكر أيّ عبارة سمعها مصادفة، وهو لا يتذكر أنه سمع تلك العبارة التي ذكرها الجنرال.

فقال الجنرال:

«لقد قلتها أنا إذن، لكننا سنقول إنها للماريشال سوكره».

لم يكن هناك مَن هو أكثر ملاءمة لفترات الأزمات تلك من فرناندو. فهو الأكثر صبراً والأسرع في تلبية الخدمات بين كتبة الجنرال الكثيرين، بالرغم من أنه لم يكن أكثرهم تألّقاً، وهو الذي تحمّل بصبر عسف أوقات العمل الجائزة وضيق ليالي الأرق. كان الجنرال يوقظه في أي ساعة ليقرأ له كتاباً لا أهمية له، أو ليدوّن ملاحظات عن أفكار مفاجئة، ما إن يشرق عليها الصباح حتى تكون في القمامة. لم ينجب الجنرال أبناء في لياليه الغرامية الكثيرة (مع أنه كان يقول إن لديه ما يثبت أنه غير عقيم) وعندما توفي أخوه تولّى مسؤولية فرناندو، فأرسله مزوَّداً برسائل توصية إلى أكاديمية جورج تاون العسكرية حيث أعرب له الجنرال لافاييت عن مشاعر التقدير والاحترام التي يكنّها لعمّه. ثم ذهب بعد ذلك إلى جيفرسون، في تشارلوتفيل، وإلى جامعة فيرجينيا. لكنه لم يكن الخليفة الذي ربما حلم به الجنرال، فهو ينفر من المهارات الأكاديمية، ويُمتعه أن يستبدل بها الحياة في الهواء الطلق وقضاء الوقت في الأعمال الجنائنية.

استدعاه الجنرال إلى سانتافي فور انتهائه من دراسته، واكتشف مزايا الكاتب التي فيه على الفور، ليس بسبب جمال خطه وإتقانه التحدث باللغة الإنكليزية وكتابتها وحسب، بل لأنه كان فريداً في القدرة على ابتكار الأساليب الروائية التي تشد اهتمام القارى، ولأنه كان قادراً، أثناء القراءة، على ارتجال أحداث جريئة وإدخالها في النص فوراً، ليتبّل بها جفاء المقاطع المملة. وقد مرّ فرناندو، مثل جميع مَن عملوا في خدمة الجنرال، بلحظة شؤم حين نسب إلى سيسرون جملة لديموستينيس استشهد بها عمّه في إحدى خطبه في ما بعد. وقد اعتاد الجنرال معاملته بصرامة أشد من تلك التي يعامل بها الآخرين، بسبب كونه مَن يكون، لكنه غفر له في تلك المناسبة قبل أن يُنهي العقاب.

كان الجنرال خواكين بوسادا غوتيريث، حاكم المقاطعة، قد سبق الموكب قبل يومين، ليعلن عن قدومه في الأماكن التي سيصلها ليلاً، وينبه السلطات المحلية إلى خطورة حالة الجنرال الصحية. لكن مَن رأوه حين وصل إلى غوادواس مساء يوم الاثنين، اقتنعوا بصحة الشائعة العنيدة القائلة إن الأخبار السيئة التي حملها الحاكم، بل والرحلة ذاتها، ليست إلّا مكيدة سياسية.

كان الجنرال قد عاد قوياً لا يُقهر مرّة أخرى. دخل من الشارع الرئيسي كاشفاً عن صدره، عاقداً حول رأسه خرقة غجريّ لتمتص العرق، وكان يحيّي الناس بقبعته وسط الصياح ودوي الألعاب النارية وقرع نواقيس الكنيسة التي لم تكن تسمح بسماع صوت الموسيقى. وكان يمتطي بغلة جذلة الخطوات، مما نزع عن الاستعراض أية ادّعاءات احتفالية وقورة. والبناء الوحيد الذي ظلتْ نوافذه مغلقة هو معهد الراهبات، وقد انتشرت في مساء ذلك اليوم الإشاعة القائلة إن التلميذات قد مُنعنَ من المشاركة في الاستقبال، لكنه نصح من نقلوا إليه ذلك بألا يصدّقوا تقوّلات الأديرة.

كان خوسيه بالاثيوس قد أمر في الليلة السابقة بغسل القميص الذي تعرّق فيه الجنرال الحمى. وقد كلف جندي خادم بعض الجنود الذين نزلوا عند الفجر لغسل الملابس في النهر بأخذ القميص معهم، لكن أحداً منهم لم يتذكره عن الرحيل. وأثناء الرحلة إلى غوادواس، وبينما كانت الحمى تخف، توصل خوسيه بالاثيوس إلى أن صاحب النزل قد أخذ القميص قبل غسله إلى الهندي المبروك ليقوم بإثبات قدراته العلاجية. وحين عاد الجنرال إلى البيت، أطلعه خوسيه بالاثيوس على لعبة صاحب النزل، ونبهه إلى أنه لم يعد لديه أي قميص آخر سوى الذي يرتديه. فأخذ هو الأمر بخضوع فلسفي، وقال:

«ما زالت الخرافات أكثر رسوخاً من الحب».

فقال خوسيه بالاثيوس:

«الغريب في الأمر هو أن الحمى لم تعاودك منذ الليلة الماضية، ما قولك لو أن هذا المداوي كان ساحراً حقاً؟».

لم يجد جواباً فورياً، وأسلم نفسه لتأمل عميق، فيما هو يهزّ أرجوحة النوم بنفسه على إيقاع أفكاره. ثم قال: «الحقيقة أنني لم أعد أعاني آلاماً في الرأس ولم تعد في فمي مرارة، ولست أشعر بأنني سأهوي من أعلى برج».

لكنه ضرب كفيه على ركبتيه أخيراً، ونهض باندفاعة حازمة قائلاً:

« لا تُدخل مزيداً من البلبلة في رأسي».

حمل خادمان إلى حجرة النوم قِدراً كبيراً مليئاً بماء مغلي، فيه أوراق نباتات ذكية الرائحة، وجهز خوسيه بالاثيوس الحمّام الليلي موقناً من أنه سينام قريباً بفعل إرهاق السفر. لكن الحمّام برد فيما هو يملي رسالة موجهة إلى غابرييل كاماتشو، زوج ابنة أخته فالنتينا بالاثيوس، ووكيله الخاص في كاراكاس من أجل بيع مناجم أروا، وهي مكامن نحاس ورثها عن أسلافه. لم يكن يبدو عليه هو نفسه أن لديه فكرة واضحة عن مصير تلك المناجم، فقد كان يقول في أحد السطور، إنه سيذهب إلى كوراساو ريثما تصل مساعي كاماتشو إلى نهاية حميدة، ثم يطلب منه في سطر آخر أن يكتب له إلى لندن على عنوان السير روبيرت ويلسون، وأن يرسل نسخة أخرى من الرسالة إلى عنوان السيد ماكسويل هيلسوب في جامايكا ليكون متأكداً من أنه سيتلقّى إحداهما حتى لو ضاعت الرسالة الأخرى.

كانت مناجم أروا في نظر الكثيرين، وخصوصاً في نظر سكرتيرته وكتبته، مجرد هذيان سببه ارتفاع حرارته. فقد كان يوليها على الدوام قليلاً من اهتمامه، وتركها لسنوات عديدة في أيدي مستغلين عارضين. وقد تذكرها في أيامه الأخيرة، حين بدأت أمواله تنفد، لكنه لم يستطع بيعها لشركة انكليزية لعدم وضوح وثائق ملكيته. وكانت تلك هي بداية قضية قانونية شائكة وقديمة، ستستمر إلى ما بعد وفاته بسنتين. وفي خضمّ الحروب، والمشاحنات السياسية، والأحقاد الشخصية، لم يكن هناك من

يخطئ الظن حين يسمع الجنرال يقول: «دعواي القضائية» إذ لم تكن له دعوى قضائية سوى قضية مناجم أروا.

والرسالة التي أملاها في غوادواس لتوجَّه إلى غابرييل كاماتشو، جعلت ابن أخيه فرناندو يشعر بأنهم لن يذهبوا إلى أوروبا طالما لم يُحسم النزاع القضائي. وقد علّق فرناندو في ما بعد على ذلك، وهو يلعب الورق مع ضباط آخرين، فقال الكولونيل ويلسون:

«لن نذهب أبداً إذن. لقد وصل الأمر بأبي إلى التساؤل إذا ما كان هذا النحاس موجوداً حقاً في الحياة الواقعية».

ورد الكابتن أندريس إيبارا:

«كونه لم يرَ المناجم مطلقاً لا يعني أنها غير موجودة».

فقال الجنرال كارينيو:

«إنها موجودة، في إقليم فنزويلا».

وردّ ويلسون مستاء:

«إنني أتساءل عند هذا الحدّ إذا كان لفنزويلا نفسها من وجود كذلك».

لم يكن ويلسون قادراً على إخفاء تململه، فقد بلغت به الظنون حدّ الاعتقاد بأن الجنرال لا يُحبّه، وأنه يبقيه في معيته تقديراً لأبيه، الذي لا يستطيع إيفاءه حقه من الشكر لدفاعه عن الانعتاق الأميركي في البرلمان الإنكليزي. وهو يعلم أن الجنرال قد قال يوماً بسبب خيانة مرافق فرنسي قديم: «ويلسون بحاجة لقضاء بعض الوقت في مدرسة المشَقات، بل وفي مدرستَيّ الضيق والبؤس أيضاً». ولم يستطع الكولونيل ويلسون أن يتأكد من أنه قال ذلك، لكنه كان يعتقد على أية حال بأن معركة واحدة من المعارك التي خاضها تكفي للإحساس بأنه قد تُوّج بغار المدارس الثلاث. كان عمره ستاً وعشرين سنة، وقد أرسله أبوه منذ ثماني سنوات للعمل في خدمة الجنرال، بعدما أنهى دراسته في وست مينستر، وساندهورست. كان مرافقاً للجنرال

في معركة خونين، وكان هو مَن حمل مسوَّدة دستور بوليفيا على متن بغلة عبر طريق جبليّ ضيّق يمتد ثلاثمئة وسبعين فرسخاً ابتداء من تشوكيسالكا. وحين ودّعه الجنرال يومذاك، قال له إن عليه أن يكون في لاباز بعد واحد وعشرين يوماً في أقصى الحدود. فتأهب ويلسون وقال: «سأكون هناك بعد عشرين يوماً يا صاحب الفخامة». ووصل إليها بعد تسعة عشر يوماً.

لقد قرر العودة إلى أوروبا برفقة الجنرال، لكن يقينه كان يترسخ يوماً بعد يوم في أن هذا الأخير سيجد دوماً أسباباً مختلفة لتأجيل الرحيل. وحديثه مجدداً عن مناجم أروا، التي لم تعد ذريعة مفيدة لأي شيء منذ أكثر من سنتين، كان بالنسبة لويلسون مؤشراً مثبِّطاً للعزيمة.

أعاد خوسيه بالاثيوس تسخين ماء الحمّام فور الانتهاء من إملاء الرسالة، لكن الجنرال لم يستحم، بل واصل المشي من دون اتجاه محدَّد، مردّداً قصيدة الطفلة كاملة بصوت كان يرن في جميع أرجاء البيت. ثم تابع إلقاء قصائد كتبها هو نفسه، ولا يعرفها أحد سوى خوسيه بالاثيوس. وقد مرّ أثناء ذلك عدة مرّات في الرواق الذي كان ضباطه يلعبون فيه بالورق لعبة الروبيللا، وهي التسمية المحلية للعبة الكاسكاريلا[1] الغاليسية التي كان يلعبها في أزمنة سابقة. كان يتوقف برهة لينظر إلى اللعب من فوق كتف كل واحد منهم، ويستخلص نتائجه حول وضع اللعبة، ثم يواصل مشيه ويقول:

«لست أدري كيف يمكنكم إضاعة الوقت في لعبة مملّة كهذه».

ولكنه في إحدى وقفاته عن المشي، لم يستطع مقاومة إغراء الطلب من الكابتن إيبارا السماح له بالحلول مكانه على المنضدة. لم يكن يتمتع بصبر اللاعبين الجيدين، وكان عدوانياً وسيئاً عند الخسارة، لكنه كان في الوقت ذاته ماكراً يتقن وضع نفسه في مستوى مرؤوسيه. كان شريكه في اللعب

(1) لعبة من ألعاب الورق.

يومئذ هو الجنرال كارينيو، فلعب ستة أدوار خسر في اثنين منها، ثم رمى الورق فوق الطاولة بعد ذلك وقال:

«هذه لعبة خرائية. دعوني أرَ مَن سيتجرأ على لعب لعبة التريبو».

لعبوا، وكسب ثلاثة أدوار متتالية، فاعتدل مزاجه، وحاول السخرية من الكولونيل ويلسون للطريقة التي يلعب بها التريبو. فأخذ ويلسون الأمر بطيبة، لكنه استغل حماسة الجنرال ليكسب منه دوراً، ثم لم يعد يخسر بعد ذلك. توتر الجنرال وتصلبت شفتاه وشحبتا، واستعادت عيناه الغائرتان تحت الحاجبين المتشابكين بريقهما المتوحش الذي كانتا عليه في زمن مضى. لم يعد يتكلم، وجاءت نوبة سعال وبيلة لتشتت تركيزه. بعد الساعة الثانية عشرة، أوقف اللعب قائلاً:

«لقد كانت الريح في مواجهتي طوال الليل».

حملوا المنضدة إلى مكان محمي من الريح، لكنه واصل الخسارة. طلب إسكات المزامير التي كانت تُسمع قريباً من هناك، في حفلة مشتّتة، لكن المزامير بقيت تصدح طاغية على صخب الزيزان. بدّل مكانه، ثم وضع وسادة على الكرسي ليصبح مقعده أعلى قليلاً وأكثر راحة، ثم شرب كأساً من مغلي زهور الزيزفون هدّأ سعاله، ولعب عدة أدوار أخرى وهو يمشي من جانب إلى آخر في الرواق. لكنه بقي يخسر. ثبت ويلسون عينيه الصافيتين القاسيتين فيه، لكنه لم يتنازل لمواجهته بعينيه.

قال: «هذا الورق مُعَلَّم».

فقال ويلسون: «إنه ورقك أيها جنرال».

كانت واحدة من مجموعات ورقه الخاصة فعلاً، لكنه تفحَّصها ورقة ورقة، ثم طلب استبدالها. لم يمنحه ويلسون نفساً. انطفأ صوت الزيزان، وساد صمت طويل يتخلله نسيم رطب حمل إلى الرواق أولى روائح الوادي الملتهب، وصدح ديك ثلاث مرّات، فقال إيبارا:

«إنه ديك أحمق. فالساعة لم تتجاوز الثانية بعد». فأمر الجنرال بصوت خشن، من دون أن يرفع نظره عن الورق:

«لن يتحرّك أحد من هنا، اللعنة!».

لم يتنفس أحد. أما الجنرال كارينيو الذي كان يراقب اللعب بقلق يفوق الاهتمام، فقد تذكر أطول ليلة في حياته، تلك التي عاشها قبل سنتين، حين كانوا ينتظرون في بوكارامانغا نتائج مؤتمر أوكانيا. كانوا قد بدأوا اللعب يومها في الساعة التاسعة ليلاً، وانتهوا منه في الحادية عشرة من صباح اليوم التالي، حين اتفق زملاؤه في اللعبة على فسح المجال له ليكسب ثلاثة أدوار متتالية. ولخشية الجنرال كارينيو من وقوع تجربة تحدٍّ أخرى في ليلة غواداوس تلك، فقد أشار إلى ويلسون طالباً منه البدء بالخسارة. لكن ويلسون لم يعِره اهتماماً. وعندما طلب هذا الأخير استراحة خمس دقائق، لحقه على امتداد الشرفة ووجده يصرّف أحقاده النشادرية فوق أصص الجرانيوم. فأمره الجنرال كارينيو:

«كولونيل ويلسون، تأهّب».

ورد عليه ويلسون من دون أن يلتفت:

«انتظر إلى أن أنتهي».

انتهى بكل هدوء، والتفت وهو يزرّر بنطاله. فقال له الجنرال كارينيو:

«عليك أن تبدأ بالخسارة. حتى ولو فعلت ذلك احتراماً لصديق منكوب».

فقال ويلسون بشيء من السخرية:

«إنني أرفض إلحاق مثل هذه الإهانة بأحد».

قال كارينيو:

«هذا أمر عسكري!».

نظر إليه ويلسون، الذي كان يقف متأهباً، من عليائه بازدراء إمبراطوري. ثم رجع بعد ذلك إلى منضدة اللعب، وبدأ يخسر. فانتبه الجنرال إلى الأمر وقال:

«لا حاجة بك لأن تفعل هذا بشكل مكشوف يا عزيزي ويلسون. فمن العدل في نهاية المطاف أن نذهب إلى النوم».

صافح الجميع ضاغطاً بشدة على أيديهم، مثلما كان يفعل كلما نهض عن طاولة اللعب ليشير بذلك إلى أن اللعب لم يؤثر على المودة، ورجع إلى حجرة النوم. كان خوسيه بالاثيوس قد نام على الأرض، لكنه نهض واقفاً عندما رآه يدخل. خلع الجنرال ملابسه بسرعة، وبدأ يهز أرجوحة النوم وهو فيها، بينما كان تفكيره يثب جامحاً، وأنفاسه تصبح أكثر تهدّجاً وخشونة كلما أمعن التفكير. وعندما غطس في حوض الاستحمام كان يرتعش حتى النخاع، لكن ارتعاشه لم يكن حينئذ بفعل الحمّى أو البرد، وإنما بتأثير الغيظ. قال:

«ويلسون شخص خبيث».

أمضى واحدة من أسوأ لياليه. وقد خالف خوسيه بالاثيوس أوامره، فنبّه الضباط ليكونوا مستعدين إذا ما اقتضى الأمر استدعاء طبيب، وأبقاه ملفوفاً بالشراشف جيداً كي يتعرَّق الحمى. بلل عدداً من تلك الشراشف بالعرق، وكانت الحمى تغادره في هدنات قصيرة، ثم ما لبث أن عاجلته نوبة سرابية. صرخ عدة مرّات:

«فلتصمت هذه المزامير، اللعنة!»

لكن أحداً لم يستطع مساعدته في ذلك عندئذ، لأن المزامير كانت قد صمتت منذ منتصف الليل. ثم وجد فيما بعد المذنب الذي أنهك قواه، وذلك حين قال:

«كنت أشعر أنني على أحسن حال، إلى أن أوهموني بهندي القميص العرص».

كانت المرحلة الأخيرة من الرحلة إلى أوندا على درب ضيّق يطل على منحدر يبعث القشعريرة في النفس، وسط هواء من بلّور ذائب لا يمكن أن تتحمله، بعد ليلة من الاحتضار، إلّا متانة جسدية مثل متانته، وإرادة مثل إرادته. تخلف عن موقعه المعتاد في الرَّكب منذ الفراسخ الأولى، ليسير إلى جوار الكولونيل ويلسون. وقد عرف هذا الأخير أن يفسِّر اللفتة على أنها دعوة لنسيان حزازات طاولة اللعب، فقدم له ذراعه مثلما يفعل مربّو الصقور كي يستند إلى يده. نزلا الطريق معاً وهما على تلك الحال. كان الكولونيل ويلسون متأثراً لعجزه، وكان الجنرال يتنفس بمشقة مستعيناً بقواه الأخيرة، لكنه متمكن فوق صهوة دابّته. عندما انتهى أشد أجزاء الطريق وعورة، سأل بصوت من قرن ماضٍ:

«كيف هي لندن الآن؟».

نظر الكولونيل ويلسون إلى الشمس التي كانت في منتصف السماء تقريباً، وقال:

«سيئة أيها الجنرال».

لم يُفاجَأ، بل عاد يسأل بالصوت نفسه:

«ولِمَ هي كذلك؟».

فقال ويلسون:

«لأن الساعة هناك الآن السادسة مساء، وهي أسوأ ساعات لندن. ولا بدّ أن مطراً قذراً وميتاً، مثل ماء الضفادع، يهطل هناك الآن. فالربيع هو أكثر فصولنا شؤماً».

فقال هو: «لا تقل لي إنك قد هزمت الحنين».

قال ويلسون:

«بالعكس. الحنين هو الذي هزمني. ما عدت أبدي له أدنى مقاومة».

«أتريد العودة إذن أم لا؟».

قال ويلسون:

«ما عدت أعرف شيئاً يا سيدي الجنرال. إنني تحت رحمة قَدَر لا يخصني».

نظر الجنرال إلى عينيه مباشرة، وقال ذاهلاً:

«أنا الذي عليه أن يقول هذا الكلام».

عندما عاد إلى الحديث، كان صوته ونشاطه قد تبدلا.

قال: «لا تقلق. سنذهب إلى أوروبا مهما حدث، ولو لمجرد عدم حرمان أبيك من متعة رؤيتك». ثم اختتم قائلاً، بعد تفكير طويل: «واسمح لي أن أقول لك أمراً أخيراً يا عزيزي ويلسون: يمكن لهم أن يقولوا عنك أي شيء، باستثناء القول إنك شخص خبيث».

انقاد له الكولونيل ويلسون ثانية، وهو المعتاد على اعترافاته الشجاعة، خصوصاً بعد زوبعة لعبة ورق أو بعد انتصار حربي. واصل التقدّم ببطء، فيما اليد المحمومة للمريض الأعظم مجداً في أميركا كلها تتشبث بساعده مثل صقر صيد. كان الهواء قد بدأ يغلي أثناء ذلك، وصار عليهم أن ينشّوا طيوراً جنائزية كانت تحوم فوق رؤوسهم، مثلما ينشّون الذباب.

في أصعب مكان من الطريق المنحدر التقوا بمجموعة من الهنود تحمل زمرة من الرحّالة الأوروبيين في محفات معلقة على ظهورهم. وفجأة، قبل انتهائهم من النزول بقليل، مرّ فارس مجنون يعدو بأقصى سرعة في الاتجاه الذي كانوا يسيرون فيه. كان يضع على رأسه قلنسوة حمراء تكاد تغطي وجهه، فأثارت سرعته بلبلة أوشكت معها بغلة الكابتن إيبارا أن تهوي إلى الوادي مجفلة. وقد استطاع الجنرال أن يصرخ به:

«انظر أين تمضي، عليك اللعنة!».

لاحقه بنظره إلى أن توارى عند أوّل منعطف، لكنه واصل ملاحقته بعينيه كلما عاد إلى الظهور في انحناءات الطريق السفلي. وفي الساعة

الثانية ظهراً، داروا حول التلة الأخيرة، وانفتح الأفق أمامهم عن سهل لامع، تربض ساكنة في نهايته مدينة أوندا الشهيرة، بجسرها المبنيّ من حجارة قشتالية فوق النهر العظيم الموحل، وبأسوارها المهدَّمة وبرج كنيستها الذي خربه الزلزال. تأمل الجنرال الوادي الملتهب، لكنه لم يسمح لنفسه بإبداء أي انفعال، باستثناء ما قاله عن الفارس ذي القلنسوة الحمراء الذي كان يجتاز الجسر في تلك اللحظة بعدوٍ متواصل. فقد عاد ضوء الحلم يتقد في ذاكرته حينئذ، وقال:

«يا إله الفقراء. لا يمكن تفسير هذه السرعة إلّا بأنه يحمل رسالة إلى كاساندرو فيها خبر رحيلنا».

على الرغم من التحذير من قيام مظاهرات عامة لدى وصوله، إلا أن كوكبة زاهية من الفرسان خرجت لاستقباله في الميناء، وجهّز المحافظ وبسادا غوتيريث فرقة موسيقية وألعاب بارود تستمر ثلاثة أيام. لكن الأمطار خرّبت الحفل قبل وصول الموكب إلى الشارع التجاري. كان وابلاً مبكراً وعنيفاً عنفاً مدمراً، نزع أحجار الشوارع وغمر الأحياء الفقيرة بالماء، لكن الحرّ بقي ثابتاً لا يلين. وفي فوضى المصافحات، عاد أحدهم إلى تكرار الحماقة الأبدية القائلة: «الحرّ شديد هنا لدرجة أن الدجاجات تضع البيض مقلياً». توالت تلك الكارثة المألوفة خلال الأيام الثلاث التالية، من دون أن يدخل عليها أي تغيير: ففي سبات القيلولة، تنزل غيمة سوداء قاتمة من فوق الجبال لتستقر فوق المدينة، ثم تنسكب في فيضان فجائي، لتعود الشمس بعد ذلك إلى التألق في السماء الصافية، وبالقسوة التي كانت عليها قبل هطول المطر، فيما تنتشر الفرق المدنية لتنظيف الشوارع من الأنقاض التي خلفها السيل، وتبدأ سُحُب اليوم التالي بالتجمّع عند قمم الجبال. في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار، في الداخل أو في الخارج، كان لهاث الحرّ مسموعاً.

تحمّل الجنرال المنهوك من الحمّى استقبال الترحيب الرسمي بمشقة. كان الهواء يغلي فاتراً في صالة المجلس الإداري، لكنه تخلص من

المأزق بعِظة أسقف مسلوق، ألقاها ببطء وجرجرة، من دون أن ينهض عن الأريكة. خرجت بعد ذلك طفلة في العاشرة من عمرها، تضع أجنحة ملاك وترتدي فستاناً مزيَّناً بكشاكش من الأورغنزة، فألقت من الذاكرة، وهي تختنق بتسرّعها، نشيداً لأمجاد الجنرال. لكنها أخطأت، وعادت لتبدأ من حيث لم تصل بعد، فأضاعت التسلسل ولم تعد قادرة على تدبّر الأمر. ومن دون أن تعرف ما الذي ستفعله، حدقت إليه بعينيها المذعورتَين. ابتسم لها الجنرال ابتسامة تواطؤ وذكّرها بالأبيات بصوت خافت:

بريق سيفه

هو انعكاس حيّ لمجده

لم يكن الجنرال، خلال سنواته الأولى في السلطة، يضيّع أيّ مناسبة لاقامة مآدب حاشدة وسَخية، وكان يحدّث مدعوّيه عن الأكل والشراب حتى النشوة. وقد بقي لديه من ذلك الماضي الفاخر طعم أدوات مائدة خاص به ومحفور عليه شعاره، كان خوسيه بالاثيوس يحمله له إلى الولائم. وفي حفلة الاستقبال في أوندا، رضي بالجلوس في مقعد الشرف على رأس المائدة، لكنه لم يتناول سوى كأس من نبيذ الأوبورتو، وتذوَّق حساء السلحفاة النهرية الذي ترك مذاقاً بائساً في فمه.

انسحب باكراً إلى الهيكل الذي أعدَّه له الكولونيل بوسادا غوتيريث في بيته، لكن معرفته بأنهم ينتظرون وصول بريد سانتافي في اليوم التالي طيّر النزر اليسير من النعاس المتبقي لديه. وبوقوعه فريسة القلق، عاد للتفكير في نكبته، بعد ثلاثة أيام من الراحة، وعاد إلى تعذيب خوسيه بالاثيوس بأسئلته اللجوجة. كان يريد أن يعرف ما الذي حدث منذ مغادرته، وكيف هي المدينة في ظل حكومة غير حكومته، وكيف ستكون الحياة من دونه. لقد قال يوماً في مناسبة حزينة إن «أميركا هي نصف كرة أرضية أصابه الجنون». وكان لديه في تلك الليلة الأولى في أوندا مزيد من الأسباب للإيمان بصحة ذلك القول.

أمضى الليلة في التقلب، مصلوباً تحت لسع البعوض، لأنه كان يرفض النوم تحت كلّة. فكان يتقلب حيناً وهو يتكلم وحيداً في الغرفة، ويهز أرجوحة النوم هزاً شديداً في حين آخر، أو يلف نفسه بالبطانية متكوّراً على نفسه ويستسلم لسخونة الحمّى وهو يهذي بما يشبه الصراخ وسط مستنقع من العرق. سهر خوسيه بالاثيوس بجواره، وكان يرد على أسئلته، ويخبره في كل لحظة عن الساعة ودَقاتها التي يحسبها من دون حاجة للنظر إلى الساعتين المعلقتين بسلسلتين في عرى صدريته. هزّ له أرجوحة النوم حين أحس أن قواه لم تعد قادرة على هزها، وهشَّ عنه البعوض بخرقة إلى أن تمكن من تنويمه لأكثر من ساعة. لكنه استيقظ واثباً قبيل الفجر، حين سمع جلبة دواب وأصوات رجال في الفناء، وخرج بملابس النوم ليستقبل البريد.

جاء مع القافلة الكابتن الشاب أغوسطين دي إيتوربيدي، مرافقه المكسيكي، الذي تأخر في سانتافي بسبب عائق اضطراري في اللحظة الأخيرة. كان يحمل رسالة من الماريشال سوكره، هي حسرة مودّة صادرة من الأعماق، يأسف فيها لعدم تمكنه من الوصول في الوقت المناسب لوداعه. ووصلت مع البريد كذلك رسالة كتبها الرئيس كايثيدو قبل يومين. بعد ذلك بقليل دخل المحافظ بوسادا غوتيريث إلى حجرة النوم حاملاً قصاصات من صحف يوم الأحد، فطلب منه الجنرال أن يقرأ له الرسائل، لأن الضوء كان لا يزال ضعيفاً بالنسبة لعينيه.

كان الخبر الجديد المهم هو توقف هطول المطر في سانتافي يوم الأحد، وخروج أسر كثيرة مع أطفالها إلى المرابع، حاملين سلالاً فيها خنانيص مشوية في الفرن، ومورثيللا الأرز، وبطاطا مثلجة مع جبن مذاب، وقد تناول الجميع الغداء على العشب، تحت شمس ساطعة لم ترَ المدينة مثلها منذ أزمنة الضجيج. وقد بددت معجزة شهر أيّار تلك عصبيّة يوم السبت السابق. كان تلاميذ معهد سان بارتولومي قد عادوا للخروج

إلى الشارع كي يمثّلوا مشهد الإعدام الرمزي الممجوج، لكنهم لم يجدوا استجابة لدى الناس، فتفرقوا ضجرين قبل الغروب. وفي يوم الأحد، استبدلوا بالبنادق أصواتهم الرنانة وظهروا وهم يُغنّون أغنيات البامبوكو[1] وسط الناس الذين كانوا يتدفأون بأشعّة الشمس في الحقول، إلى أن عاد المطر إلى الهطول من دون سابق إنذار في الساعة الخامسة مساء، فانتهت الحفلة.

قطع بوسادا غوتيريث قراءة الرسالة، وقال للجنرال:

«لم يعد أي شيء في هذا العالم قادراً على تلطيخ أمجادكم. فليقولوا ما يشاؤون، لكن فخامتك ستبقى أعظم الكولومبيين، حتى في ما وراء حدود الكوكب».

فقال الجنرال:

«لست أشك في ذلك، فقد كان خروجي كافياً لكي تشرق الشمس من جديد».

الشيء الوحيد الذي أثار سخطه في الرسالة هو أن المكلف برئاسة الجمهورية نفسه أطلق بتهور اسم الليبراليين على أنصار سانتَندير، وكأن تلك التسمية هي اصطلاح رسمي. قال:

«لست أدري كيف ادّعى الديماغوجيون لأنفسهم الحق باسم ليبراليين. لقد سرقوا الكلمة، لا أقل ولا أكثر، مثلما يسرقون كل ما يقع في أيديهم».

قفز من أرجوحة النوم، وراح يفضفض عن نفسه مع المحافظ وهو يذرع الحجرة من طرف إلى آخر بخطواته العسكرية الواسعة.

«الحقيقة أنه لا وجود هنا لأحزاب سوى أولئك الذين هم معي أو الذين هم ضدي، وأنت تعرف هذا خيراً من الجميع».

---

(1) بامبوكو (Bambuco) : نوع من الغناء والرقص الشعبي الكولومبي.

ثم اختتم قائلاً:

«وحتى لو لم يصدقوا، فإنه لا وجود لمن هو ليبرالي أكثر مني».

وقد حمل مبعوث شخصي للمحافظ رسالة شفوية في ما بعد، بأن مانويلا ساينث لم تكتب إليه لان لدى البريد تعليمات حاسمة بعدم استلام رسائلها. وقد بعثت الرسول مانويلا نفسها التي كتبت في اليوم ذاته رسالة احتجاج على الحظر، ووجهتها إلى الرئيس المكلف، فكانت تلك الرسالة سبباً في سلسلة من الاستفزازات المتبادلة التي ستنتهي بها إلى النفي والنسيان. مع ذلك، وعلى عكس ما كان ينتظره بوسادا غوتيريث، الذي كان يعرف عن قرب عثرات ذلك الحب المعذَّب، فقد ابتسم الجنرال للخبر السيىء، وقال:

«هذه المشاحنات هي الحالة الطبيعية لمجنونتي اللطيفة».

لم يُخفِ خوسيه بالاثيوس استياءه من الاستخفاف الذي أُعدَّ به برنامج الأيام الثلاثة التي سيقضونها في أوندا. وأكثر ما أثار استغرابه هو الدعوة لزيارة مناجم الفضة في سانتا آنا، على مسافة ستة فراسخ من المدينة، لكنه استغرب أكثر موافقة الجنرال على تلك الزيارة، وزاد في استغرابه نزول الجنرال إلى أحد الأنفاق تحت الأرضية. لكن أسوأ المفاجآت حدثت وهم في طريق العودة، حين ألقى الجنرال بنفسه إلى الماء للسباحة في نهر راكد، بالرغم من ارتفاع درجة حرارته، ومن الصداع الذي يوشك أن يُفجّر رأسه. لقد انقضت منذ زمن بعيد تلك الأيام التي كان يراهن فيها على اجتياز نهرٍ جارف وإحدى يديه مقيَّدة، وكان يفوز وهو في تلك الحال على أمهر السبّاحين. لكنه سبح على أي حال مدة نصف ساعة من دون أن يتعب، ومَن رأوا يومها أضلاعه البارزة مثل أضلاع كلب، وساقَيْه النحيلتين، لم يفهموا كيف يمكنه الاستمرار على قيد الحياة بذلك الجسد الضئيل.

في الليلة الأخيرة، أقامت البلدية حفلة رقص على شرفه، فاعتذر عن حضورها بسبب الإرهاق الذي ألحقته به النزهة. حبس نفسه في غرفة النوم

منذ الساعة الخامسة مساء، وأملى على فرناندو رده على رسالة الجنرال دومينغو كايثيدو، ثم طلب منه أن يقرأ له عدة صفحات أخرى من كتاب حوادث الفجور في ليما، وقد كان هو نفسه بطل إحدى الحوادث الواردة في الكتاب. ثم استحم بعد ذلك بالماء الفاتر، وبقي ساكناً في أرجوحة النوم، يصغي إلى دفقات موسيقى الحفلة الراقصة المُقامة على شرفه. كان خوسيه بالاثيوس يظنه نائماً عندما سمعه يقول:

«أتذكر هذا الفالس؟».

صفّر بضعة أنغام ليحيي الموسيقى في ذاكرة كبير خدمه، لكن هذا الأخير لم يستطع التعرّف عليها. فقال الجنرال:

«إنه الفالس الذي عُزف أكثر من سواه ليلة وصولنا إلى ليما قادمين من تشوكيساكا».

لم يكن خوسيه بالاثيوس يذكر الفالس، لكنه لا يستطيع مطلقاً نسيان ليلة الثامن من شباط 1826 المجيدة. لقد استقبلتهم ليما في صباح ذلك اليوم استقبالاً امبراطورياً، كان الجنرال يردّ عليه بجملة واحدة يكررها من دون نقصان مع كل نخب: «في امتدادات البيرو الشاسعة، لم يعد يوجد ولا إسباني واحد». لقد اختتم في ذلك اليوم استقلال القارة الفسيحة التي كان ينوي تحويلها - حسب كلماته بالذات - إلى رابطة الأمم الأكثر اتساعاً، أو الأكثر تجاوزاً للمألوف. بقيت انفعالات تلك الحفلة مرتبطة في ذاكرته بالفالس الذي طالب بإعادة عزفه مرّات ومرّات، إلى أن لم تعد هناك سيدة واحدة من سيدات ليما إلا ورقصت معه ذلك الفالس. وحذا حذوه ضباطه الذين كانوا يرتدون أكثر البدلات التي شوهدت في المدينة إبهاراً، وواصلوا الرقص إلى الحدّ الذي تتحمله قواهم، وكانوا جميعهم راقصي فالس بارعين، تدوم ذكراهم في قلب من تراقصهم زمناً أطول بكثير مما تدومه أمجاد الحرب.

افتتحوا الحفلة في الليلة الأخيرة من ليالي أوندا بفالس النصر، وانتظر وهو في أرجوحة النوم أن يعيدوا عزفه. وعندما رأى أنهم لن يكرروه، نهض مندفعاً، وارتدى ملابس الركوب التي استخدمها في الرحلة إلى المناجم، ودخل حفلة الرقص من دون إعلان عن قدومه. رقص نحو ثلاث ساعات، مطالباً بإعادة عزف المقطوعة كلما استبدل زميلته في الرقص، ربما في محاولة لاعادة بناء الزمان الغابر برماد الحنين. لقد انقضت السنون الخيالية، حين كان الجميع يسقطون منهَكين، ليبقى وحده يرقص حتى الفجر، مع مراقصته الأخيرة، في الصالون المقفر. كان الرقص بالنسبة إليه هوىً طاغياً، فكان يرقص من دون رفيقة حين لا يكون ثمة رفيقة تراقصه، وكان يرقص منفرداً على أنغام موسيقى يعزفها هو نفسه مصفراً، وكان يعبّر عن عظيم ابتهاجه بالصعود للرقص فوق طاولة صالة الطعام. لقد تضاءلت قواه كثيراً في تلك الليلة الأخيرة في أوندا، فكان عليه أن يسترد أنفاسه أثناء الاستراحة باستنشاق أبخرة المنديل المضمَّخ بماء الكولونيا، لكنه رقص بحماسة كبيرة وبراعة شبابية، أطاحا من دون قصد منه بالشائعات التي كانت تقول إنه مريض مرض الموت.

عندما رجع إلى البيت، بعد منتصف الليل بقليل، أخبروه أن هناك امرأة تنتظره في صالة الزيارات. كانت امرأة أنيقة ومتكبّرة، يفوح منها شذا ربيعيّ، وترتدي ثوباً من المخمل تصل أكمامه حتى معصمَيْها، وحذاء لركوب الخيل مصنوعاً من جلد ماعز رقيق، وتضع على رأسها قبعة مثل قبعات سيدات القرون الوسطى، وتسدل على وجهها خماراً من الحرير. حيّاها الجنرال بانحناءة رسمية من رأسه، متوجساً من أسلوب الزيارة وتوقيتها. ومن دون أن تتفوّه المرأة بكلمة واحدة، رفعت إلى مستوى عينيها أيقونة كانت تعلقها بسلسلة طويلة في عنقها، فتعرّف عليها مذهولاً، وقال:»ميراندا ليندساي!».

فقالت: «إنني أنا، وإن لم أعد المرأة نفسها».

لا بدّ أن صوتها الرصين الدافئ، الذي يشبه صوت البيولونتشيلو[1]، والذي يحمل أثراً ضئيلاً من لكنة انكليزيتها الأم، قد أحيا في نفسه ذكرى فريدة. أشار بيده إلى حارس الخدمة الواقف عند الباب لحمايته، طالباً منه الانصراف، وجلس مقابلها، وقريباً منها بحيث أوشكت ركبتاه أن تلامسا ركبتيها، وأمسك بيدها.

لقد تعارفا قبل خمسة عشر عاماً في كينغستون، حيث كان يعيش نفيه الثاني، في أثناء غداء عَرَضي في بيت التاجر الإنكليزي ماكسويل هيسلوب. كانت الابنة الوحيدة للسير ليندساي، الدبلوماسي الإنكليزي المتقاعد الذي يعيش في معمل للسكر في جامايكا لكتابة مذكرات في ستة مجلدات لن يقرأها أحد. وعلى الرغم من جمال ميراندا الباهر، ومن لين قلب الشاب المنفي، إلا أن هذا الأخير كان غارقاً حينئذ في أحلامه، متعلقاً بأخرى تعلقاً لا يستطيع معه الانتباه إلى أحد.

وستتذكره هي على أنه رجل يبدو أكبر سناً بكثير من سنوات عمره الاثنتين والثلاثين، نحيل وشاحب، شعر سالفيه وشاربَيْه خشن مثل شعر خلاسي، وشعر رأسه طويل يصل حتى كتفيه. كان يرتدي ملابس على الطريقة الإنكليزية، مثل غيره من شبان الأرستقراطية الكريولية، مع ربطة عنق بيضاء وسترة طويلة شديدة السماكة بالنسبة لمناخ المنطقة، ويضع زهرة غاردينيا الرومنطقيين في عروة سترته. لقد كان يرتدي مثل تلك الملابس، في ليلة مجون من عام 1810، فحسبته عاهرة وجيهة في ماخور لندني لوطياً يونانياً.

أكثر ما كان يلفت النظر فيه - من دون أن تدري أكان ذلك خيراً أم شراً - هما عيناه الغائمتان وحديثه المرهِق الذي لا ينتهي، بصوت ساخط أشبه بصوت طير جارح. وأغرب ما فيه كان عادته في إبقاء نظره مصوباً

---

(1) البيولونتشيلو (Violonchelo) : آلة موسيقية كولومبية تشبه الكمان.

إلى أسفل، وشد اهتمام جلسائه من دون أن ينظر إليهم وجهاً لوجه. كان يتكلم بإيقاع وأسلوب أهل جزر الكناري، وبالأساليب المثقفة من اللهجة المدريدية، التي كانت تتناوب في تلك الليلة مع لغة إنكليزية بدائية، لكنها مفهومة، احتراماً لضيفين من الضيوف لا يتكلمان القشتالية.

لم يهتم خلال الغداء، إلّا بأشباحه الخاصة. تكلم من دون توقف، بأسلوب ضليع وخطابي، مطلِقاً أحكاماً تنبؤية لم يكتمل نضجها بعد، سيرد جزء كبير منها في بيان ملحمي نُشر بعد أيام من ذلك في إحدى صحف كينغستون، وسيخلده التاريخ تحت عنوان رسالة جامايكا. قال يومها: «ليس الإسبان، وإنما تفرُّقنا هو الذي أعادنا إلى العبودية من جديد». وأثناء حديثه عن عظمة أميركا ومواردها ومواهبها، كرّر عدة مرّات: «إننا بشرية مصغَّرة». وعندما رجعت ميراندا إلى بيتها، سألها أبوها عن رأيها بالمتآمر الذي طالما أرّق عملاء الإسبان في الجزيرة، فأوجزته بعبارة واحدة: "He feels he's Bonaparte".

بعد أيام من ذلك، تلقى رسالة غريبة، فيها تعليمات مفصَّلة كي يذهب للقائها يوم السبت التالي في التاسعة ليلاً، وحيداً وسائراً على قدميه، في مكان غير مأهول. لم يكن ذلك التحدّي يعرِّض حياته وحدها للخطر، وإنما مصير أميركا بأسرها كذلك، لأنه كان حينئذ الاحتياط الوحيد من تمرّدٍ مُباد. فبعد خمس سنوات من الاستقلال المرتبك، تمكنت إسبانيا من استعادة أراضي ولاية غرناطة الجديدة والقيادة العامة لفنزويلا التي لم تصمد أمام الهجوم الوحشي الذي شنه الجنرال بابلو موريو، المسمّى ناشر الاستتباب. وقد جرت تصفية القيادة العليا للوطنيين في معادلة بسيطة تقضي بشنق كل من يعرف القراءة والكتابة.

وبين جيل الوطنيين المتنوّرين الذين زرعوا بذرة الاستقلال من المكسيك وحتى نهر ريو دي لابلاتا، كان هو أكثرهم يقيناً، وأشدهم تصميماً، وأبعدهم نظراً، وخير من يجمع بين العبقرية السياسية والبديهة

العسكرية. كان يعيش في بيت مستأجَرٍ مؤلف من غرفتين، مع معاونيه ومع خوسيه بالاثيوس. لم يكن هروبه مشياً على الأقدام إلى موعد غير مؤكد، في الليل ومن دون حراسة، بالمجازفة التي لا طائل وراءها وحسب، بل كان حماقة تاريخية كذلك. لكنه بالرغم من تقديره الشديد لحياته ولقضيته، كان يرى كل شيء أقل جاذبية من لغز امرأة جميلة.

انتظرته ميراندا على صهوة جواد في المكان المحدَّد، وكانت وحدها أيضاً. أردفته على جوادها، وقادته عبر طريق غير مرئيّ. كان فجر ذلك اليوم قد بزغ على هطول أمطار ترافقها بروق ورعود بعيدة في البحر. وكانت زمرة كلاب سود تتشابك بقوائم الجواد وهي تلهث في الظلام، لكنها كانت تكبح تلك الكلاب بهديل رقيق تترنم به بالإنكليزية. مرّا قريباً من معمل السكر، حيث كان السير لندن ليندساي يكتب الذكريات التي لن يتذكرها أحد سواه، ثم اجتازا جسراً حجرياً وولجا في الجانب الآخر من غابة صنوبر، في آخرها صومعة منفردة. ترجلا هناك، وقادته من يده عبر المصلّى المُظلم حتى حجرة المقدسات الخربة التي ينيرها بشحوب مشعل مغروس في الجدار، ولا أثاث فيها سوى جذعين منحوتين بضربات فأس. حينئذ فقط رأى كل منهما وجه الآخر. كان يرتدي قميصاً قصير الأكمام ويعقد شعره فوق عنقه بشريطة على شكل ذيل فرس، فوجدته ميراندا أكثر فتوّة وجاذبية مما كان عليه في الغداء.

لم يُقدِم على أية مبادرة، لأن منهجه في الإغواء لم يكن يعتمد على قاعدة محددة، بل كان يرى أن كل حالة هي مسألة فريدة تختلف عن غيرها، وخصوصاً في الخطوة الأولى. وقد قال يوماً: «لا سبيل إلى إصلاح أي خطأ يقع في ديباجات الحب». ولا بدّ أنه ذهب يومئذ إلى الموعد وهو مقتنع بأن جميع العقبات مذلَّلة سلفاً، لأنها هي التي اتخذت القرار بدعوته.

كان مخطئاً. فقد كانت ميراندا، فضلاً عن جمالها، تتمتع بوقار من الصعب تفاديه، وهكذا انقضى وقت لا بأس به قبل أن يدرك أنه عليه أن

يكون المبادر في هذه المرّة أيضاً. كانت قد دعته إلى الجلوس، وجلسا مثلما سيجلسان في أوندا بعد خمسة عشر عاماً، أحدهما مقابل الآخر على الجذعين المنحوتَيْن. وهما قريبان بحيث توشك ركبتا أحدهما أن تلمسا ركبتي الآخر. أمسك بيدها، ثم جذبها نحوه محاولاً أن يُقبّلها. تركته يدنو إلى أن أحسّت بدفء أنفاسه، ثم أبعدت وجهها وقالت:

«كل شيء في وقته».

وقد وضعت العبارة حداً للمحاولات المتتالية التي حاولها بعد ذلك. وعند انتصاف الليل، حين بدأ المطر يتسرّب من ثقوب السقف، كانا لا يزالان يجلسان متقابلين يمسك كل منهما بيدي الآخر، فيما كان ينشد إحدى قصائده التي كان ينظمها في ذاكرته في تلك الأيام. كانت قصيدة ثمانيات جيدة الوزن والقافية، يمزج فيها ما بين المغازلات الغرامية والمفاخرات الحربية. تأثرت ميراندا، وذكرت ثلاثة أسماء في محاولة لمعرفة اسم المؤلف. فقال لها:

«إنها لعسكري».

فسألته: «عسكري حروب أم عسكري صالونات؟».

قال: «الأمران كلاهما. إنه الأكثر عظمة وتوحّداً على الإطلاق».

تذكرت ما كانت قد قالته لأبيها بعد غداء السيّد هيسلوب: «لا يمكن له أن يكون إلا بونابرت».

وأكمل الجنرال:

«تقريباً. لكن الفارق الأخلاقي شاسع جداً، لأن مؤلف القصيدة لم يسمح بأن يتوّجوه».

مع مرور السنوات، وكلما كانت تصلها أخبار عنه، كانت تتساءل، وفي كل مرّة بذهول أشد، إذا ما كان مدركاً يومها أن تلك المداعبة الخبيثة التي جادت بها قريحته هي تصوّر مسبق لحياته نفسها. لكن الشكوك لم تراودها

في تلك الليلة، حيث كانت مرتبطة بالتزام شبه مستحيل يقضي بأن تبقيه معها من دون أن تجعله يستاء منها، ومن دون أن تستسلم لهجماته التي كانت تصبح أكثر إلحاحاً كلما دنا الفجر. وصل بها الأمر إلى السماح له ببعض القبلات العارضة، ولكن من دون تجاوز ذلك.

وكانت تكرر له: «كل شيء في وقته».

قال:

«في الساعة الثالثة مساء سأغادر إلى الأبد في مركب البريد إلى هايتي».

فأحبطت مُكره بضحكة فاتنة، وقالت:

«أولاً، مركب البريد لن يخرج حتى يوم الجمعة. ثم إن قالب الحلوى الذي أوصيت بصنعه أمس عند السيدة تورنير، عليك أن تحمله الليلة لعشائك مع المرأة التي تكنّ لي أشدّ كراهية في هذا العالم».

المرأة التي تكنّ لها أشد كراهية في هذا العالم هي خوليا كوبيير، الدومينيكانية الفاتنة والثرية، التي كانت منفية كذلك في جامايكا، وقد نام في بيتها، كما أشيع، أكثر من مرّة، وكان ينوي الذهاب إليها في تلك الليلة ليحتفلا وحدهما بعيد ميلادها.

«أنت مطلعة أكثر من جواسيسي» - قال.

فقالت له: «ولماذا لا تفكر بأنني قد أكون واحدة من جواسيسك؟».

لم يفهم مغزى قولها حتى الساعة السادسة صباحاً، حين رجع إلى بيته ووجد صديقه فيلكس أميستوي، ميتاً ونازفاً في أرجوحة النوم التي كان سينام فيها هو نفسه لولا ذهابه إلى الموعد الغرامي الزائف. كان النعاس قد تغلب على صديقه وهو ينتظر عودته ليعطيه رسالة مستعجلة، وقد قتله واحد من العبدَيْن المحرَّرَين، مدفوعاً من الإسبان، بطعنه إحدى عشرة طعنة معتقداً أنه هو. كانت ميراندا قد علمت بخطة الاغتيال. ولم تخطر لها فكرة أخرى أكثر فطنة لمنع حدوث ذلك. حاول أن يشكرها شخصياً،

لكنها لم تردّ على رسائله. وقبل أن يغادر إلى بور أوبرنس، في سفينة قراصنة، أرسل إليها مع خوسيه بالاثيوس القلادة الثمينة التي ورثها عن أمه، وأرفقها بورقة تحمل سطراً واحداً من دون توقيع:

«إنني محكوم بقَدَرٍ مسرحيّ».

لم تنس ميراندا، كما أنها لم تفهم أبداً معنى تلك العبارة المحكَمة الغموض التي أرسلها إليها الشاب المحارب، الذي عاد إلى وطنه في السنوات التالية بمساعدة من رئيس جمهورية هايتي الحرّة، الجنرال ألكسندر بيتيون، واجتاز جبال الأنديز مع محاربيه الحفاة من أبناء السهول، وهزم القوّات الملكية عند جسر بوياكا، وحرَّر للمرة الثانية وإلى الأبد غرناطة الجديدة، ثم فنزويلا، مسقط رأسه، ثم حرر أخيراً الأراضي الوعرة جنوباً حتى حدود البرازيل. لاحقت آثاره، وخصوصاً من خلال قصص الرحّالة الذين ما كانوا يملّون من رواية مآثره، وبعد استقلال المستعمرات الإسبانية القديمة، تزوجت ميراندا من مسّاح إنكليزي، ما لبث أن استبدل مهنته، واستقر في غرناطة الجديدة ليزرع في وادي أوندا عقد قصب السكر المجلوبة من جامايكا. وقد كانت هناك في اليوم السابق، حين سمعت أن صديقها القديم، الذي كان منفياً في كينغستون، يمرّ على بعد ثلاثة فراسخ من بيتها فقط، لكنها وصلت إلى المناجم حين كان الجنرال قد قفل راجعاً إلى أوندا، وكان عليها أن تنطلق على جوادها نصف مرحلة أخرى للحاق به.

ما كانت لتتعرف عليه لو أنها التقته في الشارع وهو بدون سوالفه الشبابية وشاربَيْه، وبشعره الأبيض الخفيف، وبذلك المظهر النهائي المشعث الذي بعث فيها انطباعاً مرعباً وإحساساً بأنها تكلم ميتاً. كانت ميراندا قد قررت أن ترفع حجابها لتتكلم معه، بعد أن تتجاوز خطر التعرّف عليها في الشارع، لكن ما منعها من رفعه هو رعبها من أن يكتشف هو أيضاً آثار الزمن في وجهها. ما كادت تنتهي من الشكليات الأولية، حتى طرحت قضيتها مباشرة:

«جئت راجية أن تسدي إليّ جميلاً».

فقال: «كلّي لك».

«والد أبنائي الخمسة يقضي عقوبة سجن طويلة لأنه قتل رجلاً».

«هل قتله بشرف؟».

«في مبارزة صريحة» قالت، ثم أوضحت في الحال: «بدافع الغيرة».

«غيرة لا أساس لها بالطبع» - قال.

فردت: «بل لها أساس».

لكن كل شيء الآن صار من الماضي، بما في ذلك هو نفسه، والشيء الوحيد الذي تطلبه منه، على سبيل الإحسان، هو أن يستخدم نفوذه ليضع حداً لسجن زوجها. ولم يستطع إلّا أن يقول لها الحقيقة:

«إنني مريض وبائس كما ترين، ولكن لا وجود لشيء في هذه الدنيا إلّا وأستطيع عمله من أجلك».

استدعى الكابتن إيبارا ليسجل ملاحظات حول القضية، ووعد ببذل كل ما في متناول يده من سلطة منتقصة للحصول على العفو. وفي تلك الليلة بالذات تبادل الرأي حول الموضوع مع الجنرال بوسادا غوتيريث، بتحفظ مطلق، ومن دون أن يترك أثراً مكتوباً، لكن الأمر برمته بقي معلقاً إلى ما بعد التعرّف على نوعية الحكومة الجديدة. رافق ميراندا حتى بوابة البيت، حيث كانت تنتظرها مجموعة حراسة مؤلفة من ستة عبيد محرَّرين، وودعها بقبلة على يدها.

قالت: «لقد كانت ليلة سعيدة».

ولم يستطع مقاومة الإغراء، فقال: «هذه أم تلك؟».

فقالت: «كلتاهما».

امتطت جواداً مستريحاً، حسن الهيئة مسرَجاً بزينة مثل زينة حصان نائب

للملك، وانطلقت بأقصى سرعة من دون أن تلتفت إليه. انتظر عند الباب إلى أن لم يعد يراها في أقصى الشارع، لكنه كان لا يزال يراها في أحلامه حين أيقظه خوسيه بالاثيوس عند الفجر للشروع بالرحلة عبر النهر.

قبل ست سنوات، منح امتيازاً خاصاً للربان الألماني جان ب. إلبيرس، كي يباشر الملاحة البخارية في النهر. وكان هو نفسه قد سافر في إحدى سفنه من بارانكانويفا حتى بورتو ريال، عبر أوكانيا. وقد أقر بأنها وسيلة سفر مريحة ومأمونة. ومع ذلك، فقد رأي الربان إلبيرس أن الصفقة ليست جديرة بالمعاناة ما لم تكن مضمونة بامتياز خاص مقصور عليه، فمنحه إياه الجنرال سانتَنْدير من دون شروط حين كان مكلَفاً بالرئاسة. بعد سنتين من ذلك، وعندما تقلّد الجنرال سلطات مطلقة بموافقة الكونغرس الوطني، ألغى اتفاقية الامتياز بعبارة من عباراته التنبؤية: «إذا ما تركنا الاحتكار مقصوراً على الألمان فسينتهي بهم الأمر إلى منحه للولايات المتحدة». ثم أعلن في ما بعد حرية الملاحة النهرية في جميع أرجاء البلاد. وعندما أراد الحصول على سفينة بخارية لاستخدامها في السفر حين يحسم أمر الرحيل، واجه مماطلة ومواربة تشبه الانتقام إلى حد بعيد، واضطر عند رحيله إلى قبول سفن صغيرة من نوع تشامبان[1].

كان الميناء يغص منذ الخامسة صباحاً بأناس راكبين وراجلين، جُمعوا على عجل بأمر المحافظ من الدروب القريبة لتكلف وداع مثل تلك التي كان يحظى بها في أزمنة أخرى. كان يتهادى في مرفأ الزوارق عدد من المراكب الصغيرة المحمَّلة بنساء مرحات يصرخن لاستفزاز جنود الحراسة، فيرد عليهن هؤلاء بمغازلات بذيئة. وصل الجنرال بصحبة الموكب الرسمي في الساعة السادسة. كان قد خرج ماشياً من بيت المحافظ، وسار ببطء شديد وهو يغطي فمه بمنديل مضمَّخ بماء الكولونيا.

(1) تشامبان: نوع من السفن الشراعية الصغيرة المستخدمة من الملاحة النهرية.

كانت حالة الجو تشير إلى يوم غائم. وكانت حوانيت الشارع التجاري مفتوحة منذ الفجر. وكان بعضها يبيع بضائعه خارج الحوانيت، بين أنقاض البيوت التي ما زالت مهدَّمة منذ زلزال وقع قبل عشرين سنة. رد الجنرال ملوّحاً بالمنديل لكل من حيّوه من النوافذ. لكنهم كانوا قلة قليلة، لأن معظم الناس كانوا يرونه يمر وهم صامتون، وقد أذهلهم سوء حالته. كان يرتدي قميصاً قصير الأكمام، وينتعل جزمته الوحيدة التي من طراز ويلينغتون، ويعتمر قبعة من القش الأبيض. وكان الكاهن قد صعد على كرسيّ وضعه أمام مدخل الكنيسة ليلقي عليه خطبة، لكن الجنرال كارينيو منعه من ذلك، فاقترب الجنرال منه وصافحه.

وصل إلى المنعطف وكانت نظرة واحدة منه كافية ليدرك أنه لن يستطيع الوصول إلى أسفل الراية، لكنه بدأ الصعود متشبثاً بذراع الجنرال كارينيو، إلى أن بدا عليه أنه لم يعد قادراً على التقدّم أكثر. حينئذ حاولوا إقناعه باستخدام كرسي يدوي كان بوسادا غوتيريث قد أعدّه للضرورة. لكنه قال مرتبكاً:

«لا يا جنرال، أرجوك. جنّبني هذه المذلة».

توصل إلى لمس الحافة السفلية للراية، وكان ذلك بقوّة الإرادة أكثر مما هو بقوّة الجسد، وبقي لديه من الحماسة ما يكفي للنزول حتى المرفأ من دون مساعدة من أحد. وهناك ودّع كل فرد من أفراد الموكب الرسمي بعبارة لطيفة، مرفقاً ذلك بابتسامة مصطنَعة كي لا يبدو عليه أنه في ذاك الخامس عشر من أيّار ذي الزهور، كان يمضي في رحلة العودة إلى اللاشيء. قدّم للمحافظ بوسادا غوتيريث ميدالية ذهبية تحمل صورة جانبية له، كتذكار، وشكره على كرمه بصوت عال يمكن للجميع أن يسمعوه، وعانقه بانفعال حقيقي. ثم وقف بعد ذلك في مؤخّر السفينة ملوِّحاً بقبعته من دون أن ينظر إلى أحد بعينه بين الجماعات التي كانت تحييه مودّعة من ضفة النهر، ومن دون أن يرى فوضى الزوراق الصغيرة المتناثرة حول السفن ولا الأطفال

العراة الذين يسبحون تحت الماء مثل أسماك الشابل. واصل التلويح بقبعته نحو نقطة واحدة، بملامح تنم عن عدم الاكتراث إلى أن لم يعد يرى سوى بقية الجزء المبتور من برج الكنيسة فوق الأسوار المخرَّبة. حينئذ دخل إلى عشة السفينة، وجلس على أرجوحة النوم، وشد ساقيه كي يساعده خوسيه بالاثيوس على خلع جزمته.

«فلنر إذا كانوا سيصدّقون الآن بأننا قد ذهبنا».

كان الأسطول مؤلفاً من ثماني سفن تشامبان مختلفة الأحجام، وواحدة خاصة به وببطانته. ومعهم عامل الدفة في المؤخرة وثمانية مجدفين يدفعون السفينة بعتلات طويلة من خشب الغوياكان القاسي. وعلى خلاف سفن التشامبان العادية التي في منتصفها عشة من سعف النخيل للحمولة، أقاموا في تلك السفينة مظلة من قماش كتاني ليصبح بالإمكان تعليق أرجوحة نوم في الظل، وبطّنوها من الداخل بأغصان مجدولة وفرشوها بحصر. وفتحوا فيها أربع نوافذ ليضاعفوا التهوئة والإنارة، ووضعوا فيها منضدة صغيرة للكتابة أو للعب الورق، ورفاً للكتب، وخابية مزودة بمصفاة حجرية للماء. كان المسؤول عن الأسطول، الذي اختير من بين أفضل ربابنه النهر، يدعى كاسيلدو سانتوس، وكان في السابق قائداً لفيلق رماة الحراسة، له صوت راعد ويغطي عينه اليسرى بعصابة قرصان، وكان يحمل تصوراً جريئاً للمهمة الموكولة إليه.

كان شهر أيار هو أوّل الشهور الطيبة لملاحة سفن الربان إلبيرس، لكن الشهور الطيبة لم تكن هي أفضل الشهور بالنسبة لسفن التشامبان. فالحر القاتل، والعواصف التوراتية، والتيارات الغدّارة، وتهديدات الوحوش والضواري في الليل، كانت جميعها تبدو وكأنها قد تواطأت ضد راحة المسافرين. وكان هناك عذاب إضافي، بالنسبة لشخص متحسّس لسوء حالته الصحية، يتمثل في الروائح الكريهة المنبعثة من كتل اللحم المملَّح وقطع البوكاتشيكو المدخَّنة التي علّقوها سهواً على أفاريز السفينة

الرئيسية، فأمر هو برفعها فور شعوره بروائحها عندما صعد إلى السفينة. وحين علم القبطان سانتوس بأنه عاجز حتى عن تحمّل رائحة الأطعمة أمر بجعل سفينة التموين في نهاية الأسطول، لأنها كانت محمّلة بأقفاص للدجاج وبخنازير حيّة. مع ذلك، ومنذ يوم الإبحار الأول، وبعدما تناول متلذذاً طبقين متتاليين من عصيدة الذرة الطرية، اتضح أنه لن يأكل شيئاً سواها طوال الرحلة. فقد قال حينئذ:

«يخيّل إليّ أن يديّ فرناندا السابعة هما اللتان أعدتا هذا الطعام».

وكان الأمر كذلك فعلاً. فطاهيته الخاصة خلال السنوات الأخيرة، ابنة مدينة كيتو، فرناندا باريغا، التي أطلق عليها هو نفسه لقب فرناندا السابعة حين كانت تجبره على تناول طعام لا يرغب فيه، كانت على ظهر السفينة من دون علمه. إنها هندية هادئة، بدينة، ظريفة، وميزتها الكبرى لم تكن في تتبيلاتها الطيبة في المطبخ وإنما في غريزتها في إرضاء الجنرال على المائدة. لقد قرر أن تبقى في سانتافي، مع مانويلا ساينث التي ضمّتها إلى خدمتها البيتية، لكن الجنرال كارينيو استدعاها على عجل حين كانوا في غوادواس، بعدما أطلعه خوسيه بالاثيوس القلق على أن الجنرال لم يتناول أية وجبة كاملة منذ الليلة التي سبقت الرحيل. كانت قد وصلت إلى أوندا مع الفجر، وجعلوها تصعد خفية إلى سفينة المؤونة بانتظار أن تحين فرصة مناسبة لظهورها. وقد جاءت تلك الفرصة بأسرع مما كانوا يتصورون، في المتعة التي أحسّ بها وهو يأكل عصيدة الذرة الطرية، التي صارت طبقه المفضل مذ بدأ انحطاط صحته.

كان يمكن لليوم الأول من الإبحار أن يكون يومهم الأخير. فقد أظلم الجو منذ الساعة الثانية بعد الظهر. وهاجت المياه، وزعزعت الرعود والبروق الأرض. وبدا أن المجذّفين قد أصبحوا عاجزين عن كبح السفن من التحطم في جروف الضفاف. راقب الجنرال من العشّة مناورة الإنقاذ التي كان يقودها القبطان سانتوس بالصراخ، وبدا أن عبقريته الملاحية لم

تكن كافية لمواجهة مثل ذلك الهيجان. راقب الجنرال المناورة بفضول في أوّل الأمر، ثم بجزع لا سبيل إلى كبحه. ثم انتبه وهم في ذروة الخطر إلى أن القبطان قد أصدر أمراً خاطئاً. حينئذ انقاد لغريزته وشق طريقه وسط الريح والمطر، وأصدر أمراً مناقضاً لأمر القبطان، بعد أن أصبحوا عند حافة الهاوية، بأن صاح قائلاً:

«ليس من هنا! إلى اليمين، إلى اليمين، اللعنة!».

تفاعل المجدفون مع الصوت المتهدّج الذي ما زال يتمتع مع ذلك بسلطة لا تقاوَم. وتولى القيادة من دون أن ينتبه إلى ذلك، إلى أن تجاوزوا الخطر. سارع خوسيه بالاثيوس إلى إلقاء بطانية عليه. وأسنده كل من ويلسون وإيبارا ليبقى متماسكاً في مكانه، وتنحّى القبطان سانتوس جانباً، موقناً بأنه قد أخطأ مرّة أخرى بين ميسرة المركب وميمنته، وانتظر بمذلّة جندي إلى أن بحث الجنرال عنه ووجده يتطلع بنظرة مرتعشة، فقال له:

«اعذرني أيها القبطان».

لكن الجنرال لم يرضَ عن نفسه. وفي تلك الليلة، وبينما هم مجتمعون حول نار أشعلوها على الشاطئ الذي نزلوا إليه ليبيتوا ليلتهم الأولى، روى قصصاً عن حالات بحرية حرجة لا تُنسى. روى أن أخاه خوان فيثنته، والد فرناندو، قد مات غرقاً في حادث سفينة وهو راجع من واشنطن، بعد شراء شحنة أسلحة وذخائر للجمهورية الأولى. وروى أنه هو نفسه كان على وشك أن يلقى المصير نفسه حين مات حصانه تحت ساقية في أثناء عبوره نهر أراوكا في فترة فيضانه، وأنه قد سحب الحصان الميّت معه بمشقة بعدما علقت جزمته في الركاب، وبقي يصارع الماء إلى أن تمكن دليله من قطع أحزمة السرج. وروى أنه، أثناء الطريق إلى انغوستورا، بعدما ضمن استقلال غرناطة الجديدة بوقت قصير، التقى بمركب مقلوب جرفه تيار نهر أورينوكو السريع، ورأى ضابطاً مجهولاً يسبح باتجاه الضفة، قالوا له إنه الجنرال سوكره فرد ساخطاً: «لا وجود لأي جنرال يدعى سوكره»،

وكان هو خوسيه أنطونيو دي سوكره فعلاً، الذي رُقّي قبل وقت قصير من ذلك إلى رتبة جنرال في الجيش المحَرِّر، وقد ربطت بينهما منذ ذلك الحين صداقة حميمة.

قال الجنرال كارينيو: «أنا أعرف بأمر هذا اللقاء، ولكن من دون مسألة الغرق».

«ربما أكون قد خلطت بين هذا وبين حادث الغرق الأول الذي تعرض له سوكره حين فر من كارتاخينا وطارده موريو، وقد بقي طافياً يومها نحو أربع وعشرين ساعة، والله أعلم». قال ذلك، ثم أضاف بشيء من الانقياد: «ما أحاول الوصول إليه هو جعل القبطان يتفهّم على نحو ما حقيقة تصرّفي الوقِح مساء اليوم».

عند الفجر وبينما كانوا جميعهم نياماً، اهتزّت الغابة بأسرها حين انطلق غناء منفرد لا يمكن إلا أن يكون صادراً من الروح. انتفض الجنرال في أرجوحة النوم، فدمدم خوسيه بالاثيوس في العتمة: «إنه إيتوربيدي»، وما إن انتهى من قول ذلك حتى قطع الأغنية صوت متوحّش آمر.

كان أغوسطين دي إيتوربيدي هو الابن الأكبر لجنرال حرب الاستقلال المكسيكية[1]، الذي نصّب نفسه إمبراطوراً على بلاده ولم يستطع البقاء في منصبه أكثر من سنة. كان الجنرال يشعر بعاطفة مختلفة نحوه منذ رآه أوّل مرّة، وكان ايتوربيدي يقف يومئذ متأهباً، ويرتجف من دون أن يستطيع التحكم بارتعاشة يده للانفعال الذي أثاره في نفسه اللقاء مع معبود طفولته. كان عمره حينئذ اثنتين وعشرين سنة، لكنه لم يكن قد أتم السابعة عشرة

(1) إيتوربيدي الأب، هو جنرال وسياسي مكسيكي (1783-1824)، من قادة حرب استقلال المكسيك، صاغ بيان الاستقلال المعروف باسم «خطة أغوالادا»، نُصّب إمبراطوراً باسم أغوسطين الأول عام 1822. لكن ثورة جمهورية أطاحت به، فهاجر إلى أوروبا، وعند عودته إلى بلاده عام 1824، أُلقي القبض عليه وأُعدم في بلدة باديللا.

حين أُعدم أبوه رمياً بالرصاص في قرية معفّرة في الريف المكسيكي، بعد عدة ساعات من عودته من المنفى جاهلاً أنه قد حُوكم غيابياً وحُكم عليه بالإعدام بتهمة الخيانة العظمى.

لقد أثّرت في الجنرال، منذ الأيام الأولى، ثلاثة أشياء: أوّلها هو أن أغوسطين يحتفظ بالساعة الذهبية والأحجار الكريمة التي بعث بها إليه أبوه وهو عند جدار الإعدام، وكان يعلقها في عنقه حتى لا يراود الشك أحد في أنه يحملها باعتزاز. والشيء الثاني هو السذاجة التي روى له فيها كيف أن أباه ارتدى ملابس بائسة حتى لا يتعرّف عليه حراس الميناء، لكن أمره انكشف لطريقته النبيلة في امتطاء الحصان. والشيء الثالث هو أسلوبه في الغناء.

كانت الحكومة المكسيكية قد وضعت جميع أنواع العراقيل أمام انضمامه إلى الجيش الكولومبي، موقنة أن إعداده في فنون الحرب ليس إلا جزءاً من مؤامرة ملكية يرعاها الجنرال، لتتويجه ملكاً على المكسيك بذريعة حقه المزعوم كوليّ للعهد. وقد تحمّل الجنرال مسؤولية المجازفة بوقوع أزمة دبلوماسية خطيرة، ليس بقبوله الشاب أغوسطين بألقابه العسكرية وحسب، وإنما بجعله مرافقاً له كذلك. وكان أغوسطين جديراً بثقة الجنرال، على الرغم من أنه لم يعِش سعيداً يوماً واحداً، وقد كانت عادته في الغناء وحدها هي التي أتاحت له التغلب على التردّد والبقاء على قيد الحياة.

وهكذا، حين أمره أحدهم بالسكوت في أحراج نهر مجدلينا، نهض الجنرال من أرجوحة النوم متدثراً ببطانية، واجتاز المعسكر المضاء بنيران الحراسة، ومضى لمرافقته. وجده جالساً على الضفة يتأمل انسياب النهر، فقال له:

«واصل الغناء يا كابتن».

جلس بجواره، ورافقه في الغناء بصوته الضئيل في الأغنيات التي يعرف كلماتها. لم يسمع في حياته كلها أحداً يغني بمثل ذلك الحب. ولم

يعرف أحداً يعاني مثل تلك الكآبة وينشر كل تلك البهجة في ما حوله. لقد ألّف إيتوربيدي، مع فرناندو وأندريس اللذين كانا تلميذين معه في مدرسة جورجتاون العسكرية، ثالوثاً أدخل نفحة شباب في الوسط المحيط بالجنرال الذي جعلت منه قحولة المعسكرات رجلاً بائساً.

واصل أغوسطين والجنرال الغناء إلى أن أيقظ هياج حيوانات الغابة التماسيح النائمة على الضفة، وانقلبت مياه النهر وكأنها في كارثة طوفانية. بقي الجنرال جالساً على الأرض، مذهولاً باستيقاظ الطبيعة الرهيب، إلى أن ظهر شريط برتقالي في الأفق، وانتشر الضياء. حينئذ استند إلى ذراع ايتوربيدي لينهض، وقال له:

«شكراً أيها الكابتن. بعشرة رجال يغنون مثل غنائك، يمكننا إنقاذ العالم».

فتنهد إيتوربيدي:

«آه يا جنرال. إنني مستعد لأن أعطيك أي شيء مقابل أن تسمع أمي منك هذا الكلام».

في يوم إبحارهم الثاني شاهدوا مزارع معتنى بها جيداً، تتخللها مروج زرقاء، وفيها جياد رائعة طليقة على هواها. لكن الغابات بدأت بعد ذلك، وصار كل شيء متشابهاً. وكانوا قبل ذلك قد بدأوا يتجاوزون بعض الأطواف المصنوعة من جذوع أشجار ضخمة، يحملها قاطعو الأشجار من الضفاف لبيعها في كارتاخينا دي إندياس. كانت حركتها شديد البطء حتى بدت وكأنها ثابتة وسط التيار. وكانت تسافر عليها عائلات كاملة، مع أطفالها وحيواناتها، لا يحميهم من الشمس سوى ظلة بسيطة من السعف. وفي بعض تعرّجات الغابة، بدأت تظهر أوّل عمليات التدمير الجائر التي كانت تقترفها أطقم السفن البخارية لتغذية مراجلها. وقد قال الجنرال:

«على الأسماك أن تتعلم المشي على اليابسة، لأن المياه ستنفد هنا».

صار الحرّ لا يُطاق خلال النهار، وكان صخب القرود والطيور يصل إلى حدود تبعث على الجنون، لكن الليالي كانت هادئة وباردة. وكانت التماسيح ترقد على الشواطئ من دون حراك ساعات طويلة، فاتحة أشداقها لتصطاد الفراشات. وإلى جوار الدساكر المهجورة، كانت تظهر أراض مزروعة بالذرة، وكلاب بارزة العظام تنبح لدى مرور السفن. وحتى في المناطق غير المأهولة، كانت هناك مصايد لصيد التابير، وشباك صيد منشورة في الشمس، ولكن من دون وجود أي كائن بشري.

بعد تلك السنوات الطويلة من الحروب، والحكومات المريرة، والغراميات التافهة، صارت البطالة تبدو مثل وجَع. والحيوية القليلة التي كان الجنرال يتمتع بها عند الفجر، كانت تفارقه وهو غارق في تأملاته في أرجوحة النوم. كانت مراسلاته قد أنجزت بعد ردّه المباشر على رسالة الرئيس كايثيدو، لكنه كان يشغل الوقت بإملاء رسائل للترويح عن نفسه. في الأيام الأولى، قرأ له فرناندو الجزء المتبقي من كتاب وقائع قوادات ليما، ولم يستطع بعدها التركيز في أي شيء آخر.

كان ذاك هو كتابه الأخير الذي قرأه كاملاً. كان قارئاً متمادياً في نهمه، سواء في فترات الراحة بين المعارك أو في استراحات الحب، لكنه كان يقرأ من دون نظام ومن دون منهجية. فهو يقرأ في أي وقت، وبالإضاءة المتوافرة. يقرأ أحياناً وهو يمشي تحت الأشجار، وأحياناً وهو على صهوة جواده تحت الشموس الاستوائية، وأحياناً في عتمة العربات المهتزة فوق الشوارع المرصوفة بالحجارة، وأحياناً وهو يتأرجح في شبكة النوم، ويُملي رسالة في الوقت ذاته. لقد فوجئ مكتبي من ليما بغزارة وتنوّع المؤلفات التي انتقاها من فهرس مطبوعات، فكانت تضم أعمالاً تبدأ من الفلسفة الإغريقية وتصل إلى مُؤلَّف في قراءة خطوط راحة اليد. لقد قرأ في شبابه أعمال الرومنطيقيين بتأثير من معلمه سيمون رودريغيث،

ثم واصل التهام أعمالهم وكأنه يقرأ نفسه بمزاجه المثالي المندفع. كانت قراءات عاطفية تركت بصماتها عليه طوال ما تبقى من حياته. ثم صار يقرأ أخيراً كل ما يقع بين يديه. ولم يكن لديه كاتب مفضَّل، بل كتّاب كثيرون يتناوبون تلك المكانة في مراحل حياته المختلفة. وكانت خزائن الكتب تكاد تتفزر في البيوت العديدة التي عاش فيها، ثم ينتهي الأمر بتحوّل غرف النوم والممرات إلى مضائق تغصّ بالكتب المتراكمة وأكوام الوثائق التائهة التي تتضاعف مع كل خطوة يخطوها، وتلاحقه من دون رحمة باحثة عن السلام في خزائن الأرشيف. لم يتمكن مطلقاً من قراءة كل ما يملكه من كتب. وحين كان ينتقل من المدينة، يترك كتبه في عهدة أكثر أصدقائه ثقة، مع أنه لم يكن يعود إلى معرفة أي شيء عنها مطلقاً. وقد اضطرته حياة الحرب إلى أن يترك أثراً من الكتب والأوراق يبلغ طوله أكثر من أربعمئة فرسخ من بوليفيا حتى فنزويلا.

قبل أن يبدأ بفقدان بصره صار يطلب من كتَبَته أن يقرأوا له، ولم يعد يقرأ بعد ذلك إلا بتلك الطريقة بسبب الإزعاج الذي تسببه له النظارة، لكن اهتمامه بالقراءة أخذ يتضاءل في الوقت ذاته، وكان يعزو ذلك، كعادته إلى سبب خارج عن إرادته، فيقول:

«كل ما هنالك هو أن الكتب الجيّدة تصبح أقل يوماً بعد يوم».

كان خوسيه بالاثيوس هو الوحيد الذي لم يُبدِ علائم الضجر في خمول الرحلة، فلم يكن للحر والضيق أي تأثير على تأنّقه في السلوك والملبس، كما أنها لم تجعله يهمل في خدمة سيّده. كان أصغر من الجنرال بست سنوات، وكان قد وُلد عبداً في بيته، من لقاء آثم بين أفريقية وإسباني، وقد ورث عن هذا الأخير شعره الذي مثل الجزَر، والنمَش الذي في وجهه ويديه، وزُرقة عينيه. وخلافاً لقناعته الطبيعية، كان يملك تشكيلة ملابس أكثر تنوعاً وأغلى ثمناً مما يملكه أي واحد من أفراد المرافَقة. لقد أمضى

حياته كلها مع الجنرال، فكان معه في المرتين اللتين نُفي فيهما، وفي سائر حملاته وجميع معاركه كان معه في خط النار الأول، بملابسه المدنية على الدوام، لأنه لم يبِح لنفسه قطّ ارتداء الملابس العسكرية.

أسوأ في ما الرحلة كان السكون الاضطراري. وفي مساء أحد الأيام أحسّ الجنرال بالقنوط من التجوّل في المجال الضيق تحت ظلة الكتان، فأمر بايقاف المركب كي يتمشى قليلاً. شاهدوا على الوحل اليابس آثاراً تبدو وكأنها آثار طائر ضخم بحجم النعامة وثقيل ثقل جاموس على الأقل، لكن ذلك بدا طبيعياً للمجذفين، وقالوا إن بشراً بضخامة أشجار الثيبا، لهم أعراف الديوك وأرجلها، يطوفون في ذلك المكان الكئيب. سخر من الخرافة، مثلما يسخر من كل ما يحمل شيئاً من المظاهر الخارقة للطبيعة، لكنه تأخر في المشي أكثر مما ينبغي، ثم اضطروا أخيراً للتخييم هناك، على الرغم من معارضة القبطان ومرافقيه العسكريين الذين اعتبروا المكان خطراً ووخيماً. أمضى الليلة ساهراً، يعذّبه الحرّ وأسراب البعوض التي بدت وكأنها تنفذ عبر قماش الكلة الخانق. وكان ينصت إلى زئير أسد البوما المرعب الذي جعلهم يقضون الليلة مستنفرين. وفي الساعة الثانية فجراً، ذهب لتبادل الحديث مع الجماعات الساهرة حول الموقد. وعند شروق الشمس فقط، وفيما هو يتفحص امتدادات الوحول المذهَّبة بأول أشعة الشمس، تخلى عن الوهم الذي جعله يسهر، وقال:

«حسناً. علينا أن نذهب من دون أن نتعرف على الأصدقاء ذوي أرجل الديكة».

وفي لحظة الإبحار، قفز إلى السفينة كلب أجرب وهزيل، إحدى قوائمه متيبسة. هجم كلبا الجنرال عليه، لكن الكلب الكسيح دافع عن نفسه بشراسة انتحارية، ولم يستسلم حتى بعد أن تضرج بالدم وأصيب بجراح في عنقه. أمر الجنرال بالاحتفاظ به، وتولى خوسيه بالاثيوس مسؤوليته، مثلما فعل مرّات عديدة بكثير من كلاب الشوارع.

وفي اليوم نفسه التقطوا ألمانياً تُركَ مهجوراً على إحدى الجزر الرملية لأنه ضرب أحد مجذّفيه بعصا. ومنذ صعوده إلى المركب، قدّم نفسه على أنه فلكي وعالم نبات. إنما الحوار معه كشف عن أنه لا يعرف شيئاً في كلا الأمرين. ولكن زعَمَ أنه رأى بأم عينيه، البشر ذوي أرجل الديكة، وكان عازماً على الإمساك بواحد منهم حياً، ليعرضه في قفص في أوروبا باعتباره ظاهرة لا يمكن مقارنتها إلا بالمرأة العنكبوت القادمة من أميركا، التي أثارت كثيراً من الهرج والمرج في قرى الأندلس قبل قرن من ذلك.

وقد قال له الجنرال:

«خذني أنا. أؤكد لك أنك ستكسب مالاً أكثر إذا عرضتني في قفص، باعتباري أكبر مغَفَّل في التاريخ».

لقد بدا الألماني له منذ البداية كذاباً لطيفاً، لكنه بدّل رأيه فيه عندما أخذ يروي نكاتاً غير وقورة عن لواطة البارون ألكسندر فون هومبولدت المشينة. وقد قال الجنرال لخوسيه بالاثيوس عندها: «كان علينا أن نتركه ثانية على الشاطئ». عند المساء التقوا بزورق البريد، الذي كان يمضي صعوداً، فلجأ الجنرال إلى فنونه في الإغراء لجعل الموظف يفتح أكياس المراسلات الرسمية ويسلمه رسائله. ثم طلب منه أخيراً أن يعمل معروفاً ويحمل الألماني معه حتى ميناء «ناريه»، ووافق الموظف بالرغم من أن الزورق كان محمَّلاً فوق طاقته. في تلك الليلة، وفيما كان فرناندو يقرأ له الرسائل، دمدم الجنرال:

«يريد كس الأم هذا أن يصبح تيلة في شعر هومبولدت».

لقد كان يفكر بالبارون قبل أن يلتقوا بالألماني. فهو لم يستطع أن يتصوّر كيف تمكن من البقاء على قيد الحياة في تلك الطبيعة الجامحة. كان قد تعرّف عليه خلال سنوات إقامته في باريس، بعد عودة هومبولدت من رحلته إلى البلدان المعتدلة. ومثلما فوجئ بذكائه وعِلمه، فوجئ كذلك بروعة جماله الذي لم يرَ مثله في امرأة. أما أقل ما أقنعه فيه، فهو

يقينه بأن المستعمرات الإسبانية في أميركا ناضجة من أجل الاستقلال. لقد قال ذلك ببساطة، ومن دون أي ارتعاشة في صوته، بينما لم يكن يخطر بباله هو شيء من ذلك، ولو مثل وهم احتفالي.

قال له هومبولدت: «الشيء الوحيد اللازم هو الرجل».

وقد روى الجنرال ذلك لخوسيه بالاثيوس بعد سنوات عديدة، في كوثكو. ربما رواه وهو يرى نفسه فوق العالم، وبعد أن أثبت التاريخ أنه هو الرجل المقصود. لم يكرر رواية ذلك الأمر لأحد، ولكنه كلما دار الحديث عن هومبولدت، كان ينتهز الفرصة ليؤكد بُعد نظره:

«لقد فتح هومبولدت عينيّ».

كانت تلك هي المرّة الرابعة التي يسافر فيها في نهر مجدلينا، ولم يستطع تجنب الإحساس بأنه إنما يعيد جمع خطوات حياته. لقد مخره أوّل مرّة عام 1813، وكان عندئذ كولونيلاً مهزوماً في ميليشيا بلاده، فوصل إلى كارتاخينا دي إندياس، قادماً من منفاه في كوراساو، بحثاً عن موارد لمواصلة الحرب. كانت غرناطة الجديدة مجزأة إلى أقاليم مُدارة ذاتياً، وكانت قضية الاستقلال تفقد زخمها الشعبي أمام قمع الإسبان الوحشي، وكان الانتصار النهائي يبدو أبعد منالاً يوماً إثر يوم. أما الرحلة الثانية، فقام بها في الزورق البخاري، كما كان يدعوه، وكانت عملية الاستقلال ناجزة، لكن حلمه المتسلط على عقله بتحقيق الوحدة القارية كان قد بدأ يتفتت إلى أجزاء. وفي رحلته الأخيرة، كان الحلم قد صُفّي، وإن كان لا يزال على قيد الحياة، مختزلاً في جملة يكررها بلا ملل:

«سيكون لدى أعدائنا فرصة التفوّق دائماً ما دمنا لم نوحد حكومة أميركا».

بين الذكريات الكثيرة التي يشاطره إياها خوسيه بالاثيوس، كانت الرحلة الأولى هي أكثرها تأثيراً في النفس، وذلك عندما خاضوا معركة تحرير النهر.

فعلى رأس مئتي رجل مسلّحين كيفما اتفق، وخلال نحو عشرين يوماً، لم يتركوا في حوض نهر مجدلينا إسبانياً ملكياً واحداً. وقد انتبه خوسيه بالاثيوس نفسه، في اليوم الرابع من الرحلة، إلى مدى تبدّل الأحوال، عندما بدأوا يرون على الضفاف المحاذية للقرى صفوفاً من النساء ينتظرن مرور السفن، فقال: «إنهن الأرامل». أطل الجنرال فرآهن يرتدين السواد، ويقفن في صفوف على الضفة مثل غربان ساهية تحت الشمس الحارقة، ينتظرن منه ولو مجرد تحية إحسان. لقد اعتاد الجنرال دييغو إيبارا، شقيق أندريس، القول إن الجنرال لم ينجب أي ابن، لكنه مع ذلك أب وأم لجميع أرامل الأمة. كن يلاحقنه في كل مكان، وكان يبقيهن على قيد الحياة بكلمات قلبية تعبّر عن عزاء حقيقي، لكنه في ذلك اليوم، وعندما رأى صفوف النساء المأتمية في قرى النهر، كان يفكر بنفسه أكثر من تفكيره بهن. وقال:

«الأرامل الآن نحن. إننا يتامى ومغبونو ومنبوذو الاستقلال».

لم يتوقفوا في أي بلدة قبل مومبوكس، باستثناء توقفهم في بورتو ريال، التي كانت مخرج أوكانيا على نهر مجدلينا. وجدوا هناك الجنرال الفنزويلي خوسيه لاورينثيو سيلفا، الذي أنجز مهمة مرافقة الجنود المتمردين حتى حدود بلاده، وجاء لينضمّ إلى بطانة الجنرال.

بقي الجنرال في السفينة حتى حلول الليل، حين نزل إلى البرّ لينام في معسكر مرتجَل. وقد استقبل أثناء وجوده في السفينة صفوفاً من أرامل ومخذولي ومنكوبي جميع الحروب ممن أرادوا مقابلته. كان يتذكرهم جميعهم تقريباً بوضوحه المذهل. من بقوا هناك كانوا يحتضرون بؤساً، بينما مضى آخرون بحثاً عن حروب أخرى كي يعيشوا، أو تحوَّلوا إلى قاطعي طريق، مثل كثيرين غيرهم من مُسرَّحي الجيش المُحَرِّر في جميع أرجاء التراب الوطني. وقد أجمل أحدهم مشاعر الجميع في جملة واحدة: «ها نحن أولاء قد نلنا الاستقلال أيها الجنرال، فقل لنا الآن ماذا نفعل به».

كان قد علمهم، في نشوة الانتصار، أن يكلموه هكذا، بالحقيقة المباشرة لكن الحقيقة بدّلت سيّدها الآن.

كان يقول لهم: «الاستقلال مجرد مسألة كسب حرب. التضحيات الكبيرة ستأتي في ما بعد، لجعل هذه الشعوب وطناً واحداً».

فيقولون له: «التضحية هي الشيء الوحيد الذي فعلناه أيها الجنرال».

فلا يتراجع نقطة واحدة، ويقول: «ما زلنا بحاجة للمزيد، فالوحدة لا تُقدّر بثمن».

في تلك الليلة، وبينما هو يطوف في عشّة علقوا له الأرجوحة فيها لينام، رأى امرأة تعيد النظر إليه لدى مرورها، وفوجئ بأنها لم تفاجَأ بعريه. وقد سمع حتى كلمات الأغنية التي كانت تدندن بها: «قل لي أن لا وقت متأخر للموت حباً». كان حارس البيت مستيقظاً في العشة التي عند الباب، فسأله الجنرال:

«هل توجد امرأة هنا؟».

فقال: «امرأة تليق بفخامتك، لا توجد».

«وغير لائقة بفخامتي؟».

فقال الحارس: «لا توجد أيضاً. لا وجود لأي امرأة على بعد أقل من فرسخ».

كان الجنرال واثقاً بأنه رآها، فبحث عنها في البيت حتى وقت متأخر جداً. وألحّ على مرافقيه كي يتحرّوا الأمر، وأخّر خروجهم في اليوم التالي أكثر من ساعة إلى أن هزمته المفاجأة نفسها: لم يكن هناك أحد. ولم يعد إلى الحديث في ذلك الأمر. لكنه كلما تذكره في بقية الرحلة، كان يعود إلى إصراره الأول. سيعيش خوسيه بالاثيوس سنوات طويلة بعد موت الجنرال، وسيتاح له متسع من الوقت ليراجع تفاصيل حياته معه، ولن يبقى أي تفصيل تافه في الظل. لكن الشيء الوحيد الذي لم يستطع توضيحه أبداً

هو إذا ما كانت رؤيا الجنرال في تلك الليلة في بورتو ريال حلماً أم هذياناً أم طيفاً.

لم يعد أحد إلى تذكر الكلب الذي التقطوه في الطريق، والذي كان يحوم هناك، وقد بدأت جراحه المميتة تشفى، إلى أن انتبه الجندي المكلف بإطعامه إلى أنه لا يزال من دون اسم. كانوا قد غسلوه بحمض الفنيك، وعطروه ببودرة الأطفال، ولكنهم لم يتوصلوا بالرغم من ذلك إلى التخفيف من بشاعة مظهره ولا من رائحة جَرَبه الكريهة. كان الجنرال يستمتع بالبرودة في مقدمة السفينة حين جرّ خوسيه بالاثيوس الكلب جراً، وسأله:

«أي اسم نطلق عليه؟».

فقال الجنرال من دون أن يكلف نفسه عناء التفكير:

«بوليفار».

تحرّكت بارجة حربية صغيرة، كانت مربوطة في المرفأ، فور علمها بنبأ اقتراب أسطول سفن التشامبان. لمحها خوسيه بالاثيوس من نافذة العشّة، فانحنى فوق أرجوحة النوم حيث كان يرقد الجنرال مغمض العينين، وقال:

«سيدي، إننا في مومبوكس».

فقال الجنرال من دون أن يفتح عينيه:

«أرض الربّ».

بينما كانوا يمضون نزولاً، كان النهر يصبح أكثر اتساعاً ومهابة، وكأنه مستنقع بلا ضفاف، وصار الحرّ كثيفاً إلى حد يمكن معه لمسه باليدين. تخلى الجنرال من دون مرارة عن رؤية إشراقات الشمس الفجائية، وأشفاق الصباح المؤثرة التي كانت تبقيه في الأيام الأولى في مقدمة السفينة، وانقاد للذهول. لم يعد إلى إملاء الرسائل ولا إلى القراءة، ولم يعد يوجّه إلى مرافقيه أية أسئلة قد يُلمَح فيها أدنى اهتمام بالحياة. وكان يتدثر ببطانية حتى في أشد القيلولات قيظاً، ويبقى في أرجوحة النوم مغمَض العينين طوال الوقت. خشي خوسيه بالاثيوس ألّا يكون قد سمعه، فكرر النداء، وعاد الجنرال يرد عليه من دون أن يفتح عينيه:

«مومبوكس غير موجودة. نحن نحلم بها أحياناً، لكنها غير موجودة».

فقال خوسيه بالاثيوس:

«يمكنني أن أومن على الأقل بأن برج كنيسة سانتا باربرا موجود. إنني أراه من هنا».

فتح الجنرال عينية المعذَّبتين، وجلس في أرجوحة النوم، ورأى عندئذ علي ضوء الظهيرة الألمنيومي أوّل أسطح مدينة مومبوكس القديمة المنكوبة التي دمرتها الحروب، وأفسدتها فوضى الجمهورية، وأهلك الجدري كثيرين من أهلها. كان النهر قد بدأ بتبديل مجراه في تلك الحقبة، بأنفة لا سبيل إلى تقويمها، ليتركه تماماً قبل انتهاء القرن. أما الحاجز الحجري الذي كان المتعهّدون الإسبان يسارعون إلى ترميمه بعد كل تخريب تسببه الفيضانات، فلم يبق منه سوى أنقاض مبعثرة على الشاطئ المجروف.

اقترب المركب الحربي من السفن، وصوّب المدفع باتجاهها ضابطٌ زنجي ما زال يرتدي زي الشرطة الاستعمارية القديم. لكن القبطان كاسيلدو سانتوس تمكن من أن يصيح به:

«لا تكن جلفاً أيها الزنجي!».

توقف المجذفون فجأة، وبقيت السفن تحت رحمة التيار. صوّب جنود الحراسة بنادقهم باتجاه البارجة، منتظرين الأوامر. احتفظ الضابط الزنجي بإصراره وصاح:

«جوازات سفركم، باسم القانون».

حينئذ رأى الروح المحزونة التي برزت من تحت الظلة، ورأى اليد المنهوكة، إنما المشحونة بسلطة مؤكدة، التي أمرت الجنود بإنزال أسلحتهم، ثم قال للضابط بصوت ضعيف:

«حتى لو لم تصدّقني يا كابتن، فإنني لا أملك جواز سفر».

لم يكن الضابط يعلم من يكون. ولكن عندما أخبره فرناندو بذلك،

ألقى بنفسه في الماء مع أسلحته، وتقدم من الضفة مسرعاً ليخبر البلدة بالنبأ الطيّب. ورافق المركب الحربي السفن حتى المرفأ وهو يصدح ببهجة. وقبل أن يتمكنوا من رؤية المدينة كلها عند المنعطف الأخير في النهر، كانت نواقيس كنائسها الثمانية تُقرع مستنفرة الناس.

كانت سانتا كروث دي مومبوكس، خلال العهد الاستعماري، جسر التجارة بين شواطئ الكاريبي والمناطق الداخلية من البلاد، وكان ذلك هو سبب ثرائها. وحين بدأت هبة الحرية، كان ذلك الحصن للارستقراطية الوطنية هو أوّل من أعلنها. ومع أن الإسبان استعادوا السيطرة عليها، إلّا أنها حُرِّرت منهم ثانية على يد الجنرال بالذات. كانت مؤلفة من ثلاثة شوارع موازية للنهر فقط، بيوتها من طبقة واحدة ولها نوافذ كبيرة، ازدهر فيها دوقان وثلاثة مركيزون، وقد احتفظت بشهرتها في صياغة الذهب بالرغم من التقلبات الجمهورية.

وصل الجنرال إليها وهو قانط من أمجاده، ومهيّأ ضد العالم، ففوجئ بوجود حشود تنتظره في المرفأ. ارتدى على عجل بنطاله الذي من قماش يشبه القطيفة، وانتعل جزمته، وألقى بالبطانية على كتفيه بالرغم من الجو الحار، وبدلاً من الطاقية الليلية اعتمر القبعة ذات الحواف العريضة التي لوّح بها مودعاً الناس في أوندا.

كان هناك مأتم لشخصية مرموقة في كنيسة كونثيبثيون. وكانت السلطات المدنية والكنسية كلها، والجمعيات الدينية وتلاميذ المدارس والناس البارزون بملابسهم الحريرية الاحتفالية يشاركون في قداس الجسد الحاضر، فجعلهم دويّ النواقيس يفقدون رصانتهم، معتقدين أنها إنذار حرب. لكن الحاجب الذي دخل بهياج عظيم، وهمس بالخبر في أذن العمدة، ما لبث هو نفسه أن صاح بالجميع:

«الرئيس في المرفأ!».

كثيرون كانوا يجهلون حتى ذلك الحين أنه لم يعد كذلك. فيوم الاثنين

مرّ بريد راح ينشر شائعات أوندا في قرى النهر، لكنه لم يوضح أي شيء. وقد جعل ذلك الخطأ من مصادفة الاستقبال حدثاً أكثر صخباً، حتى أن أسرة المتوفي تفهّمت مغادرة معظم معزّيها الكنيسة ليسرعوا إلى السور، فاختُصرت مراسم المأتم، ولم يرافق النعش إلى المقبرة سوى جماعة من المقرَّبين، وسط دويّ الألعاب النارية والنواقيس.

كانت غزارة النهر لا تزال ضعيفة بسبب شح أمطار شهر أيار، فكان عليهم أن يتسلقوا كومة من الأنقاض ليصلوا إلى المرفأ. وقد صدّ الجنرال أحدهم بخشونة حين حاول أن يحمله، وصعد مستنداً إلى ذراع الكابتن إيبارا، متمايلاً في كل خطوة، ومحتفظاً بتماسكه بمشقة، لكنه تمكن من الوصول من دون أن يُمَسّ وقاره.

صافح السلطات في الميناء بضغطة حيوية على الأيدي، لكن قوَّته لم تكن معقولة نظراً لحالته الجسدية ولضآلة يده. ومن رأوه في المرّة الأخيرة التي زار فيها المدينة، لم يصدّقوا ذاكرتهم. كان يبدو هرماً مثل أبيه، لكن النفَس القليل المتبقي لديه كان كافياً كي لا يسمح لأحد بالتصرف بدلاً منه. رفض أن يُحمَلَ على محفات احتفالات الجمعة الحزينة التي أُعدّت من أجله. ووافق على الذهاب ماشياً إلى كنيسة كونثيبثيون. واضطر أخيراً إلى ركوب بغلة العمدة، وكان هذا الأخير قد أمر بأن يسرجوها على عجل حين رآه ينزل من المركب منهوك القوى.

شاهد خوسيه بالاثيوس في الميناء وجوهاً كثيرة موشومة ببقع الجنطيانا البنفسجية التي تسببها جذوات الجدري. كان داءً مقيماً في قرى الجزء السفلي من نهر مجدلينا، وكان الأمر قد انتهى بالوطنيين إلى الخوف من الجدري أكثر من خوفهم من الإسبان، منذ سبَّب عدداً كثيراً من الوفيات في صفوف القوّات المحَرِّرة خلال حملة النهر. منذ ذلك الحين، ونظراً لأن الجدري واصل انتشاره، تمكن الجنرال من تأخير سفر عالم طبيعي فرنسي كان ماراً من هناك، وجعله يحصّن الأهالي بتلقيحهم بالمصل الذي كان

يستخدمه لجدري المواشي. لكن الوفيات التي سبّبها اللقاح كانت كبيرة، حتى لم يعد هناك أخيراً من يود سماع شيء عن دواء قائمة البقرة، كما كانوا يطلقون عليه. وفضلت أمهات كثيرات تعرض أطفالهم لخطر العدوى على مخاطر تلك الوقاية من المرض. ومع ذلك فإن التقارير الرسمية التي كان الجنرال يتلقاها جعلته يعتقد أن جائحة الجدري آخذة في الانحسار. وعندما لفت خوسيه بالاثيوس نظره إلى أعداد الوجوه الملوَّنة بالبقع بين الحشود، كان رد فعله يحمل من المفاجأة أقل مما يحمل من الضجر، إذ قال:

«ستبقى الأمور هكذا دوماً، ما بقي المرؤوسون يكذبون علينا لإرضائنا».

لم يتح لمن استقبلوه في الميناء أن يستشفّوا ما يشعر به من مرارة. روى لهم بإيجاز وقائع استقالته، وحالة الفوضى التي صارت إليها سانتافي، وبناء على ذلك طلب منهم أن يقدموا دعماً جماعياً إلى الحكومة الجديدة. وقال: «لا وجود لخيار آخر: فإما الوحدة وإما الفوضى»، وقال إنه ذاهب بلا رجعة، ليس للبحث عن راحة من آلام الجسد، التي كانت كثيرة ووبيلة، كما هو واضح للعيان، وإنما في محاولة للاستراحة من كل تلك الأحزان التي تسبِّبها له شرور الآخرين. لكنه لم يقل متى سيذهب، ولا إلى أين، وكرر من دون مناسبة أنه لم يتلق بعد من الحكومة جواز السفر حتى يتمكن من مغادرة البلاد. شكرهم على سنوات المجد العشرين التي قدمتها له مومبوكس ورجاهم ألّا يميزوه بأية ألقاب سوى لقب مواطن.

كانت كنيسة كونثيبثيون لا تزال مزيَّنة بحرائر الحداد، وكانت لا تزال تطفو في الجو روائح الزهور وذبالات شموع المآتم حين انطلقت الحشود في نشيد مرتجَل. انتبه خوسيه بالاثيوس الذي كان يجلس في مقاعد المرافقين إلى أن الجنرال غير مستريح في مقعده. أما العمدة، وهو خلاسيّ له رأس مثل رأس أسد جميل، فكان يجلس إلى جواره براحة مَنْ هو في

جوّه الخاص. وكانت فرناندا، أرملة بينخوميا، التي أثار جمالها الكريولي المشاكل في بلاط مدريد، قد أعارت الجنرال مروحتها المصنوعة من خشب الصندل لتساعده على حماية نفسه من سبات المراسم. فكان يهز المروحة من دون أمل بالبرودة، وإنما بما يكفي لتفوح رائحة شذاها، إلى أن بدأ الحرّ يمنعه من التنفس. حينئذ دمدم في أذن العمدة:

«صدقني أنني لا أستحق هذا العقاب».

فقال العمدة:

«محبة الشعوب لها ثمنها يا صاحب الفخامة».

«لكن هذا ليس محبة وياللأسف، وإنما هو ولع بالأشياء الجديدة» - قال.

بعد انتهاء النشيد الديني، ودّع أرملة بينخوميا بانحناءة احترام من رأسه، وأعاد لها المروحة. فحاولت إعطاءه إياها ثانية وهي تقول له:

«شرِّفني بالاحتفاظ بها كذكرى ممن تحبك كثيراً».

«المحزن يا سيدتي أنه لم يبق لي وقت طويل لأتذكر فيه» - قال.

أصرّ الكاهن على حمايته من الحرّ بالمشي تحت سرادق أسبوع الفصح، من كنيسة كونثيبثيون وحتى معهد القديس بطرس الرسول، وهو مبنى من طابقين فيه رواق ديريّ ينمو فيه السرخس والقرنفل، وفي نهايته القصوى بستان أشجار مثمرة منير. لم تكن الممرات المقنطرة صالحة للعيش في تلك الشهور بسبب هبّات الهواء الساخنة الآتية من النهر، حتى خلال الليل. أما الغرف المجاورة للصالة الكبرى فكانت محمية بجدران حجرية سميكة تبقيها في عتمة خريفية.

تقدمه خوسيه بالاثيوس ليتفقد جهوزية كل شيء. كانت حجرة النوم ذات الجدران الخشنة والمبيَّضة حديثاً بالكلس، بواسطة مكنسة، مضاءة إضاءة سيئة بنافذة وحيدة لها أباجور أخضر وتطل على البستان.

غيّر خوسيه بالاثيوس وضع السرير كي تصبح النافذة عند نهاية السرير وليس عند رأسه، بحيث يستطيع الجنرال رؤية ثمار الجوافة الصفراء على الأشجار، والاستمتاع برائحتها العطرة.

وصل الجنرال ممسكاً بذراع فرناندو، ومعه كاهن كنيسة كونثيبثيون، الذي كان مديراً للمعهد أيضاً. وما إن أغلق باب الحجرة حتى أسند ظهره إلى الجدار، متفاجئاً برائحة الجوافة الموضوعة في جفنة فوق حافة النافذة، والتي كان شذاها النفّاذ يملأ جوّ غرفة النوم. بقي على تلك الحال، مغمَض العينين، يستنشق رائحة ذكريات قديمة كانت تفتّت روحه، إلى أن نفدت أنفاسه. بعد ذلك تفحّص الغرفة باهتمام مدقق، وبدا كأن كل شيء فيها يذكره بذكرى قديمة. فإضافة إلى السرير المركيزي، كان هناك صوان من خشب المغنة، وكومودينو من الخشب ذاته أيضاً تغطيه قطعة مرمر، وأريكة مغطاة بمخمل أحمر. وعلى الجدار، إلى جانب النافذة، هناك ساعات ذات ثمانية أضلاع وأرقام رومانية، متوقفة على الواحدة وسبع دقائق. فقال الجنرال:

«أخيراً، هنالك شيء لا يزال على حاله».

فوجئ الكاهن وقال:

«المعذرة يا صاحب الفخامة، لكن حضرتك لم تأتِ إلى هنا من قبل، حسبما تصل إليه مداركي».

خوسيه بالاثيوس فوجئ أيضاً، لأنه لم يزر ذلك البيت مطلقاً من قبل، لكن الجنرال أصرّ على ذكرياته ببضع إشارات صحيحة حيّرت الجميع. ولكنه حاول مع ذلك تشجيعهم بسخريته المعتادة، فقال:

«ربما كان الأمر كله نوعاً من إعادة التجسيد. فكل شيء ممكن في نهاية المطاف، خصوصاً في مدينة رأينا فيها لتوّنا رجلاً مطروداً من رحمة الكنيسة يمشي تحت سرادق كنسي».

بعد وقت قصير، هبّت عاصفة مطر ورعد أغرقت المدينة، فانتهز الجنرال الفرصة ليستريح من التحيات، مستمتعاً برائحة الجوافة، ومتصنّعاً النوم على ظهره وهو بملابسه في عتمة الحجرة، ثم غفا بعد ذلك فعلاً مع الصمت المرمِّم الذي تلا الفيضان. عرف خوسيه بالاثيوس أنه قد نام حين سمعه يتكلم بأسلوب شبابه الحسن وجرسه الواضح، وهو ما لم يكن يتذكره حينئذ إلّا وهو نائم. تكلم عن كاراكاس، مدينة الأنقاض التي لم تعُد مدينته، بجدرانها المليئة بأوراق سباب ضده، وشوارعها الطافحة بسيل من البراز البشري. سهر خوسيه بالاثيوس في أحد أركان الحجرة، من دون أن يُرى على الأريكة، ليتأكد من عدم وجود أحد، سوى ضباط المرافقة، يستمع إلى مناجاة النائم. أومأ إلى الكولونيل ويلسون من خلال الباب الموارب، فأبعد هذا جنود الحراسة الذين كانوا يتسكعون في الحديقة.

قال الجنرال النائم: «هنا لا يحبنا أحد، وفي كاراكاس لا أحد يطيعنا. إننا واقعون في مصيدة».

ثم واصل ترتيل مزمور حسرات مريرة عن بقية مجد مهدَّم حملته ريح الموت مفتتاً. بعد نحو ساعة من الهذيان، أيقظته جلبة في الممر، ومعدن صوت متغطرس. أطلق شخيراً مفاجئاً، وتكلم بصوته المتحوّل من دون أن يفتح عينيه: «أية لعنة تجري؟».

ما كان يجري هو أن الجنرال لورينثو كاركامو، المحارب القديم في حروب الانعتاق، ذا المزاج المتعجزف والشجاعة الفردية شبه الجنونية، كان يحاول الدخول عنوة إلى حجرة النوم. قبل الموعد المحدَّد للمقابلات. كان قد أزاح الكولونيل ويلسون من طريقه بعدما صفع بالسيف ملازماً من الحرس، ولم ينثن إلا لسلطة الكاهن غير الدنيوية، الذي قاده باللّين إلى المكتب المجاور. صرخ الجنرال ساخطاً حين أعلمه ويلسون بالأمر:

«قل لكاركامو إنني قد مُتّ! قل له هذا وحسب: إنني قد مُتّ!».

ذهب الكولونيل ويلسون إلى المكتب لمواجهة العسكري العنيف الذي كان يرتدي للمناسبة بدلة المراسم ومجموعة من الميداليات الحربية، لكن غطرسته كانت ممرَّغة بالأرض عندئذ، وكانت عيناه تفيضان بالدمع. قال:

«لا يا ويلسون، لا تنقل إليَّ الرسالة. لقد سمعتها».

عندما فتح الجنرال عينيه، لاحظ أن الساعة ما زالت تشير إلى الواحدة وسبع دقائق. فملأها خوسيه بالاثيوس وضبطها من ذاكرته، ثم تأكد من أنه وضعها على التوقيت الصحيح بأن نظر إلى ساعتيه ذاتَي السلسلتين. بعد وقت قصير دخلت فرناندا باريغا وحاولت أن تجعل الجنرال يأكل طبقاً من الألبورونيا[1]. تمنّع عن أكله بالرغم من أنه لم يكن قد أكل شيئاً منذ اليوم السابق، لكنه أمر بأن يوضع الطبق في المكتب ليأكل أثناء المقابلات. عندئذ استسلم لإغراء تناول إحدى ثمار الجوافة الكثيرة الموضوعة في جفنة مصنوعة من قرعة مفرغة. تشمم رائحتها برهة، ثم قضم منها لقمة شرهة، ومضغ اللب بتلذّذ طفوليّ، وتذوّقه في جميع أنحاء فمه ثم ابتلعه قليلاً قليلاً مرفقاً ذلك بتنهيدة طويلة من الذاكرة. جلس بعد ذلك على أرجوحة النوم ووضع الجفنة المترَعَة بثمار الجوافة بين ساقيه، وأكلها جميعها من دون أن يترك لنفسه متَّسَعاً للتنفس. ففاجأه خوسيه بالاثيوس من العتمة قائلاً:

«لن نسعى إلى الموت!».

وقلده الجنرال بمزاج رائق:

«ليس أكثر مما نحن ميّتون».

في الساعة الثالثة والنصف تماماً. مثلما هو مقرَّر، أمر بالبدء بإدخال الزائرين إلى المكتب، اثنين اثنين، كي يستطيع بذلك صرف أحدهما

---

(1) ألبورونيا (Alboronia): نوع من الطعام، يُعدّ بطبخ الباذنجان والبندورة والكوسا والفلفل الأخضر معاً.

بأقصى سرعة، بجعله يلحظ تعجّله في الاستماع إلى الآخر. كان الدكتور نيكاسيو دل بابيه أحد أوّل الداخلين عليه، فوجده جالساً وظهره إلى النافذة التي يدخل الضوء منها، والمشرفة على البلدة كلها وعلى ما وراءها من مستنقعات مدخنة. كان يحمل بيده طبق الألبورونيا الذي أعدته فرناندا باريغا، من دون أن يستطيع تذوّقه، لأنه بدأ يشعر بتخمة من الجوافة. وقد لخص الدكتور دل بابيه في ما بعد انطباعه عن تلك المقابلة بلهجة سوقية: «لقد غنّى الموت لهذا الرجل». وجميع من قابلوه كانوا متفقين على ذلك، كل على طريقته. ولكنهم كانوا مع ذلك عديمي الشفقة، بما في ذلك أشدهم تأثراً لخموده، فراحوا يصرّون على ذهابه معهم إلى القرى المجاورة كي يكون عرّاباً لأطفال سيُعمَّدون، أو لتدشين مشاريع مدنية، أو ليتأكد بنفسه من حالة الفقر التي يعيشون فيها بسبب إهمال الحكومة.

أصبح غثيان الجوافة ومغصها ينذر بالخطر بعد ساعة من الزمان، فكان عليه أن يوقف المقابلات، بالرغم من رغبته في إرضاء جميع من كانوا ينتظرون منذ الصباح. لم يبق في الفناء متسع لمزيد من العجول، والنعاج، والدجاج وجميع أصناف الحيوانات التي جلبوها كهدايا. وقد اضطر جنود الحراسة إلى التدخل للحيلولة دون حدوث شغب، لكن الأمور عادت إلى طبيعتها عند المساء بفضل وابل ثان من المطر جادت به العناية الإلهية، فأصلح الجوّ وفرض السكون.

وعلى الرغم من رفض الجنرال الصريح، فقد أقاموا في الساعة الرابعة مساء عشاء شرف في بيت مجاور. لكن العشاء أقيم من دون حضوره، لأن مزية طرد ريح البطن التي تتمتع بها الجوافة أبقته في حالة استنفار إلى ما بعد الساعة الحادية عشرة ليلاً. بقي في أرجوحة النوم، منهوكاً من النخسات المتلوية في بطنه ومن الفسوات المعطّرة برائحة الجوافة، شاعراً أن روحه تنسكب منه في ماء حكاك. حمل إليه الكاهن دواء أعدّه صيدلاني البيت، فرفضه الجنرال قائلاً:

«إذا كنت قد فقدت السلطة بسبب مُقيّء، فإن مقيئاً آخر سيجعلني أذهب إلى الموت».

ترك نفسه لقدرها. وكان يرتعش من عرق عظامه الجليدي، من دون أي عزاء آخر سوى صوت الموسيقى الوترية الجيّدة الذي كان يصله في دفقات شاردة من المأدبة المقامة من دون حضوره. بدأ ينبوع بطنه بالاستكانة شيئاً فشيئاً، إلى أن زال الألم، وانتهت الموسيقى، وبقي هو طافياً في الفراغ.

كاد مروره من مومبوكس في المرّة الماضية أن يكون الأخير. كان عائداً يومها من كاراكاس، بعدما توصل بسحر شخصيته إلى مصالحة مستعجلة مع الجنرال خوسيه أنطونيو بايث، الذي لم يكن ليفكر مع ذلك بالتخلي عن حلمه الانفصالي. كانت خصومته مع سانتَندير قد أصبحت في ذلك الحين معروفة بين الناس، وكان قد وصل إلى حد رفض تلقّي رسائله لأنه لم يعد يثق بقلبه ولا بأخلاقه، وقد كتب إليه «وفّر على نفسك عناء تسمية نفسك صديقي». السبب المباشر للعداوة كان تصريحاً متهوّراً توجه به الجنرال إلى الكاراكاسيين، وقال فيه من دون تروٍّ كاف إن جميع أعماله كانت في سبيل حرية كاراكاس ومجدها. وفي طريق عودته إلى غرناطة الجديدة، حاول إصلاح الأمر بجملة صحيحة موجَّهة إلى كارتاخينا ومومبوكس: «إذا كانت كاراكاس قد منحتني الحياة، فإنكما منحتماني المجد». لكن الجملة كانت تتضمّن شيئاً من مظاهر الترقيع الخطابي، ولم تكف لتسكين ديماغوجية السانتَنديريين.

كان الجنرال عائداً آنذاك إلى سانتافي، في محاولة لمنع وقوع الكارثة النهائية، ومعه فرقة من الجيش. وكان يأمل في أن يجمع فرقاً أخرى في الطريق ليبدأ مرّة ثانية جهود تحقيق التوحيد الاندماجي. وقد قال يومئذ إن تلك هي لحظة حاسمة، وهو ما قاله كذلك حين ذهب لمنع انفصال فنزويلا. لكنه أمعن في التفكير قليلاً ليتبين أن حياته لم تعرف منذ عشرين سنة لحظة غير حاسمة. «الكنيسة كلها، والجيش كله، والغالبية الساحقة

من الأمة إلى جانبي»، هذا ما سيكتبه في ما بعد، متذكراً تلك الأيام. ولكن بالرغم من جميع هذه المزايا، فقد ثبت له في مرّات عديدة أنه ما إن يبتعد عن الجنوب متوجهاً إلى الشمال، أو العكس، حتى تضيع البلاد التي خرج منها بعد أن يدير ظهره، وتدمّرها حروب أهلية جديدة. لقد كان ذلك هو قَدَرَه.

لم تكن الصحافة السانتَنديرية تضيّع أية فرصة لتعزو الهزائم العسكرية إلى تصرفاته الليلية الشائنة. ومن الأكاذيب الكثيرة المكرَّسة لتلطيخ أمجاده، نُشر في تلك الأيام في صحف سانتافي أن الجنرال سانتَندير، وليس هو، من قاد معركة بوياكا، التي ختم فيها الاستقلال في الساعة السادسة من صباح يوم 7 آب 1819، بينما كان هو يستمتع في تونخا مع سيدة مشبوهة من سيدات مجتمع الحكم الإسباني.

ولم تكن الصحافة السانتَنديرية على أية حال هي الوحيدة التي تنوّه بلياليه الماجنة للنيل من سمعته. فمنذ ما قبل الانتصار، كان يقال إن ثلاث معارك على الأقل قد خُسرت في حروب الاستقلال لمجرد أنه لم يكن في الموقع الذي عليه أن يكون فيه، وإنما في سرير امرأة. وفي مومبوكس ذاتها، خلال زيارة أخرى له، مرّت من الشارع المركزي قافلة نساء من مختلف الأعمار والألوان، خلفت الهواء مشبعاً برائحة عطورهن الفاضحة. وكن يمتطين الجياد على طريقة الأمازونيات، ويضعن قبّعات من أطلس مطبوع بأشكال مزركشة، ويرتدين ملابس من الحرير، في مشهد لم ترَ المدينة مثله أبداً. ولم يُكذّب أحد الاعتقاد الذي شاع، بأنهن محظيات الجنرال اللواتي يسبقنه في سفره. وقد كان اعتقاداً زائفاً، مثل اعتقادات أخرى كثيرة، لأن قصص حريمه في الحرب لم تكن سوى واحدة من خرافات الصالونات الكثيرة التي طاردته إلى ما بعد موته.

لم تكن تلك الأساليب في الإعلام الملتوي بالأمر الجديد، فقد استخدمها الجنرال نفسه خلال الحرب ضد إسبانيا، عندما أمر سانتَندير

بنشر أخبار ملفَّقة لخداع القادة العسكريين الإسبان. وحين لفت نظر سانتَنَدير نفسه، بعد قيام الجمهورية، إلى سوء استخدام الصحافة، ردّ عليه هذا بسخرية شائعة:

«لقد كان لنا معلّم جيد يا صاحب الفخامة». وردّ الجنرال:

«بل معلم سيئ، فأنت تذكر أن الأخبار التي كنا نختلقها كانت ترتد علينا».

كان شديد الحساسية حيال كل ما يقال عنه، سواء أكان زيفاً أم حقيقة، فلم يستكن أبداً لأية أكذوبة، وبقي يناضل حتى مماته لتفنيدها. لكن على الرغم من ذلك، لم يلتزم بالحذر. ومثلما فعل في مرّات أخرى، فقد قامر بأمجاده من أجل امرأة حين مرّ من مومبوكس في المرّة السابقة. كان اسمها خوسيفا ساغراريو. وكانت مومبوكسية أصيلة، شقت طريقها بين مراكز الحراسة السبعة، متخفية في مسوح راهبة فرانسيسكانية ومستخدمة كلمة السرّ التي كان خوسيه بالاثيوس قد أعطاها إياها «أرض الربّ». كانت شديدة البياض، حتى أن بريق جسدها كان يُرى في الظلام. وقد تمكنت في تلك الليلة من تجاوز أعجوبة جمالها بروعة زينتها، فقد كان على صدر ثوبها وظهره درعاً ذهبياً مشغولاً بخيالية الصياغة المحلية. حتى أن الجنرال حين أراد حملها بين ذراعيه إلى أرجوحة النوم، لم يستطع رفعها إلا بمشقة لثقل الذهب الذي عليها. عند الفجر، وبعد ليلة تجاوزا فيها الحدود المعقولة، أحسّت برعب انقضاء الوقت سريعاً، فتوسلت إليه أن تبقى ليلة أخرى.

كانت تلك مجازفة كبيرة، فحسب معلومات استخبارات الجنرال السرية، كان سانتَنَدير قد أعد مؤامرة لإقصائه عن السلطة والانفصال بكولومبيا. لكنها بقيت، ليس ليلة واحدة وحسب، بل عشر ليال، وكانت ليالي سعيدة جداً، حتى أنهما صدقا بأن كل منهما يحب الآخر كما لم يحب أحد في هذا العالم من قبل.

تركت له ذهبها قائلة: «هذا من أجل حروبك». لكنه لم يستخدمه لارتيابه بأنه ثروة مكتسَبة في السرير، وهي بالتالي ثروة غير مشروعة، فترك ذلك الذهب بعهدة أحد الأصدقاء، ثم نسيه في ما بعد. وفي أثناء زيارته الأخيرة إلى مومبوكس، بعد تخمة الجوافة، فتح الجنرال الصندوق ليجرد ما لديه من أموال، فورد إلى ذاكرته حينئذ ذلك الذهب مع اسمها وتاريخ اللقاء بها.

كان مشهداً عجيباً: فدرع خوسيفا ساغراريو الذهبي المشغول بكل حذق الصياغة كان يزن ثلاثين ليبرة. كما كان هناك صندوق يحتوي على ثلاث وعشرين شوكة وأربع وعشرين سكينة، وأربع وعشرين ملعقة، وثلاث وعشرين ملعقة صغيرة، وبعض الأدوات المنزلية الأخرى الثمينة التي تُركت أمانة هناك أيضاً في مناسبات مختلفة، وكانت منسية كذلك. ففي فوضى موارد الجنرال الخرافية، لم يكن العثور على تلك الكنوز في أماكن لا تخطر على بال يفاجئ أحداً. أعطى التعليمات بضم أدوات المائدة إلى أمتعته، وبإعادة صندوق الدرع الذهبي إلى صاحبته. لكن الكاهن، مدير معهد القديس بطرس الرسول، أذهله بنبأ نفي خوسيفا ساغراريو إلى إيطاليا لتآمرها على أمن الدولة.

قال الجنرال: «إنها أعمال سانتَندير طبعاً».

فقال الكاهن:

«لا أيها الجنرال. أنت الذي نفيتها من دون أن تنتبه خلال اضطرابات سنة ثمان وعشرين».

ترك الصندوق الذهبي حيث كان، واستوضح الأمر جيداً، ثم لم يعد يهتم بمسألة نفيها. فقد كان واثقاً، كما قال لخوسيه بالاثيوس بأن خوسيفا ساغراريو سترجع مع أعدائه المنفيين فور ابتعاده عن شواطئ كارتاخينا. وقال: «لا بدّ أن كاساندور يجهز الآن صناديق أمتعته».

وبالفعل، كان منفيون كثيرون قد شرعوا في العودة إلى الوطن مذ علموا أنه قد بدأ رحلته إلى أوروبا. أما الجنرال سانتَندير الذي كان رجلاً رصيناً في تروّيه وفي نواياه بعيدة الغور، فكان واحداً من آخر العائدين.

كان خبر الاستقالة قد وضعه في حالة تيقظ، لكنه لم يُبدِ ما يشير إلى أنه سيرجع، ولم يتعجّل في إنهاء رحلاته الدراسية النهمة التي باشرها في بلدان أوروبا منذ نزوله في هامبورغ، في شهر تشرين الأول من العام السابق. وفي الثاني من آذار 1831، حين كان في فلورنسا، قرأ في جريدة جورنال دي كوميرسي أن الجنرال قد مات، لكنه لم يبدأ مع ذلك عودته البطيئة إلا بعد مضي ستة شهور أخرى، عندما أعادت له الحكومة الجديدة اعتباره ورتبته العسكرية، وانتخبه الكونغرس غيابياً رئيساً للجمهورية.

قبل أن يبحر الجنرال مغادراً مومبوكس، قام بزيارة مصالحة للورينثو كاركامو، رفيق حروبه العجوز، ولم يعلم إلا حين ذاك بأنه يعاني مرضاً خطيراً، وأنه قد نهض في مساء اليوم السابق كي يصافحه فقط. وبالرغم من الإنهاك الذي يسببه له المرض، فإنه كان يجاهد للسيطرة على قدرات جسده، وكان يتكلم بصوت قوي راعد، فيما هو يمسح بالوسائد ينبوع الدموع الذي يسيل من عينيه، من دون أن يكون لذلك أية علاقة بحالته المعنوية.

ندبا أمراضهما معاً، وتحسَّرا لتفاهة الشعوب وجحود الانتصارات، وثارت حفيظتيهما على سانتَندير الذي كان موضوعاً إجبارياً لأحاديثهما على الدوام. وقلما كان الجنرال واضحاً في كلامه مثلما كان يومئذ. خلال حملة 1813، كان لورينثو كاركامو شاهداً على مشاحنة صاخبة بين الجنرال وسانتَندير، حين رفض هذا الأخير الامتثال لأمر الجنرال باجتياز الحدود وتحرير فنزويلا للمرة الثانية. وما زال الجنرال كاركامو يفكر بأن ذلك الحادث هو أصل الضغينة الخفية التي لم تقم مجريات التاريخ إلا بمفاقمتها.

أما الجنرال، فلم يكن يرى في ذلك الحادث نهاية صداقة عظيمة، بل بدايتها. ولم يكن صحيحاً كذلك أن سبب الشقاق الأصلي بينهما هو الامتيازات الممنوحة إلى الجنرال بايث، ولا دستور بوليفيا التعيس، ولا حفل التنصيب الإمبراطوري الذي ارتضاه الجنرال في البيرو، ولا الرئاسة وعضوية الكونغرس مدى الحياة التي حلم بالحصول عليها من أجل كولومبيا، ولا السلطات المطلقة التي تسلمها بعد مؤتمر أوكانيا. لا: لم تكن هذه الأسباب ولا غيرها هي سبب الضغينة الرهيبة التي كانت تستفحل مع مرور السنوات، إلى أن بلغت أوجها بمحاولة الاغتيال في الخامس والعشرين من أيلول. قال الجنرال:

«السبب الحقيقي هو أن سانتَندير لم يستطع أن يتمثل أبداً فكرة جعل هذه القارة كلها بلداً واحداً، لقد كانت وحدة أميركا كبيرة على قياسه».

نظر إلى لورينثو كاركامو المتمدد في السرير وكأنه في ميدان المعركة الأخيرة من حرب خاسرة منذ الأزل، وأنهى الزيارة قائلاً:

«وطبعاً لن ينفع أي شيء من هذا كله بعد موت الميّت».

رآه لورينثو كاركامو ينهض حزيناً ومن دون أبّهة، وانتبه إلى أن الذكريات تثقل عليه أكثر من السنين، مثله تماماً. وحين أمسك بيده بين يديه، لاحظ أن كليهما يعاني الحمّى كذلك. وتساءل: موت أي منهما هو الذي سيحول دون أن يلتقيا ثانية.

قال لورينثو كاركامو: «لقد ضاع العالم أيها العجوز سيمون».

فقال الجنرال:

«لقد ضيّعوه منّا. الشيء الوحيد الذي تبقّى لنا هو البدء مرّة أخرى من البداية».

«وهذا ما سنفعله». قال لورينثو كاركامو.

قال الجنرال:

«أنا لا. ما ينقصني الآن هو أن يرموا بي إلى صندوق قمامة».

قدّم له لورينثو كاركامو تذكاراً، مسدَّسَيْن في علبة بديعة من أطلس قرمزي. كان يعرف أن الجنرال لا يميل إلى استخدام الأسلحة النارية، وأنه كان يلجأ إلى السيف في مبارزاته الشخصية القليلة. ولكن كانت للمسدسين قيمة أخلاقية كبيرة لأنهما حظيا بالاستخدام في مبارزة كان الحب هو الدافع إليها، وقد تقبّلهما الجنرال متأثراً. بعد أيام قليلة من ذلك وبينما هو في توورباكو، سيصله نبأ موت الجنرال كاركامو.

تجددت الرحلة مساء يوم الأحد الحادي والعشرين من أيّار بنُذُرٍ طيبة، تدفعهم المياه المؤاتية أكثر مما يفعل ذلك المجذّفون، وكانت السفن تتقدم مخلفة وراءها جروف الأردواز وسراب الشطآن. وكانت أطواف الجذوع التي يلتقون بها بأعداد أكبر تبدو أكثر سرعة، على عكس تلك التي رأوها في الأيام الأولى. وكانت تقوم فوق هذه الأطراف عشش للنوم، على نوافذها أزهار وملابس منشورة، وتحمل فوقها أقنان دجاج من الشبك، وأبقاراً حلوبة، وأطفالاً مقعَدين يواصلون التلويح للسفن إلى ما بعد مرورها بوقت طويل. سافروا طوال الليل في ماء نجوم راكد. وعند الفجر لمحوا بلدة ثمبرانو المتلألئة تحت أشعة الشمس الأولى.

وتحت شجرة الثيبا الضخمة في الميناء، كان ينتظرهم دون كاستولو كامبيللو، المعروف باسم النيني. وكان قد أعدَّ في بيته سانكوتشو[1] ساحلياً على شرف الجنرال. لقد استوحى تلك الدعوة من أسطورة تقول إن الجنرال قد تناول في زيارته الأولى لبلدة ثمبرانو وجبة غداء في مطعم صغير على صخرة المرفأ، وقال يوم ذاك لا بدّ له من أن يرجع مرّة كل سنة، ولو كان ذلك من أجل أكل السانكوتشو الساحلي اللذيذ.

---

(1) سانكوتشو: نوع من الطعام التقليدي المؤلف من قطع لحم مبهّرة ومطبوخة طبخاً خفيفاً.

لقد بُهرَت صاحبة ذلك المطعم بالزبون، فأرسلت تطلب استعارة بعض الأطباق وأدوات المائدة من بيت آل كامبيللو المتميز. لم يكن الجنرال يتذكر تفاصيل كثيرة من تلك الزيارة، ولم يكن هو، ولا خوسيه بالاثيوس، متأكدين مما إذا كان السانكوتشو الساحلي هو مغلي قطع اللحم الكبيرة الفنزويلي نفسه. أما الجنرال كارينيو فكان يعتقد أنه الشيء ذاته، وأنهم قد أكلوه فعلاً على صخرة المرفأ، ولكن ليس خلال حملة النهر، وإنما حين مرّوا من هناك في المركب البخاري قبل ثلاث سنوات. والجنرال، الذي كان قلقه من تسرّب ذاكرته يتزايد، وافق على تلك الشهادة بمذلّة.

كان غداء الجنود تحت أشجار اللوز الضخمة في فناء بيت آل كامبيللو الإقطاعي، وقد قُدم لهم على دفوف خشبية مغطاة بأوراق الموز بدلاً من الشراشف. وعلى الشرفة الداخلية، كانت توجد طاولة رائعة، مشرفة على الفناء، مخصصة للجنرال وضباطه وعدد قليل من المدعوين. وكانت الطاولة مجهزة بدقة صارمة على الطريقة الإنكليزية. أوضحت سيدة البيت أن الخبر القادم من مومبوكس قد فاجأهم في الرابعة فجراً، وبالكاد أتيح لهم الوقت لذبح أفضل رأس من الأغنام التي يربّونها في مرابعهم. كان الحيوان موضوعاً هناك، مقطعاً شرائح لذيذة مسلوقة على نار زاهية، في ماء وافر، ومخلوطة بكل أصناف ثمار البستان.

انقلب مزاج الجنرال حين علم بأنهم قد أعدوا له التكريم من دون إشعار مسبق، وكان على خوسيه بالاثيوس أن يستغين بأفضل ما لديه من فنون المصالحة لإقناعه بالنزول من السفينة. ثم أصلح جو الحفلة الحميم من مزاجه. امتدح بحق ذوق أهل البيت، ورقّة فتيات الأسرة، الخجولات والخدومات، اللواتي أوْلَين اهتماماً لطاولة الشرف برشاقة تضاهي أساليب الضيافة القديمة. وأطرى بصورة خاصة نقاء أدوات الطعام ودمغة أدوات المائدة المصنوعة من فضة فاخرة، وتحمل شعار بيت خرَّبته فاجعة الأزمنة الجديدة، لكنه رغم ذلك، استخدم أدوات طعامه الخاصة.

النفور الوحيد سببه له فرنسي يعيش في كنف آل كامبيللو، وقد حضر الغداء بلهفة لا ترتوي لإظهار معارفه الكونية حول لغز هذه الحياة والحياة الأخرى أمام مثل أولئك الضيوف البارزين. كان قد فقد كل شيء في حادث غرق سفينة. وكان يحتل نصف البيت منذ نحو سنة مع بطانته ومعاونيه وخدمه، بانتظار مساعدة غير مؤكدة ستأتيه من نيوأورليانز. وقد عرف خوسيه بالاثيوس أن اسمه ديوكليس أتلانتيك، لكنه لم يتوصل إلى معرفة اختصاصه العلمي ولا نوع المهمة التي يقوم بها في غرناطة الجديدة. ولو أنه كان عارياً، ويحمل في يده رمحاً ذا ثلاث شوكات لبدا شبيهاً بالملك نبتون. كان مشهوراً في القرية بجلافته وإهماله لمظهره، لكن الغداء مع الجنرال استثاره لدرجة أنه جاء إلى المأدبة بعدما استحم ونظف أظفاره. وقد ارتدى في احتدام حر أيّار، ملابس صالونات باريس الشتوية، بما في ذلك السترة الزرقاء ذات الأزرار المذهبة والبنطال المخطط من الطراز القديم الذي شاع في عهد حكومة المديرين.

أظهر منذ اللحظة الأولى أنه أستاذ موسوعي، بلغة قشتالية نظيفة. روى أن أحد تلاميذه في مدرسة غرينوبل الابتدائية قد توصل في ما بعد إلى حل رموز الكتابة الهيروغليفية المصرية بعد أربعة عشر عاماً من الأرق. وأن منشأ الذرة ليس المكسيك، وإنما منطقة في بلاد ما بين النهرين، حيث وجدت بقايا متحجرة من حبوب الذرة ترجع إلى ما قبل وصول كولومبس إلى جزر الأنتيل. وأن الأشوريين قد توصلوا إلى أدلة تجريبية حول تأثير الكواكب في الأمراض. وأن الإغريق خلافاً لما تقوله موسوعة معاصرة، لم يعرفوا القطط حتى سنة 400 قبل الميلاد. وفيما هو يتباهى من دون استراحة بهذه المسائل وغيرها كثير، كان يتوقف وقفات عابرة ليبدي أسفه لنقائص المطبخ المحلي الثقافية.

لم يكن الجنرال الجالس قبالته يوليه إلّا بعض الاهتمام الذي تقتضيه اللياقة، متظاهراً بأنه يأكل أكثر مما كان يأكل في الواقع، ومن دون أن يرفع

بصره عن طبقه. حاول الفرنسي التحدث إليه بلغته منذ البداية، فردّ عليه الجنرال بها مجاملة، لكنه كان يعود فوراً إلى الحديث بالقشتالية. وقد فاجأ صبره في ذلك اليوم خوسيه لاوينثيو سيلفا، الذي كان يعرف مدى سخطه من استبداد الأوروبيين.

كان الفرنسي يتوجه بصوت عال إلى جميع المدعوين، بما في ذلك أكثرهم بعداً عنه، إنما كان واضحاً أن ما يهمه هو جذب اهتمام الجنرال فقط. وفجأة، قفز من الديك إلى الحمار - على حد قوله - وسأله مباشرة عن نظام الحكم الذي سيكون مناسباً في نهاية المطاف للجمهوريات الجديدة. فسأله الجنرال بدوره، من دون أن يرفع بصره عن الطبق:

«وما هو رأيك أنت؟».

قال الفرنسي:

«أرى أن نموذج بونابرت مناسب ليس لنا فقط، وإنما للعالم بأسره».

فقال الجنرال من دون أن يخفي سخريته:

«لا أشك في قناعتك بهذا الكلام. فالأوروبيون يفكّرون بأن ما تبتدعه أوروبا هو وحده المناسب للدنيا بأسرها، وكل ما عدا ذلك ممقوت».

قال الفرنسي:

«كنت أحسب أن فخامتك هو المشجع للحل الملكي».

رفع الجنرال بصره للمرة الأولى، وقال:

«لا تحسب ذلك إذن. فجبهتي لن تُدنَّس أبداً بتاج» ثم أشار بإصبعه إلى مرافقيه الضباط، وأضاف:

«أنا أحتفظ بإيتوربيدي هنا ليذكرني بذلك».

فقال الفرنسي:

«بالمناسبة، التصريح الذي أدليت به حين أعدموا الإمبراطور، أعطى نَفَساً عميقاً للملكيين الأوروبيين».

قال الجنرال:

«ولست أبدل حرفاً واحداً مما قلته في ذلك الحين. إنني أقدّر إقدام رجل عادي مثل إيتوربيدي على إنجاز أعمال بتلك العظمة، لكنني أرجو من الله أن يخلصني من مصير كمصيره، مثلما خلصني من السير في طريق كطريقه، على الرغم من يقيني بأنه لن يخلصني أبداً من مثل الجحود الذي لقيه».

حاول التخفيف من قسوته، وأوضح أن اقتراح فرض نظام ملكي على الجمهورية الجديدة إنما جاء من الجنرال خوسيه أنطونيو بايث. ثم تطورت الفكرة، مدفوعة بجميع أشكال المصالح الخاطئة، وقد وصل الأمر به هو نفسه إلى التفكير بها مغلفة بغطاء الرئاسة مدى الحياة كصيغة يائسة للتوصل بأي ثمن إلى وحدة أميركا والحفاظ عليها. لكنه ما لبث أن أدرك مناقضة الفكرة للمنطق. وانتهى إلى القول:

«أما النظام الاتحادي فهو على العكس من ذلك تماماً. إنني أراه شديد الكمال لبلداننا، لأنه يتطلب مزايا ومواهب متوفرة لدينا».

قال الفرنسي:

«ليست الأنظمة بحد ذاتها، على أي حال، هي التي تجرّد التاريخ من إنسانيته، وإنما تطرّفها».

قال الجنرال:

«نحن نعرف هذا الخطاب عن ظهر قلب. وهو في عمقه ليس إلا هراء بنيامين كونستان، أعظم حلواني أوروبي. كان مع الثورة ثم انقلب عليها، ناضل ضد نابليون ثم صار واحداً من أفراد بطانته، كان ينام في معظم الأحيان جمهورياً ثم يستيقظ ملكياً، أو العكس، وقد تحوّل الآن إلى حارس مطلق على حقيقتنا بقدرة القوّة الأوروبية العظمى وفضلها».

قال الفرنسي:

«حجج كونستان ضد الاستبداد واضحة تماماً».

فقال الجنرال:

«السيّد كونستان، مثل أي فرنسي صالح، متعصب للمصالح المطلقة. أما الأباتي برادت، فقد قال الشيء الوحيد الواضح في تلك المناظرة، حين أشار إلى أن مضمون السياسة يعتمد على مكان حدوثها وزمانه. لقد أصدرت أنا نفسي خلال الحرب الضارية، أمراً بإعدام ثمانمئة أسير إسباني في يوم واحد، بما في ذلك المرضى الذين كانوا في مستشفى لاغوايرا. واليوم، إذا ما كانت الظروف مماثلة، فلن يرتعش صوتي لدى إعادة إصدار الأمر من جديد، وليس للأوروبيين الحق الأخلاقي في تأنيبي على ذلك، لأنه إذا كان هناك تاريخ مغرق في الدم وفي الفظائع والظلم، فهو التاريخ الأوروبي».

وكلما كان يتعمّق في التحليل، كان يؤجج غضبه بنفسه، وسط الصمت العظيم الذي بدا وكأنه يخيّم على القرية بأسرها. حاول الفرنسي المتضايق أن يقاطعه، لكنه جمّده بإيماءة من يده. واستذكر الجنرال المذابح المروّعة في التاريخ الأوروبي. ففي ليلة سان بارتولومي تجاوز عدد القتلى ألفَي ضحية خلال عشر ساعات. وفي أوج عصر النهضة قام اثنا عشر ألف مرتزق، مأجورين للجيوش الإمبراطورية، بنهب روما وتخريبها، وذبح ثمانية آلاف من سكانها. وفي الذروة يأتي إيفان الرابع، قيصر البلاد الروسية، والمسمى عدلاً بالرهيب، الذي أفنى جميع سكان المدن الواقعة ما بين موسكو ونوفغورود، وذبح في هجوم واحد على هذه المدينة الأخيرة سكانها البالغين عشرين ألفاً، لمجرد ارتيابه بوجود مؤامرة ضده. وخلص إلى القول:

«لا نريد منكم مزيداً من الإحسان بقولكم لنا ما علينا عمله. لا تحاولوا أن تعلّمونا كيف يجب أن نكون، لا تسعوا إلى جعلنا مثلكم ولا تنتظروا منا

أن نحقق خلال عشرين سنة، بشكل جيد، ما حققتموه بشكل سيئ خلال ألفَي سنة».

قاطع الشوكة والسكين فوق الطبق، وحدّق لأوّل مرّة إلى الفرنسي بعينيه المتقدتين:

«اللعنة! نرجوكم دعونا نعيش عصرنا الوسيط بهدوء!».

تقطّعت أنفاسه، وباغتته نوبة سعال حادة. لكنه حين سيطر عليها، لم يكن قد تبقى لديه أدنى قدر من الغضب. فالتفت إلى النيني كامبيللو، وخصّه بأفضل ابتسامة قائلاً له:

«المعذرة أيها الصديق العزيز. لم يكن مثل ذلك الكلام الثقيل مناسباً لمثل هذا الغداء التاريخي».

وقد أشار الكولونيل ويلسون إلى ذلك الحديث لأحد مؤرّخي الحقبة، لكنه لم يتكلف مشقة الإتيان على ذكره، وقال: «الجنرال المسكين صار حالة منتهية»، والحقيقة أن ذلك اليقين كان يطغى على جميع من رأوه في رحلته الأخيرة. حتى أن بعض مرافقيه كانوا مقتنعين بأن الجنرال لن يدخل التاريخ.

صارت الغابة أقل كثافة بعد بلدة ثمبرانو، والقرى أكثر بهجة وتلوّناً. وكانوا يعزفون الموسيقى في شوارع بعض تلك القرى من دون سبب. استلقى الجنرال في أرجوحة النوم محاولاً أن يهضم سفاهة الفرنسي في قيلولة مسالمة، لكن ذلك لم يكن بالأمر الهيّن. بقي يفكر به، متحسّراً مع خوسيه بالاثيوس لأنه لم يجد في الوقت المناسب العبارات الصائبة والحجج الدامغة التي بدأت ترد إلى ذهنه وهو في عزلة أرجوحة النوم، بعدما أصبح الخصم بعيداً عنه. ومع ذلك، فقد تحسنت حالته عند الغروب، وأصدر التعليمات إلى الجنرال كارينيو كي تسعى الحكومة إلى تحسين مصير الفرنسي المنكوب.

مع الاقتراب من البحر الذي كان وجوده يصبح أكثر يقيناً في هول تلك الطبيعة، أطلق معظم الضباط العنان لطيب نياتهم الطبيعي. فأخذوا يساعدون المجذّفين، ويتصيّدون التماسيح بالحراب، ويعقّدون أشد الأمور بساطة كي يتخلصوا من فائض طاقتهم بأعمال شاقة. أما خوسيه لاورينثيو سيلفا، فكان ينام في النهار ويشتغل في الليل كلما أتيح له ذلك، لخوفه القديم من فقدان البصر بسبب الماء الأزرق، مثلما حدث لعدد من أفراد أسرة أمه. كان يستيقظ في العتمة ليتدرّب على أن يكون ضريراً ذا فائدة. وكثيراً ما كان الجنرال يسمعه في أرق المعسكرات وهو منهمك في أعماله الحرفية، ينشر ألواحاً من الأشجار التي يكشطها هو نفسه، ويُركّب الأجزاء الخشبية، كاتماً صوت المطرقة كي لا يزعج أحلام الآخرين. وفي اليوم التالي، على ضوء الشمس، كان من الصعب التصديق أن أعمال النجارة الفنية تلك قد صُنعت في الظلام. وفي الليلة التي أمضوها في بورتو ريال، تمكن خوسيه لاوروينثيو سيلفا من النطق بكلمة السرّ في اللحظة الأخيرة، حين كاد أحد الحرّاس يطلق عليه النار، معتقداً أن هناك من يتسلل في العتمة إلى أرجوحة نوم الجنرال.

صار الإبحار أكثر سرعة وهدوءاً، والحادث الخطير الوحيد سببته سفينة بخارية من سفن الربان إلبيرس مرّت وهي تمخر في الاتجاه المعاكس لاتجاههم، فعرّض مخورها في الماء سفن التشامبان للخطر، وقلبت تشامبان المؤونة. كان اسمها مكتوباً على إفريزها بحروف كبيرة: **المُحَرِّر**.

نظر الجنرال إليها ساهماً، وبقي ينظر إلى أن انزاح الخطر وصارت السفينة خارج مدى البصر. فدمدم: «المُحَرِّر» ثم قال بعد ذلك، مثل مَن ينتقل إلى الصفحة التالية: «أظن أن هذا هو أنا».

بقي في الليل مستيقظاً في أرجوحة النوم، فيما كان المجذّفون يلعبون لعبة تمييز أصوات الغابة: صوت القرود الكبوشية، والببغاوات، وثعابين الأناكوندة. وفجأة، ومن دون مناسبة، روى أحدهم أن آل كامبيللو قد دفنوا

في الفناء أطباق الطعام الإنكليزية، والكريستال البوهيمي، والشراشف الهولندية خوفاً من أن تنتقل إليهم عدوى السل.

كانت تلك هي المرّة الأولى التي يسمع فيها الجنرال بذلك التشخيص الشارعي لحالته، بالرغم من أنه كان شائعاً على امتداد النهر، وسيصبح معروفاً كذلك بعد بعض الوقت في المنطقة الساحلية كلها. لاحظ خوسيه بالاثيوس أنه قد تأثر، لأنه توقف عن هزّ الأرجوحة. وبعد تأمل طويل قال: «لقد أكلت مستخدماً أدوات طعامي الخاصة».

في اليوم التالي، توقفوا في ميناء تينيريفي ليعوّضوا التموين المفقود في حادث غرق التشامبان. بقي الجنرال في السفينة، لكنه أرسل ويلسون للتحرّي عن تاجر فرنسي كنيته لينويت أولينوير، لا بدّ أن تكون ابنته آنيتا قد بلغت نحو العشرين من العمر، ولأن البحث في تينيريفي لم يوصل إلى شيء، فقد رغب الجنرال في استنفاد التقصي في قرى غوايتارو وسالامينا وإلبينيون المجاورة، إلى أن اقتنع بأنه لا وجود لأي أساس واقعي للأسطورة.

لقد كان اهتمامه بذلك مفهوماً، لأنهم لاحقوه منذ سنوات، من كاراكاس إلى ليما، بإشاعات كاذبة عن علاقة خاطئة ومحرّمة وقعت بينه وبين آنيتا عند مروه من تينيريفي خلال حملة النهر. لقد أرّقه ذلك، بالرغم من أنه كان عاجزاً عن عمل أي شيء لتكذيب الأمر، أولاً، لأن الكولونيل خوان فيثنته بوليفار، والده، كان قد تعرّض للتحقيق أمام أسقف قرية سان ماثيو، بسبب اغتصابات مزعومة لكبيرات وقاصرات، ولعلاقاته الخبيثة مع نساء كثيرات، وذلك حين كان في الجيش الحريص على حق وضع القدم[1]. وثانياً لأنه لم يبق في تينيريفي خلال حملة النهر سوى يومين اثنين، وهما

---

(1) حق وضع القدم: طقس كان متبعاً في بعض الإقطاعيات، يقوم بموجبه السيّد الإقطاعي، أو من ينوب عنه بوضع قدمه فوق فراش من يعيشون في إقطاعيته يوم زفافهم. وكان القادة العسكريون يمارسون هذه الطقوس في مناطق نفوذهم أحياناً.

غير كافيين لحب شرس مثل الذي يتحدثون عنه. لكن الأسطورة راجت مع ذلك وبلغت حدّ القول بوجود قبر في مقبرة تينيريفي تحمل لوحته اسم الآنسة آنا لينويت، وقد كان القبر مزاراً للعاشقين حتى أواخر القرن.

كانت المضايقات التي يحس بها خوسيه ماريا كارينيو في ذراعه المبتورة سبباً للسخريات الودّية بين مرافقي الجنرال. فقد كان كارينيو يحس بحركة اليد، وملامس الأصابع، والألم الذي يسببه الجو الرديء لعظام يده غير الموجودة، وكان هو نفسه لا يزال يحتفظ بميل إلى السخرية يكفي لجعله يضحك من نفسه. لكنه كان يقلق بالمقابل لعادته في الردّ على الأسئلة التي توجّه إليه وهو نائم، فهو يقيم حوارات من كل نوع من دون أي رادع يمنعه من ذلك، فيكشف عن نوايا وإحباطات كان سيحتفظ بها سراً وهو مستيقظ بلا ريب. وفي إحدى المناسبات اتُهم من دون أساس باقتراف خيانة عسكرية وهو نائم. أما في الليلة الأخيرة من إبحارهم، وبينما كان خوسيه بالاثيوس ساهراً إلى جوار أرجوحة نوم الجنرال، سمع كارينيو يقول من مقدمة السفينة:

«سبعة آلاف وثمانمئة واثنتان وثمانون».

سأله خوسيه بالاثيوس: «عم تتحدث؟».

«عن النجوم» - قال كارينيو.

فتح الجنرال عينيه، موقناً بأن كارينيو يتكلم وهو نائم وجلس في أرجوحة النوم ليرى الليل من خلال النافذة، كانت ليلة فسيحة ومشعّة، لم تترك نجومها النقية من فراغ في السماء.

قال الجنرال:

«لا بدّ أن عددها أكثر مما تقوله بنحو عشر مرّات».

قال كارينيو:

«إنها مثلما قلت، إضافة إلى نجمتين شاردتين مرّتا بينما كنت أعدّها».

حينئذ غادر الجنرال أرجوحة نومه، ورآه مستلقياً على ظهره في مقدمة السفينة، مستيقظاً أكثر مما كان في أي وقت آخر، وكاشفاً عن صدره الذي تتقاطع عليه آثار جراح متشابكة، وهو يحصي النجوم بالجزء المتبقي من ذراعه المبتورة. لقد وجده في مثل ذلك الوضع بعد معركة ثيريتوس بلانكوس، في فنزويلا، مضرَّجاً بالدم وشبه ممزّق، وقد تركوه يومها ملقى في الوحل لاعتقادهم أنه ميت، كان في جسده أربعة عشر جرحاً أحدثتها السيوف، وتسبب عدد منها في فقدانه ذراعه، وقد أصيب فيما بعد بجراح أخرى في معارك مختلفة. لكن معنوياته بقيت كاملة، وتعلّم أن يكون ماهراً في استخدام يده اليسرى، بحيث إنها لم تشتهر بشراستها في استخدام الأسلحة وحسب، بل بجمال الخط في الكتابة أيضاً.

قال كارينيو:

«حتى النجوم لا تفلت من نفاد الحياة. فعددها الآن أقل مما كانت عليه قبل ثمانية عشر عاماً».

«أنت مجنون» – قال الجنرال.

«لا. إنني عجوز، لكنني أرفض أن أصدّق ذلك» – قال كارينيو.

ردّ الجنرال: «أكبرك بثمانية أعوام».

فقال كارينيو:

«أنا أحسب سنتين إضافيتين عن كل جرح من جراحي. بهذا أكون أكبر الجميع سناً».

قال الجنرال:

«في مثل هذه الحالة يكون خوسيه لاورينثيو هو الأكبر سناً. ففي جسده ستة جراح بالرصاص، وسبعة بالحراب، وجرحَيْن بالسهام».

عكس كارينيو الأمر، ورد بسمٍّ خفيّ:

«وتكون حضرتك أصغرنا سناً: فأنت لم تصَب بخدش واحد».

لم تكن المرّة الأولى التي يسمع فيها الجنرال هذه الحقيقة على شكل تأنيب، ولكن بدا عليه أنه لم يستطع الصمود لسماعها بصوت كارينيو الذي اجتازت صداقته أقسى التجارب. جلس إلى جانبه لمساعدته في عدّ النجوم التي في النهر. وعندما عاد كارينيو إلى الكلام، بعد صمت طويل، كان قد أصبح في هوّة النوم.

قال: «إنني أرفض التسليم بأن الحياة ستنتهي مع هذه الرحلة».

قال الجنرال:

«الحيوات لا تنتهي بالموت وحده. هناك أشكال عديدة، وبعضها أكثر من الموت وقاراً».

كان كارينيو يصر على رفض ذلك، وقال:

«لا بدّ من عمل شيء. حتى ولو اقتضى الأمر أن نستحم في حمّام من أزهار كارياكيتو البنفسجية، ليس نحن وحدنا: وإنما الجيش المُحَرِّر كله».

لم يكن الجنرال، خلال رحلته الثانية إلى باريس، قد سمع بعد بحمّامات الكارياكيتو البنفسجية، وهي زهرة الليتانا المشهورة في بلاده لدرء سوء الطالع. وكان الدكتور إيمه بونبلان، أحد معاوني هومبولدت، هو الذي حدّثه بجدّية علمية عن تلك الأزهار الفاضلة. وفي تلك الفترة ذاتها، تعرّف بقاضي محكمة العدل الفرنسية المبجّل، الذي عاش في شبابه في كاراكاس، وكان كثير التردد على صالونات باريس الأدبية بشعره الطويل البديع ولحيته الرسولية المصبوغة باللون البنفسجي بفعل حمّامات التطهير.

كان الجنرال يسخر من أي شيء تنبعث منه رائحة الخرافة أو القدرات الخارقة للطبيعة، أو من أي معتقد آخر مناقض لعقلانية معلمه سيمون رودريغيث. كان قد أكمل العشرين من عمره في ذلك الحين. وكان أرملاً حديث الترمّل وثرياً، وقد انبهر بتتويج نابليون بونابرت، وصار ماسونياً،

واعتاد أن يردد من الذاكرة وبصوت عال صفحاته المفضلة من كتابَي «إميليو» و«إيلويز الجديدة» لروسو، وكانا الكتابين اللذين وضعهما إلى جوار سريره لوقت طويل، وقد سافر سيراً على الأقدام، ممسكاً بيد معلمه وحاملاً جعبته على ظهره، عبر أوروبا كلها تقريباً. وفوق إحدى التلال، وفيما كانت روما تحته، أطلق أمامه دون سيمون رودريغيث إحدى نبوءاته الرنّانة حول مصير البلدان الأميركية. وقد رأى هو الأمر بوضوح أشدّ حين قال له:

«ما يجب عمله بهؤلاء الإسبان ذوي الهراوات هو طردهم من فنزويلا ركلاً، وأقسم لك أنني سأفعل ذلك».

عندما صار قادراً على التصرّف بميراثه بعد بلوغه سن الرشد، بدأ يعيش نمط الحياة الذي كان يتطلبه جنون العصر واندفاع طبعه، فأنفق خمسين ألف فرنك في ثلاثة شهور. كان يسكن أغلى الغرف في أغلى فندق في باريس. وكان لديه خادمان يرتديان زيّاً خاصاً، وعربة تجرّها جياد بيضاء ويقودها حوذي تركي، وعشيقة مختلفة لكل مناسبة، سواء على طاولته المفضَّلة في مقهى بروكوب، أو في حفلات مونتمارتر الراقصة أو في شرفته الخاصة في مسرح الأوبرا. وكان يروي لكل من يصدقه أنه خسر ثلاثة آلاف بيزو في ليلة نحس على الروليت.

وبعد عودته إلى كاراكاس، بقي قريباً إلى روسو أكثر من قربه من قلبه ذاته، وواصل قراءة **إيلويز الجديدة** بعاطفة خجولة، من نسخة كانت تتفتت بين يديه. ومع ذلك، وقبل محاولة اغتياله في الخامس والعشرين من أيلول، حين كان قد وفى بعهده الذي قطعه على نفسه في روما، قاطع مانويلا ساينث التي كانت تعيد قراءة **إميليو** للمرّة العاشرة، لأنه رأى فيه كتاباً بغيضاً، وقد قال لها يومئذ: «لم أشعر في أي مكان بالضجر مثلما شعرت به في باريس سنة أربع». أما عندما كان هناك، فلم يكن يظن بأنه سعيد وحسب، بل وإنه أسعد إنسان على وجه الأرض. كل ذلك من دون أن يكون قد صبغ قدَرَه بمياه الكارياكيتو البنفسجية التفاؤلية.

بعد أربع وعشرين سنة من ذلك، وفيما هو ساهم في سحر النهر، محتضراً ومهزوماً، ربما تساءل إن كانت تنقصه الشجاعة ليلقي إلى الجحيم بأوراق الزعتر والمريمية، والبرتقال المر الذي يضعه خوسيه بالاثيوس في حمّامات شرود الفكر، واتّباع نصيحة كارينيو بالغطس مع جيوشه المتسوّله، وأمجاده غير المجدية، وأخطائه التاريخية، والوطن بأسره إلى أعماق محيط مخلِّص من الكارياكيتو البنفسجي.

كانت ليلة فسيحة الصمت، مثلما في مصَبّات لوس يانوس الهائلة التي تسمح أصداؤها بسماع المحادثات الحميمة عن بعد عدة فراسخ. لقد عاش كريستوف كولومبس مثل تلك اللحظات، وكتب في مذكراته: «لقد أحسست بمرور الطيور طوال الليل»، لأن الأرض كانت قريبة منه، بعد تسعة وتسعين يوماً من الإبحار. وقد أحسّ الجنرال بذلك أيضاً. فالطيور بدأت بالمرور منذ الساعة الثامنة، حين كان كارينيو نائماً، وبعد ساعة من الوقت تزايدت أعدادها فوق رأسه، إلى أن صارت ريح أجنحتها أقوى من الرياح. بعد قليل من ذلك بدأت تمر تحت السفن أسماك ضخمة تائهة بين نجوم القاع. ووصلت رائحة أوّل نفحات العفونة الآتية من الشمال الشرقي. لم تكن هناك حاجة للرؤية كي يتعرّف بتلك القوّة العاتية الحتمية التي تبث في القلوب إحساساً غريباً بالحرية. تنهد الجنرال قائلاً: «يا رب الفقراء! إننا نقترب من الوصول». وكان الأمر كذلك حقاً. فقد كان البحر هناك، وفي الجانب الآخر من البحر كانت الدنيا.

وهكذا وصل إلى تورباكو ثانية. وحلّ في البيت نفسه ذي الحجرات الظليلة والأقواس الضخمة والنوافذ الكبيرة المطلة على ساحة مفروشة بالحصى، والفناء الديري حيث كان قد رأى شبح دون أنطونيو كابابيرو إي غونغورا، أسقف غرناطة الجديدة وحاكمها الإسباني، الذي كان يتمشى بين أشجار البرتقال في الليالي المقمرة، ليستريح من خطاياه الكثيرة ومن ديونه التي لا حلَّ لها. وخلافاً لمناخ المنطقة الساحلية العام، الملتهب والرطب، كان مناخ تورباكو بارداً وصحياً، نظراً لموقعها فوق سطح البحر. وعلى ضفاف السواقي، كان الجنود يستلقون ليناموا قيلولتهم تحت أشجار الغار العملاقة ذات الجذور الأخطبوطية.

قبل يومين من ذلك كانوا قد وصلوا إلى بارانكا نويفا، حيث انتهت الرحلة النهرية التي كانوا يتشوّقون إلى انتهائها. وقد اضطروا إلى النوم هناك في كوخ طينيّ كبير، بين أكوام من أكياس الأرز والجلود غير المدبوغة لأنه لم يُحجَز لهم مكان للمبيت، ولم تكن البغال التي أوصوا عليها مسبقاً لمواصلة الرحلة قد أُعدّت بعد. وهكذا وصل الجنرال إلى تورباكو مبللاً بالعرق ومرهَقاً ومتشوقاً إلى النوم، إنما من دون إحساس بالنعاس.

ما كادوا ينتهون من إنزال حمولتهم، حتى كان خبر وصولهم قد بلغ كارتاخينا دي إندياس التي تبعد ستة فراسخ من هناك فقط، وحيث كان

الجنرال مريانو مونتيللا، الحاكم العام للمقاطعة وقائدها العسكري، قد أعدّ استقبالاً شعبياً لليوم التالي. لكن الجنرال لم يكن مستعداً للاحتفالات المبكرة، أما مَن كانوا ينتظرونه على الطريق العام، تحت المطر الغزير، فقد حيّاهم بتدفّق وكأنه يعرفهم معرفة قديمة، لكنه طلب منهم بالصراحة نفسها أن يتركوه وحيداً.

الحقيقة أن حالته البدنية كانت أسوأ مما يكشف عنه تعكّر مزاجه، لكنه كان يحاول إخفاء ذلك حتى عن مرافقيه أنفسهم، الذين كانوا يلاحظون تدهوره المتزايد يوماً بعد يوم. لم يكن قادراً على تحمّل روحه، وكان لون بشرته قد تحول من الخضرة الشاحبة إلى صُفرة الهلاك. كان محموماً. وصارت آلام رأسه أبدية. عرض عليه الكاهن أن يأتيه بطبيب، لكنه رفض: «لو أنني انصعت لما يقوله أطبائي لكنت مدفوناً منذ سنوات». لقد جاء وفي نيته مواصلة السفر في اليوم التالي إلى كارتاخينا، لكن الأخبار التي جاءته منذ الصباح أفادت بأنه لا توجد أية سفينة متوجهة إلى أوروبا، كما أن جواز السفر لم يكن قد وصله في البريد الأخير. وهكذا قرّر البقاء ثلاثة أيام للراحة. فاحتفل ضباطه بذلك، ليس من أجل راحة جسده وحسب، بل لأن الأخبار الأولى، التي وصلت سراً، حول الوضع في فنزويلا لم تكن مناسبة لروحه كذلك. لكن الجنرال لم يستطع منعهم من مواصلة إطلاق الألعاب النارية حتى استنفاد البارود، ولا من إحضار مجموعة عازفين على مزامير القِرَب لتعزف حتى وقت متقدم من الليل. وقد أحضروا إليه كذلك من المناطق المجاورة لمستنقعات ماريا لاباخا فريق راقصين وراقصات، يرتدون ملابس تحاكي ملابس الحاشية في بلاطات أوروبا في القرن السادس عشر، ويرقصون بسخرية وبفن أفريقي رقصات الصالونات الإسبانية، وقد جاءوا بهم لأنه أعجب برقصهم في زيارته السابقة واستدعاهم عدة مرّات، أما الآن فلم ينظر إليهم ولو مجرّد نظرة واحدة، وقال: «أبعدوا هذه الضجة من هنا».

كان الحاكم الإسباني كابابيرو إي غونغورا قد شيّد البيت وأقام فيه نحو ثلاث سنوات، فكانوا يَعْزون الأصداء الشبحية التي تتردد في الحجرات إلى سحر روحه المحزونة. لم يرضَ الجنرال النوم في المخدع الذي نام فيه أثناء زيارته السابقة، لأنه يذكّره بغرفة الكوابيس. ففي جميع الليالي التي نامها فيه، كان يحلم بأن امرأة ذات شعر مشعّ تشد على عنقه بشريطة حمراء حتى توقظه، ثم تعيد ذلك كرة أخرى وأخرى، حتى الفجر. لذلك طلب تعليق أرجوحة نومه بحلقات في الصالة ونام برهة من دون أن يحلم. كان المطر يهطل بغزارة وبقيت مجموعة من الصبيان تتطلع من النوافذ المطلة على الشارع لتراه وهو نائم. وقد أيقظه أحدهم بصوت مكتوم: «بوليفار، بوليفار». بحث عنه في غيبوبة الحمى، وعندئذ سأله الطفل: «هل تحبني؟».

أكّد الجنرال ذلك بابتسامة مرتعشة، لكنه أمر بعدها بكشّ الدجاجات التي كانت تجول في البيت طوال الوقت، وإبعاد الأطفال وإغلاق النوافذ، ثم عاد إلى النوم من جديد. عندما استيقظ كانت السماء لا تزال تمطر، وكان خوسيه بالاثيوس يجهّز الكلّة من أجل أرجوحة النوم. فقال له الجنرال:

«حلمت أن طفلاً من الشارع يوجه إليّ أسئلة غريبة من خلال النافذة».

وافق على تناول كأس من شراب دافئ، وهي الكأس الأولى منذ أربع وعشرين ساعة، لكنه لم يتناولها كاملة. عاد يستلقي في أرجوحة النوم، وغرق في تأمل غَسَقيٍّ طويل، وهو يُراقب صف الخفافيش المعلقة في دعائم السقف. ثم تنهَّد أخيراً:

«سنُدفن بالصدقات».

لقد أسرف كثيراً في منح المال لضباطه القدماء وجنود الجيش المُحَرِّر العاديين الذين كانوا يقصّون عليه أحداث محنهم على امتداد النهر، حتى لم يبقَ لديه عند وصوله إلى توررباكو سوى ربع الأموال المخصصة للرحلة. ولم يكن يعرف إذا ما كانت الحكومة الإقليمية في كارتاخينا تملك أرصدة جاهزة في صناديقها العاجزة، لتغطية أمر الصرف الصادر لصالحه، أو

لبحث بيعه إلى مُضارب في بورصة الأوراق المالية على الأقل. أما بالنسبة لإقامته في أوروبا خلال الفترة الأولى، فكان يعتمد على امتنان حكومة إنكلترا التي قدّم لها أفضالاً كثيرة في ما مضى. وقد اعتاد القول: «الإنكليز يحبّونني». لكنه لكي يعيش بقية حياته بكرامة تليق بحنينه، مع خدمه وعدد محدود من مرافقيه، كان يضع في حسبانه وهم بيع مناجم أروا. بالرغم من ذلك، وإذا ما كان يفكر بالسفر حقاً، فإن كل رصيده الفعلي كان لا يكاد يكفي للمتطلبات المستعجلة التي تقتضيها رسوم التذاكر ونفقات سفره مع بطانته، لكن ذلك كان يستدعي وصوله إلى التخلي عن قدرته غير المحدودة على التخيّل في اللحظة التي يحتاج فيها إلى ذلك التخيّل أكثر من أي وقت آخر. وكان سلوكه مغايراً لذلك تماماً. فعلى الرغم من أنه كان يرى حُباحب مضيئة حيث لا وجود لها، بفعل الحمّى وآلام الرأس، إلا أنه تغلب على النعاس الذي كان يشوّش حواسه، وأملى على فرناندو ثلاث رسائل.

كانت الرسالة الأولى رداً من القلب على رسالة الماريشال سوكره الوداعية، ولم يشِر فيها أدنى إشارة إلى مرضه، مع أنه اعتاد على فعل ذلك في حالات مثل الحالة التي كان عليها في مساء ذلك اليوم. وكانت الرسالة الثانية إلى دون خوان دي ديوس آمادور محافظ كارتاخينا، يرجوه فيها دفع الثمانية آلاف بيزو بموجب أمر الصرف القاضي بسحبها من الخزانة الإقليمية، وقال في الرسالة: «إنني فقير ومحتاج لهذا المال من أجل رحيلي». وكان التوسل مجدياً. فقد تلقى رداً إيجابياً قبل انقضاء أربعة أيام، فذهب فرناندو إلى كارتاخينا لاستلام المال. أما الرسالة الثالثة، فكانت موجهة إلى وزير كولومبيا في لندن، الشاعر خوسيه فيرنانديث مدريد، يطلب منه فيها أن يدفع قيمة سند كان الجنرال قد حوّله لأمر السير روبيرت ويلسون، وسند آخر لأمر البروفسور الإنكليزي جوزيف لانكستر، وقد كانا مدينين له بمبلغ عشرين ألف بيزو لقاء إدخال نظامه المستحدث في

التعليم المختلط في كاراكاس. وقد قال له الجنرال في الرسالة: «إن شرفي متوقّف على دفعهما». كان واثقاً في ذلك الحين من أن دعواه القضائية قد حُلّت، وأن المناجم قد بيعت. لكنه كان مسعى من دون طائل: فعند وصول الرسالة إلى لندن، كان الوزير فيرناندث مدريد قد توفّي.

أومأ خوسيه بالاثيوس كي يصمت الضباط الذين كانوا يتجادلون صارخين وهم يلعبون الورق في الرواق الداخلي، لكنهم واصلوا الجدال بأصوات هامسة إلى أن دوّت أجراس الساعة الحادية عشرة في الكنيسة القريبة. بعد ذلك بقليل خمدت موسيقى مزامير القِرَب وطبول الحفلة العامة، وحملت رياح البحر البعيد سحابات سوداء قائمة بدأت تتجمّع بعد مطر المساء، وأخذ القمر المكتمل يشعّ في فناء أشجار البرتقال.

لم يتوان خوسيه بالاثيوس برهة واحدة عن الاهتمام بالجنرال الذي كان يهذي من الحمّى في أرجوحته منذ الغروب. أعدَّ له المبولة كالمعتاد، ووضع له حقنة شرجية من مغلى أوراق السَنا، وكان ينتظر أن يتجرّأ شخص يتمتع بسلطة أكبر من سلطته ليقترح عليه إحضار طبيب، لكن أحداً لم يفعل ذلك. ولم ينَم سوى أقل من ساعة واحدة عند الفجر.

جاء لزيارته في ذلك اليوم الجنرال مريانو مونتيللا مع جماعة مختارة من أصدقائه في كارتاخينا. وكان بينهم الثلاثة المعروفون بثلاثي خوانات الحزب البوليفاري: خوان غارثيا دل ريو، وخوان دي فرانثيسكو مارتين، وخوان دي ديوس آمادور. وقد أصاب الهلع الجميع أمام ذلك الجسد المحزون الذي حاول النهوض في الأرجوحة، والذي لم يكفِه الهواء لمعانقتهم جميعاً. كانوا قد رأوه في الكونغرس الموقَّر، الذي شاركوا فيه كأعضاء، ولم يستطيعوا أن يصدقوا أنه قد تلفَ هكذا في مثل هذا الوقت القصير. كانت عظامه بارزة تحت الجلد، ولم يكن قادراً على تثبيت بصره، ولا بدّ أنه كان مدركاً لنتانة أنفاسه وسخونتها، لأنه كان يحاول الكلام عن بُعد، وبوجه يكاد يكون مائلاً. لكن أكثر ما أثّر فيهم هو يقينهم بأن قامته

قد قصرت حتى بدا للجنرال مونتيللا، عندما عانقه، أنه لا يكاد يصل إلى مستوى خاصرته.

كان وزنه ثماني وثمانين ليبرة، وسينخفض عشر ليبرات أخرى حتى عشية موته. أما طول قامته الرسمي فكان متراً واحداً وخمسة وستين سنتيمتراً، بالرغم من أن بطاقاته الطبية لم تكن تتفق دوماً مع بطاقاته العسكرية، وسيكون طوله على منضدة التشريح أقل من ذلك بأربعة سنتيمترات. وكانت قدماه صغيرتين جداً، مثل يديه، بالنسبة لحجم جسده، وقد بدتا أضأل حجماً مما كانتا عليه. وقد لاحظ خوسيه بالاثيوس أن بنطاله يكاد يصل إلى صدره، كما اضطر إلى أن يطوي له معصمَيّ قميصه. لاحظ الجنرال فضول زائريه، واعترف بأن جزمته، وهي من قياس خمس وثلاثين بالنمرة الفرنسية، قد أصبحت واسعة على قدميه منذ شهر كانون الثاني، فانتهى الجنرال مونيتللا، المشهور بومضات قريحته، حتى في أقل اللحظات ملاءمة لذلك، إلى القول:

«المهم ألّا يتضاءل فخامته فينا».

وأبرز قفشته كالعادة، بقهقهة أشبه برشّة خُردق، فرد عليه الجنرال بابتسامة رفيق قديم، وانتقل إلى موضوع آخر. كان الجو قد تحسن في الخارج، وصار مناسباً لتبادل الحديث، لكنه فضل استقبال زائريه وهو جالس في الأرجوحة، وفي الصالة نفسها التي نام فيها.

كان الموضوع المهيمن على الحديث هو وضع الأمة. فبوليفاريّو كارتاخينا يرفضون الاعتراف بالدستور الجديد وبالموظفين المنتدَبين، بحجة أن الطلبة السانتَنديريين قد مارسوا ضغوطاً مرفوضة على الكونغرس. أما العسكريون الموالون للجنرال فقد بقوا على الهامش، بأمر من الجنرال نفسه، ولم تتح فرصة التحرك للإكليروس الريفي الذي يؤيده، لكن الجنرال فرانثيسكو كارمونا، قائد إحدى حاميات كارتاخينا والموالي لقضيته، كاد يقوم بحركة تمرّد، وكان تهديده لا يزال قائماً. وقد

طلب الجنرال من مونتيللا أن يرسل إليه كارمونا ليحاول تهدئته، ثم توجه بعد ذلك إلى الجميع، إنما من دون أن ينظر إلى أي واحد منهم وأطلعهم بإيجاز فظ على وضع الحكومة الجديدة:

«موسكيرا جبان، وكايثيدو حلواني، وكلاهما خائف من صبيان معهد سان بارتولومي».

ما أراد قوله بالفظاظة الكاريبية هو أن الرئيس شخص ضعيف، ونائب الرئيس انتهازي قادر على تغيير انتمائه حسب اتجاه الرياح. وأشار أيضاً، بخبثه الذي يميّزه في أوقاته العصيبة، إلى أنه من غير المستغرب أن يكون كل منهما شقيقاً لأسقف. وكانت التشكيلة الحكومية تبدو له بالمقابل أفضل مما كان منتظراً، في لحظة تاريخية ليس الخطر فيها هو الهزيمة الانتخابية، وإنما الحرب الأهلية التي يحرّض عليها سانتَندير في رسائله الموجهة من باريس. وكان الرئيس المنتخب قد وجه من بوبايان جميع أنواع النداءات للحفاظ على النظام والوحدة، لكنه لم يكن قد أعلن بعد موافقته على الرئاسة.

قال الجنرال:

«إنه ينتظر إلى أن ينجز كايثيدو العمل القذر».

وقال مونتيللا:

«لا بد أن موسكيرا قد أصبح في سانتافي، فقد غادر بوبايان منذ يوم الاثنين».

كان الجنرال يجهل ذلك، لكنه لم يُفاجأ. وقال: «سترون كيف سيُنفّس حين يصبح عليه أن يعمل. إنه لا يصلح لأن يكون بوّاباً لحكومة». فكّر طويلاً، وأذعن للأسى وهو يقول: «مؤسف. الرجل المناسب كان سوكره».

فابتسم دي فرانثيسكو وقال: «أكثر الجنرالات جدارة».

كانت العبارة قد شاعت في البلاد بالرغم من الجهود التي بذلها الجنرال للحيلولة دون انتشارها.

وقال مونتيللا مداعباً: «عبارة عبقرية من أوردانيتا!».

تجاهل الجنرال المقاطعة واستعد لمعرفة بواطن السياسة المحلية، بطريقة أقرب إلى المزاح منها إلى الجد، لكن مونتيللا عاد فجأة إلى فرض الوقار الذي كان قد حطمه هو نفسه للتو، وقال: «اعذرني يا صاحب الفخامة، أنت تعرف أفضل من الجميع الولاء الذي كان يكنّه لك الماريشال الأعظم، لكنه ليس بالرجل المناسب» وأنهى كلامه بتفخيم مسرحي: «الرجل المناسب هو حضرتك».

فقاطعه الجنرال برد قاطع: «أنا لست موجوداً».

ثم استعاد إمساك الخيط، وحكى لهم عن الطريقة التي رفض فيها سوكره توسّلاته لقبول رئاسة كولومبيا. وقال:

«إنه يملك كل المؤهلات لإنقاذنا من الفوضى، لكنه أسلم نفسه لغناء حوريات البحر».

كان غارثيا دل ريو يفكر بأن السبب الحقيقي هو افتقار سوكره التام للرغبة في السلطة. ورأى الجنرال أن ذلك ليس بالعائق الذي لا يمكن تجاوزه، وقال:

«لقد ثبت مرات كثيرة عبر تاريخ البشرية الطويل أن الرغبة هي الابنة الشرعية للحاجة».

لكن ذلك الحديث لم يكن على أي حال سوى تمنيات فات أوانها، لأنه كان يعرف أكثر من أي شخص آخر أن الجنرال الأكثر جدارة في الجمهورية صار ينتمي إلى جيش أكثر خلوداً من جيوشه، فقال:

«السلطة العظمى هي سلطة الحب»، ثم أكمل مزاحه: «سوكره نفسه قال ذلك».

وفيما كان في توررباكو يتذكر الماريشال سوكره، خرج هذا الأخير من سانتافي متوجّهاً إلى كيتو، وحيداً وخائب الأمل، لكنه في روعة العمر والصحة، وفي أوج تمتّعه بمجده. وكان مسعاه الأخير الذي قام به في اليوم السابق هو زيارة سرية لعرّافة في الحيّ المصري كان يعرفها، وقد وجهته في عدد من حملاته العسكرية، فرأت في الورق يومئذ أن أكثر دروبه حظاً لا تزال، حتى في تلك الأزمنة العاصفة، هي دروب الحب. وقد بدت تلك الدروب لماريشال أياكوتشو العظيم شديدة البطء بالمقارنة مع تعجّله الغرامي. فأخضع نفسه لمصادفات الدروب البرية، مخالفاً بذلك أحكام الورق الحميدة.

انتهى الجنرال إلى القول:

«هذا يعني أنه لا مجال لعمل شيء. إننا في ورطة، وأفضل حكومة لدينا، هي الأسوأ».

كان يعرف أنصاره المحليين. فهم أعيان بارزون نالوا ما يكفي من الألقاب في خضم مفخرة التحرير، لكنهم في شؤون السياسة التفصيلية كانوا مشعوذين، مسمَّنين، ومتاجرين بالوظائف. بل إن الأمر وصل بهم إلى التحالف مع مونتيللا ضده. ومثلما فعل بكثيرين غيرهم، فإنه لم يهادنهم إلى أن تمكن من استمالتهم إلى جانبه. كانت مبرراته تستند كالعادة، على نَفَس نبوي: غداً، عندما لا يعود لي وجود، ستقوم الحكومة نفسها، التي تطلب الدعم الآن، باستدعاء سانتَندير، الذي سيرجع متوَّجاً بالمجد ليصَفّي أنقاض أحلامكم، أما الوطن الفسيح والموحد الذي أقامه هو، على امتداد سنوات من الحروب والتضحيات، فسيهوي مفتتاً، وستتقاسمه الأحزاب في ما بينها، بينما يصبح اسمه ذاته مستنكراً وأعماله مذمومة في ذاكرة العصور. لكن شيئاً من ذلك كله لم يكن يهمه في تلك اللحظة إذا ما استطاع الحيلولة على الأقل دون فصل دموي جديد.

وقال: «التمردات مثل موج البحر، يتلو بعضها بعضاً، وهذا ما جعلني

لا أحبها على الإطلاق» ثم أضاف أمام ذهول الجميع: «إنني آسف في هذه الأيام على ما فعلناه ضد الإسبان».

أحسّ الجنرال مونتيللا وأصدقاؤه أن تلك هي النهاية. وقبل أن يودعوه، تلقوا منه ميدالية ذهبية عليها رسمه، فلم يستطيعوا تجنب الشعور بأنها هدية من شخص ميت. وفيما هم متوجهون نحو الباب، قال غارثيا دل ريو بصوت خافت:

«إن له وجه ميّت».

وقد لاحقت العبارة المضخّمة، والمكرورة في أصداء ترن داخل البيت، الجنرال طوال تلك الليلة. ومع ذلك، فقد فوجئ الجنرال فرانثيسكو كارامونا في اليوم التالي بحُسن مظهره. وجده في الفناء المعطر برائحة أزهار البرتقال، في أرجوحة نوم تحمل اسمه مطرزاً بخيوط حريرية، كانت قد صُنعت له في بلدة سان خاثينتو المجاورة، وقد علقها خوسيه بالاثيوس بين شجرتَي برتقال. كان قد استحم لتوه. وقد منحه مظهر شعره المشدود إلى الوراء وسترته الزرقاء التي يرتديها من دون قميص نفحة من البراءة. وفيما هو يهز الأرجوحة ببطء شديد، كان يملي على ابن أخيه فرناندو رسالة ساخطة موجهة إلى الرئيس كايثيدو. لم يَبدُ للجنرال كارامونا أنه يحتضر إلى الحدّ الذي أخبروه به، ربما لأنه كان ثملاً بغضب يشبه غضباته القديمة.

كان كارامونا ضخم الجسد، لا يمكن أن يمرّ في مكان من دون أن يلفت الانتباه. لكن الجنرال نظر إليه من دون أن يراه وهو يملي جملة ضد غدر المفترين عليه. وعندما انتهى تماماً، التفت إلى المارد الذي كان يتأمله من دون أن يرمش، وكان واقفاً بكامل جسده مقابل أرجوحة النوم. وسأله من دون أن يجيبه:

«وأنت أيضاً تظنني محرِّضاً على التمردات؟».

فسأله الجنرال كاراموا بشيء من الترفّع، رداً على ذلك الاستقبال العدواني:

«ومن أين استنتجت ذلك يا سيدي الجنرال؟».

فقال: «من حيث استنتجه هولاء».

قدّم له بضع قصاصات من الصحف كان قد تلقاها للتو من بريد سانتافي، يتهمونه فيها مرة أخرى بانه هو الذي حرّض سراً على تمرد الجنود ليرجع إلى السلطة بالرغم من قرار الكونغرس.

وقال: «سفاهة شائنة. بينما أنا أضيع وقتي في الدعوة إلى الوحدة، يأتي هؤلاء الصبية الخدّج ليتهموني بالتآمر».

أحسّ الجنرال كاراموا بخيبة أمل بعدما قرأ القصاصات، وقال:

«أنا لا أصدق ذلك، لكنني أتمنى أن يكون صحيحاً».

فقال له: «هذا ما أتصوره».

لم يُبدِ ما يدل على أنه يخالفه الرأي، وإنما طلب منه الانتظار إلى أن ينتهي من إملاء الرسالة التي كان يطالب فيها مرة أخرى بالإذن الرسمي لمغادرة البلاد. وعندما انتهى كان قد استعاد هدوءه بالبساطة المفاجئة ذاتها التي فقده بها حين قرأ الصحف. نهض من دون مساعدة وقاد الجنرال كاراموا من ذراعه ليتمشى معه حول البركة.

كان الضوء طحين ذهب ينفذ من خلال أشجار البرتقال المتشابكة بعد ثلاثة أيام ماطرة، فيهيّج العصافير بين الأزهار. ركز الجنرال اهتمامه عليها برهة، وأحس بتغريدها في روحه، وأطلق ما يشبه التنهيدة: «لحسن الحظ أنها ما زالت تغرّد». ثم قدّم للجنرال كاراموا تفسيراً ضليعاً أوضح له فيه لماذا تغرّد عصافير الأنتيل في نيسان خيراً من تغريدها في حزيران. ثم نقله فوراً، ومن دون مقدمات، إلى شؤونه. لم يحتج لأكثر من عشر دقائق كي يقنعه بضرورة الامتثال من دون شروط لسلطة الحكومة الجديدة. بعد ذلك

رافقه حتى الباب، ومضى إلى حجرة النوم ليكتب بخط يده رسالة إلى مانويللا ساينث، التي ما زالت تشكو من العراقيل التي تفرضها الحكومة على رسائلها.

لم يأكل سوى طبق من عصيدة الذرة الطرية حملته إليه فرناندا باريغا إلى حجرة النوم حين كان يكتب. وفي ساعة القيلولة، طلب من فرناندو أن يواصل القراءة له من كتاب في علم النبات عند الصينيين، كانا قد بدأا بقراءته في الليلة السابقة. وبعد ذلك بقليل دخل خوسيه بالاثيوس إلى حجرة النوم حاملاً ماء الزعتر من أجل الحمّام الساخن، فوجد فرناندو نائماً على الكرسي والكتاب مفتوح فوق حضنه. كان الجنرال مستيقظاً في الأرجوحة، فوضع إصبعه السبابة فوق شفتيه مشيراً إليه أن يصمت. ولم تكن حرارته مرتفعة للمرة الأولى منذ أسبوعين.

بقي تسعة وعشرين يوماً في تورباكو على تلك الحال، وهو يمدد الوقت من بريد إلى آخر. كان قد زار تورباكو مرتين من قبل، لكنه لم يقدّر في الواقع المزايا الطبية للمكان إلا في زيارته الثانية، قبل ثلاث سنوات، حين كان عائداً من كاراكاس إلى سانتافي ليحول دون مخططات سانتَندير الانفصالية. وقد واتاه مناخ القرية يومئذ، فبقي فيها عشرة أيام بدلاً من الليلتين المقرَّرتين. فكانت عشرة أيام من الأعياد الوطنية. وفي نهايتها أقيمت حفلة مصارعة أبقار كبرى، معاكسين بذلك مقته لمصارعات الثيران. وصارع هو نفسه بقرة أطاحت بالمنديل من يده وانتزعتْ صرخةَ فزع من الناس المحتشدين. أما الآن في زيارته الثالثة، فقد كان قدره الخائب ناجزاً وكان مرور الأيام يؤكد ذلك حتى الغيظ. صارت الأمطار أكثر تواتراً، وأكثر تخريباً، واختُزلت الحياة إلى مجرد انتظار أنباء المحن الجديدة. وفي إحدى الليالي، في صحو الأرق الطويل، سمعه خوسيه بالاثيوس يتنهد في أرجوحة النوم:

«الله وحده يعلم أين هو سوكره الآن!».

كان الجنرال مونتيللا قد رجع مرتين، ووجده أحسن حالاً بكثير مما كان عليه في اليوم الأول. بل أكثر من ذلك: بدا له أنه يستردّ، يوماً بعد يوم، قواه التي كان يتمتع بها في أزمنة أخرى، وخصوصاً عند إصراره على الإعلان له بأن كارتاخينا لم تصوّت بعد على التشكيلات الجديدة ولم تعترف بالحكومة، انسجاماً مع الالتزام الذي قدّمته للجنرال في زيارته السابقة. وقد اختلق الجنرال مونتيللا ذريعة لذلك بالقول إنهم ينتظرون حتى يعرفوا أولاً إن كان خواكين موسكيرا سيقبل بالرئاسة.

فقال له الجنرال: «سيكون وضعكم أفضل إذا ما بادرتم».

وفي الزيارة التالية، عاد يطالبه بذلك باندفاع أكبر. فقد كان يعرف مونتيللا مذ كان طفلاً، وكان يعرف أن رفض الاعتراف الذي ينسبه إلى آخرين لا يمكن إلا أن يكون منه. لم تكن تربطهما صداقة طبقة ومهنة وحسب، بل كانا قد عاشا معاً حياة طويلة مشتركة. وفي إحدى الفترات، لحق الفتور بعلاقتهما ووصل الأمر بهما إلى الامتناع عن تبادل الكلام، لأن مونتيللا ترك الجنرال من دون مساعدات عسكرية في مومبوكس في واحدة من أكثر لحظات الحرب ضد موريو خطورة، فاتهمه الجنرال بأنه فاسد الأخلاق، ومُبتدِع جميع الافتراءات. وكان رد فعل مونتيللا عاطفياً جداً حين تحدّاه للمبارزة، لكنه واصل خدمة قضية الاستقلال مترفّعاً عن الأحقاد الشخصية.

كان قد درس الرياضيات والفلسفة في الأكاديمية العسكرية بمدريد. ثم عمل حارساً للملك دون فرناندو السابع حتى اليوم الذي وصلت فيه الأنباء الأولى عن انعتاق فنزويلا. كان محرِّضاً جيداً في المكسيك. أصيب بجراحه الأولى وهو في السابعة عشرة من عمره. وفي عام 1821 نظّف المنطقة الساحلية من ريوهاتشا حتى بنما من فلول الإسبان، واستولى على كارتاخينا من جيش يفوقه عدداً وعدة، وعندئذ عرض المصالحة على الجنرال بلفتة شجاعة: فقد أرسل إليه مفاتيح المدينة الذهبية، فأعادها

الجنرال إليه ومعها أمر ترقيته إلى جنرال، وأمر آخر يقضي بتوليه مسؤولية حكومة المنطقة الساحلية. لم يكن حاكماً محبوباً، بالرغم من أنه كان يخفف من تسلطه بشيء من الفكاهة. كان بيته هو أفضل بيت في المدينة، ومزرعته في أغواس فيغاس واحدة من أفخم المزارع في الإقليم كله، وكان الشعب يسأله من خلال شعارات تُكتب على الجدران من أين حصل على المال لشرائها. لكنه كان لا يزال في موقعه، بعد ثمانية أعوام من ممارسة السلطة بحزم وتفرّد، ليصبح بذلك أكثر سياسيي الجنرال دهاء، وواحداً ممن تصعب معارضتهم.

أمام كل إلحاح من جانب الجنرال، كان مونتيللا يتذرع بحجّة مختلفة. لكنه قال في إحدى المرّات الحقيقة من دون مواربة: البوليفاريون الكارتاخينيون مصممون على عدم أداء اليمين على الدستور وعدم الاعتراف بحكومة ضعيفة، لا يرتكز قيامها على الوفاق وإنما على الشقاق بين الجميع. كان ذلك الوضع هو أمر تقليدي في السياسة المحلية، وقد أدت الخلافات حوله إلى مآس تاريخية كثيرة. قال مونتيللا: «والكارتاخينيون لا تنقصهم المبررات، ما دمت فخامتك، وأنت أكثر الجميع ليبرالية، ستتركنا تحت رحمة من استولوا على لقب الليبراليين ليُصَفّوا كل ما أنجزته».

وهكذا أشار إلى أنّ المعادلة الوحيدة لتسوية الأمور هي في بقاء الجنرال في البلاد كي يحول دون تقسيمها. فرد الجنرال بسخرية هي من أساليبه:

«حسن. إذا كان الأمر كذلك، فقل لكاramونا أن يأتي إليَّ مرة أخرى، فنقنعه بأن يتمرّد. سيكون ذلك أقل دموية من الحرب الأهلية التي سيثيرها الكارتاخينيون بتهوّرهم».

لكنه استعاد سيطرته على نفسه قبل أن يودّع مونتيللا، وطلب منه أن يجيء إلى تورباكو بقادة أنصاره ليناقش وإياهم مسائل الخلاف. وكان

لا يزال في انتظارهم عندما حمل إليه الجنرال كارينيو الشائعة القائلة إن خواكين موسكيرا قد تولى الرئاسة. فضرب جبهته بكفّه وهتف:

«لا أصدق ذلك حتى ولو رأيته بأم عيني».

مضى الجنرال مونيتللا ليتحقق من صحة الخبر في مساء ذلك اليوم بالذات، تحت وابل أمطار غزيرة تصحبها رياح متقاطعة انتزعت أشجاراً من جذورها، وهدّمت نصف القرية، وخرّبت زريبة البيت وحملت معها البهائم الغارقة. لكن العاصفة حدّت كذلك من اندفاع الخبر المشؤوم. وقد حال الحرس الرسمي، الذي كان يحتضر في ضجر البطالة، دون تضخّم حجم الكوارث. ألقى مونتيللا معطفاً عسكرياً واقياً من المطر على كتفيه، وقاد عمليات الإنقاذ. بقي الجنرال جالساً على كرسي هزّاز مقابل النافذة، متدثراً ببطانية النوم، ساهم النظرة وساكن الأنفاس، متأملاً طوفان الوحل الذي كان يجرف أنقاض الكارثة، لقد كانت تلك التقلبات الجوّية الكاريبية مألوفة لديه منذ طفولته. مع ذلك، وفيما كانت الوحدة العسكرية تسارع إلى إعادة ترتيب البيت، قال لخوسيه بالاثيوس إنه لا يذكر أنه قد رأى شيئاً مشابهاً من قبل. وحين استتب الهدوء من جديد، دخل مونتيللا إلى الصالة وهو يقطر ماء، وقد غطاه الوحل حتى ركبتيه، كان الجنرال لا يزال متوقفاً عند فكرته، فقال له:

«حسناً يا مونتيللا. لقد صار موسكيرا رئيساً. وكارتاخينا لم تعترف به بعد».

لكن مونتيللا، الذي لم تكن العواصف تنسيه ما كان يتحدث به، قال: «لو تذهب فخامتك إلى كارتاخينا، فسيصبح الأمر أسهل بكثير».

قال الجنرال: «سيكون في ذلك مجازفة اعتبار الأمر تدخلاً من جانبي، وأنا لا أريد أن أكون بطل أي شيء. ثم أنني سأمضي إلى ما هو أبعد: فأنا لن أتحرّك من هنا طالما لم تُحَلّ هذه المسألة».

في تلك الليلة، كتب إلى الجنرال موسكيرا رسالة التزام قال له فيها: «لقد علمت للتو، وليس من دون مفاجأة، أنك قد وافقت على رئاسة الدولة، وهو أمر يسعدني من أجل البلاد ومن أجلي أنا بالذات، لكنني آسف، وسأبقى آسفاً إلى الأبد من أجلك أنت». واختتم الرسالة بتذييل يقول: «لم أغادر بعد، لأن جواز السفر لم يصلني، لكنني سأذهب من دون إبطاء عند وصوله».

وصل دانييل فلورينثيو أولياري إلى تورباكو يوم الأحد، وانضمّ إلى مرافقي الجنرال. كان عضواً بارزاً في الفيلق البريطاني، وقد عمل لوقت طويل مرافقاً للجنرال وكاتباً له بلغتين. رافقه مونتيللا من كارتاخينا، بمزاج أفضل من مزاجه في أي وقت آخر. وأمضيا مع الجنرال أمسية أصدقاء تحت أشجار البرتقال. وبعد حديث طويل مع أولياري حول مهمته العسكرية، عاد الجنرال إلى القضية التي صارت ديدنه:

«ما الذي يقال هناك؟».

فقال أولياري: «يقولون إن مسألة ذهابك ليست حقيقية».

قال الجنرال: «آها. ولماذا؟».

«لأن مانويليتا باقية».

فرد الجنرال بصراحة مجردة: «ولكنها تبقى دوماً!».

كان أولياري، صديق مانويلا ساينث الحميم، يعرف أن الجنرال على حق. فالحقيقة أنها كانت تبقى دوماً، ولكن ليس برغبتها، وإنما لأن الجنرال كان يتركها متعللاً بأية ذريعة، وبمشقة جريئة للهرب من عبودية الغراميات الرسمية. «لن أعود إلى الحب أبداً»، هذا ما اعترف به يوماً لخوسيه بالاثيوس، الكائن البشري الوحيد الذي كان يبيح لنفسه الاعتراف له بمثل تلك الاعترافات. ثم أضاف قائلاً: «لأن ذلك أشبه بأن يكون للمرء روحان في آن معاً».

كانت مانويلا تعترض بتصميم جارف، ومن دون اهتمام بحواجز الكرامة. لكنها كلما زادت من محاولتها للسيطرة عليه، كان يبدو أكثر شوقاً للتحرر من قيودها. فكان حبه لها هو حب هروب دائم. ففي كيتو، وبعد الأسبوعين الأوّلين الخارقين، اضطر إلى السفر إلى غواياكيل لمقابلة الجنرال خوسيه دي سان مارتين، مُحَرِّر ريو دي بلاتا، وبقيت هي تتساءل أي عشيق هذا الذي يترك المائدة وهي جاهزة في منتصف العشاء. وعدها بأن يكتب لها كل يوم، ومن كل مكان يذهب إليه، ليقسم لها بقلبه المتّقد أنه يحبها أكثر مما أحب أي كائن في هذا العالم. وقد كتب لها فعلاً، وفعل ذلك بخط يده أحياناً، لكنه لم يبعث الرسائل إليها. وفي أثناء ذلك، كان يعزّي نفسه في غرام متعدّد الأطراف مع النساء الخمس في بيت غارايوكا النسائي، من دون أن يعلم هو نفسه علم اليقين أيهنّ اختار، بين الجدة ذات الستة وخمسين عاماً، والابنة ذات الثمانية والثلاثين، والحفيدات الثلاث اللواتي كنّ في زهرة العمر. وبعد انتهاء مهمته في غواياكيل، هرب منهن جميعاً، مطلقاً لهن وعود الحب الأبدي والعودة القريبة إليهن، ورجع إلى كيتو ليغرق في رمال مانويلا ساينث المتحركة.

وفي أوائل العالم التالي ذهب مرة أخرى، من دون أن يأخذها معه، لينهي تحرير البيرو، وكان ذلك هو الجهد الأخير من حلمه. انتظرت مانويلا أربعة شهور، لكنها أبحرت إلى ليما عندما بدأت تتلقى رسائل لم يكن كاتب الجنرال الخاص، خوسيه سانتانا، هو الذي يكتبها بخط يده وحسب، وإنما بفكره وأحاسيسه أيضاً. وجدته في مقر إقامته في قصر «لامجدلينا» وقد قلّده الكونغرس سلطات دكتاتور وكان محاطاً بنساء جميلات وجريئات من نساء عاصمة الجمهورية الجديدة. كانت الفوضى في البيت الرئاسي قد بلغت حدوداً جعلت كولونيلاً من الرماة يرحل من هناك في منتصف الليل، لأنهم لا يتيحون له أن ينام من احتضارات الحب في المخادع. أما مانويلا، فقد وجدت نفسها حينئذ في ميدان تعرفه جيداً.

فقد ولدت في كيتو، وكانت ابنة سرية لثرية كريولية ورجل متزوج، وحين بلغت الثامنة عشرة من عمرها، قفزت من نافذة الدير الذي كانت تدرس فيه، وهربت مع ضابط من جيش الملك. ولكنها بعد سنتين من ذلك، تزوجت في ليما، متزينة بأزهار العذرية البيضاء، من الدكتور جيمس ثورن، وهو طبيب لطيف، له من العمر ضعف ما لها. وهكذا فإنها حين رجعت إلى البيرو لمطاردة حب حياتها، لم تكن بحاجة لأن تتعلم شيئاً من أحد لكي تضرب أطنابها وسط الفضيحة.

كان أولياري هو أفضل أعوانها في حروب القلب تلك. لم تكن مانويلا في عداد العاملين في قصر «لامجدلينا»، لكنها كانت تدخل إليه متى شاءت من البوابة الكبرى وبالتشريفات العسكرية اللائقة. كانت داهية، وجامحة، وذات ظرافة لا تقاوم، وكان لديها ميل إلى السلطة وعتاد مجرب اجتاز كل أنواع الاختبارات. وكانت تتكلم إنكليزية متقنة، تعلمتها من زوجها، وفرنسية أوّلية لكنها مفهومة، وتعزف الكلافيكورد على طريقة المستجدات المواربة. وكان خطها في الكتابة عويصاً، ونحوها في اللغة متعثراً، وكانت تموت ضحكاً مما تسميه هي نفسها فظاعات إملائها. عيّنها الجنرال قيّمة على أرشيفه لتكون قريبة منه، فسهّل ذلك عليهما الحب في كل وقت وفي أي مكان، وسط زمجرة الضواري الأمازونية التي كانت مانويلا تروِّضها.

مع ذلك، عندما شرع الجنرال بفتح أراضي البيرو الوعرة التي كانت لا تزال بيد الإسبان، لم تتمكن مانويلا من حمله على أن يصحبها في عداد هيئة أركانه. فلاحقته من دون إذن منه بصناديقها كسيدة أولى، وخزائن الأرشيف، وبطانتها من الخادمات الرقيق، في مؤخرة الجيش المؤلفة من جنود كولومبيين يعبدونها للغة الثكنات التي تتحدث بها. قطعت ثلاثمئة فرسخ على متن بغلة في دروب جبال الأنديز الضيّقة التي تسبب الدوار، ولم تستطع الانفراد بالجنرال مع ذلك إلا ليلتين على امتداد أربعة شهور، وقد توصلت إلى ذلك في إحدى المرتين بعدما أخافته بتهديدها له بأنها

ستنتحر، ومضى بعض الوقت قبل أن تكتشف أنه حين تعجز عن الوصول إليه، يتسلى بغراميات عابرة يجدها في طريقه، ومن تلك الغراميات كانت مانويليتا مادرونيو، وهي خلاسية شبقة في الثامنة عشرة استطاعت أن تملأ ليالي أرقه.

قررت مانويلا، منذ عودتها إلى كيتو، أن تهجر زوجها الذي كانت تصفه بأنه إنكليزي تافه، يحب من دون لذة، ويتحدث من دون ظَرَف، ويجلس وينهض بتحفظ، ولا يضحك من نكاته بالذات. لكن الجنرال أقنعها بأن تحتفظ بأي ثمن بامتيازات وضعها المدني، فخضعت لرغبته.

بعد شهر من الانتصار في أياكوتشو، ذهب الجنرال الذي أصبح سيداً على نصف العالم، إلى أعالي البيرو، المنطقة التي ستتحوّل في ما بعد إلى جمهورية بوليفيا. لم يذهب من دون مرافقة مانويلا وحسب، بل طرح عليها قبل ذهابه، كقضية دولة، فوائد انفصالهما النهائي، وكتب إليها: «أرى أنه لا يمكن لشيء أن يجمعنا في كنف البراءة والشرف. ستكونين وحيدة في المستقبل، بالرغم من أنك ستكونين إلى جوار زوجك، أما أنا فسأكون وحيداً وسط العالم، وعزاؤنا الوحيد سيكون في أمجاد انتصارنا».

وقبل أن تنقضي ثلاثة شهور، تلقى من مانويلا رسالة تعلمه فيها بأنها ذاهبة إلى لندن مع زوجها. فاجأه الخبر وهو في سرير فرانثيسكا ثوبياغا دي غامارا، امرأة باسلة تحت السلاح، وزوجة ماريشال سيصبح رئيساً للجمهورية في ما بعد. لم ينتظر الجنرال انتهاء ممارسة الحب الثانية في تلك الليلة كي يكتب إلى مانويلا جواباً فورياً بدا أقرب إلى الأمر العسكري: «قولي الصدق ولا تذهبي إلى أي مكان». ثم رسم خطاً تحت الجملة الأخيرة: «إنني أحبك بحزم»، فامتثلت سعيدة.

بدأ حلم الجنرال يتفتت إلى نتف في اليوم الذي بلغ فيه ذروته، فما إن انتهى من تأسيس بوليفيا، وإعادة تنظيم التشكيل الحكومي في البيرو، حتى اضطر إلى العودة بأقصى سرعة إلى سانتافي، تدفعه إلى ذلك محاولات

الجنرال بايث الانفصالية في فنزويلا، ومكائد سانتَندير السياسية في غرناطة الجديدة وقد احتاجت مانويلا في تلك المناسبة إلى وقت أطول كي يسمح لها بأن تلحق به، ولكنها حين فعلت ذلك في نهاية المطاف، كان رحيلها أشبه بتنقلات الغجر، فقد مضت بصناديقها الموزعة على اثنتي عشرة بغلة، وعبداتها الخالدات، وأحد عشر قطاً، وستة كلاب، وثلاثة قرود مُدرّبة على فنون الفحش الملكية، ودبّ مروّض ومدرَّب على إدخال الخيوط في إبر الخياطة، وتسعة أقفاص فيها ببغاوات تهذر بشتائم ضد سانتَندير بثلاث لغات.

وصلت إلى «سانتافي» في الوقت المناسب لإنقاذ ما تبقى من حياة الجنرال في ليلة الخامس والعشرين من أيلول المشؤومة. كانت قد مضت خمس سنوات على تعارفهما، لكنه كان هرماً جداً ومتشككاً، وكأن خمسين سنة قد مضت، وأحست مانويلا بأنه يتلمس طريقه من دون وجهة محددة في عتمة العزلة. وسيرجع وحده إلى الجنوب بعد وقت قصير من ذلك ليضع حداً لأطماع البيرو الاستعمارية ضد كيتو وغواياكيل، ولكن لم تعد ثمة جدوى لأي جهد يبذله. بقيت مانويلا يومئذ في سانتافي من دون أن تراودها أدنى رغبة في اللحاق به، فقد كانت تعرف أن هاربها الأبدي لم يعد يجد مكاناً يهرب إليه.

ولاحظ أولياري في مذاكراته أن الجنرال لم يكن عفوياً على الإطلاق في استذكار غرامياته السرية مثلما كان في مساء يوم الأحد ذاك في تورباك. فكّر مونتيللا عندها، وكتب ما فكّر فيه في رسالة خاصة بعد سنوات. إن ذلك الاستذكار كان علامة جليّة من علامات الشيخوخة. ولم يستطع مونتيللا، مدفوعاً بطيب مزاج الجنرال وحماسته للبوح، مقاومة إغراء سؤاله باستفزاز حميم:

«وهل مانويلا هي الوحيدة التي بقيت؟».

فقال الجنرال بجد:

«جميعهن بقين. لكن مانويلا أكثر منهن جميعاً».

غمز مونتيللا بعينه إلى أولياري، وقال:

«اعترف أيها الجنرال. كم كان عددهن؟».

فتفادى الجنرال الإجابة قائلاً:

«أقل بكثير مما تظنه أنت».

في تلك الليلة، وبينما كان الجنرال يستحم في مائه الدافئ، أراد خوسيه بالاثيوس أن يوضح له شكوكه، فقال: «إنهن خمس وثلاثون في حساباتي، من دون ذكر عصفورات الليالي الوحيدة العابرات طبعاً». كان الرقم مطابقا لحسابات الجنرال، لكنه لم يشأ البوح به أثناء الزيارة، وقال موضحاً:

«أولياري رجل عظيم، وجندي ممتاز، وصديق وفيّ، لكنه يدوّن كل شيء. وليس هناك ما هو أخطر من الذكريات المدوَّنة».

في اليوم التالي، وبعد مقابلة خاصة مطوّلة للاطلاع على الوضع على الحدود، طلب من أولياري الذهاب إلى كارتاخينا في مهمة هدفها الظاهري إطلاعه على حركة السفن المغادرة إلى أوروبا، بالرغم من أن الهدف الحقيقي للمهمة هو إطلاعه أولاً بأوّل على تفاصيل السياسة المحلية الخفية. ولم يكد أولياري يصل حتى صدّق كونغرس كارتاخينا في الثاني عشر من حزيران على التغيير الدستوري الجديد، واعترف بالحكام المنتخَبين. وقد أرسل مونتيللا الخبر إلى الجنرال مرفقاً بدعوة محتمة:

«إننا في انتظارك».

وبقي ينتظر، إلى أن جعلته الشائعة عن موت الجنرال يقفز من سريره. توجه إلى توربا كو بأقصى سرعة، ومن دون أن يتيح لنفسه التأكد من صحة الخبر، فوجد الجنرال هناك في حالة أفضل مما كان عليه في أي وقت آخر. كان يتناول الغداء مع الكونت الفرنسي رايجيكور، الذي جاء يدعوه ليذهبا معاً إلى أوروبا في سفينة بريد إنكليزية ستصل إلى كارتاخينا في الأسبوع

التالي. كانت تلك هي ذروة يوم صحّيّ. فقد قرّر الجنرال مواجهة سوء حالته الجسدية بصمود معنوي، ولم يكن هناك من يستطيع القول إنه لم يتوصل إلى ذلك. كان قد استيقظ مبكراً وتجوّل بين الحظائر في ساعة حلب الأبقار، وزار معسكر الجنود، واطلع منهم على ظروف معيشتهم، وأصدر أوامر صارمة بتحسينها. وفي طريق عودته، توقف في أحد مقاهي السوق، فتناول القهوة، وحمل معه الفنجان كي يتجنب مذلة أن يكسروه. وكان يتوجّه إلى بيته حين أحاط به الأطفال الخارجون من المدرسة عند أحد المنعطفات، وراحوا يغنون على إيقاع تصفيقهم: «يحيا المحَرِّر! يحيا المُحَرِّر!» فانهبر ولم يعد يدري ما سيفعل لو لا أن الأطفال أنفسهم أفسحوا له الطريق.

وفي البيت، وجد الكونت رايجيكور، الذي وصل من دون سابق إنذار، ترافقه المرأة الأكثر جمالاً، والأكثر أناقة، والأكثر خيلاء بين جميع مَن عرفهنّ من النساء. كانت ترتدي ملابس ركوب الخيل، بالرغم من أنها جاءت مع الكونت في عربة يجرها حمار. والشيء الوحيد الذي كشفت عنه حول شخصيتها هو أن اسمها كاميل، وأنها مواطنة من المارتينيك. ولم يضف الكونت أيّ معلومات أخرى، بالرغم من أنه سيبدي خلال ذلك اليوم ما يؤكد أنه مجنون في حبها.

أعاد حضور كاميل إلى الجنرال حماسته التي كان يتمتع بها في أزمنة أخرى، فأمر بإعداد غداء احتفالي بأقصى سرعة. وبالرغم من أن قشتالية الكونت كانت صحيحة، فإن الحديث جرى بالفرنسية، لغة كاميل. وعندما قالت إنها ولدت في تروي - إيلبت، أومأ متحمساً ولمعت عيناه الذاويتان ببريق مفاجئ، وقال:

«آه، حيث ولدت جوزفين».

فضحكت:

«أرجوك يا صاحب الفخامة، كنت أنتظر منك ملاحظة أذكى مما يلاحظه الجميع».

أبدى إحساساً بالإهانة. ودافع عن نفسه باستحضار غنائي لمعصرة لاباجير لتكرير السكر، حيث البيت الذي ولدت فيه ماري جوزفين، امبراطورة فرنسا، والذي يعلن وجوده عن بُعد عدّة فراسخ من حقول القصب المترامية، ولغط العصافير ورائحة معدات التقطير الساخنة. وفوجئت بأن الجنرال يعرف المكان جيداً، فقال لها: «الحقيقة أنني لم أذهب إلى هناك قطّ، ولا إلى أي مكان آخر في المارتينيك».

فقالت: "Et alors?".

فقال الجنرال: «لقد أعددت نفسي لتعلّم ذلك طوال سنوات، لأني كنت أعرف أنني سأحتاج تلك المعلومات يوماً لإرضاء أجمل امرأة في تلك الجزر».

كان يتكلم من دون توقف، بصوت مكسور، لكنه بليغ. وكان يرتدي بنطالاً من القطن المطبَّع وسترة ذات لون واحد، وخفاً أحمر. استرعت انتباهها رائحة ماء الكولونيا التي تطفو في صالة الطعام. واعترف لها بأن تلك هي إحدى نقاط ضعفه، حتى أن أعداءه اتهموه بإنفاق ثمانية آلاف بيزو من الأموال العامة على ماء الكولونيا. كان نحيلاً مثل حاله في اليوم السابق، لكن قسوة المرض لم تكن تبدو إلا في وَهَن جسده.

كان الجنرال قادراً على الكلام بسوقية مثل لصوص المواشي، حين يكون بين الرجال. لكن حضور امرأة واحدة كان كافياً لجعل تعابيره ولغته مهذبة حتى التكلّف.

نزع الجنرال بنفسه سدادة زجاجة نبيذ فاخر من بورغونيا، وتذوَّقه وصبَّه في الكؤوس، فوصف الكونت مذاقه، من دون خجل، بأنه مثل مداعبة المخمل. وكانوا يقدّمون القهوة عندما همس الكابتن ابتوربيدي شيئاً في أذنه. أصغى إليه الجنرال باهتمام، لكنه ما لبث أن دفع جسده إلى الوراء في المقعد، وقال وهو يضحك برغبة:

«اسمعوا هذا الكلام من فضلكم، لدينا هنا وفد من كارتاخينا قادم إلى جنازتي».

أدخلهم. ولم يجد مونتيللا ورفاقه مفراً من مواصلة اللعبة. ثم استدعى ضباط المرافقة عدداً من عازفي موسيقى القِرَب الذين كانوا في تلك الأنحاء منذ الليلة السابقة، ومجموعة رجال ونساء مسنين ليرقصوا رقصة الكومبيا على شرف المدعوين. فوجئت كاميل برشاقة الرقصة الشعبية ذات المنشأ الأفريقي، ورغبت في تعلمها. كانت للجنرال سمعة راقص جيد، وكان بعض المدعوين لا يزال يتذكر أنه رقص الكومبيا في زيارته الأخيرة مثل خبير في الرقص، ولكنه حين دعته كاميل ليرقص معها، رفض ذلك الشرف، وقال مبتسماً: «ثلاث سنوات مضت، وهي زمن طويل». فرقصت وحدها بعدما قدّم لها ملاحظتين تعليميتين أو ثلاث. وفجأة، خلال إحدى لحظات التوقف عن عزف الموسيقى، سُمعت صرخات تشجيع وعدة انفجارات هزّت المكان ثم تلتها طلقات أسلحة نارية، فذعرت كاميل.

قال الكونت بجد: «اللعنة، إنها ثورة!».

فقال الجنرال ضاحكاً: «لا يمكنك أن تتصوّر كم نحن بحاجة إليها. لكن هذا ويالالأسف ليس إلا مصارعة ديكة».

انتهى من تناول القهوة وهو لا يكاد ينتبه إلى ذلك، ثم أومأ بإشارة دائرية من يده داعياً الجميع إلى ساحة مصارعة الديكة. وقال:

«تعال معي يا مونتيللا لترى كم أنا ميت».

وهكذا مضى في الساعة الثانية بعد الظهر إلى ساحة مصارعة الديكة برفقة مجموعة كبيرة على رأسها الكونت رايجيكور. لكن جميع مَن كانوا في مجلس الرجال ذاك لم ينتبهوا إلّا إلى كاميل. ولم يستطع أحد أن يصدّق أن تلك المرأة الفاتنة ليست واحدة من نسائه الكثيرات، خصوصاً وأنها في مكان يحظر دخول النساء إليه. وازدادت قناعتهم بذلك عندما قيل لهم إنها

ترافق الكونت، لأنهم كانوا يعرفون أن الجنرال يرسل رجالاً آخرين برفقة عشيقاته السريات كي يشوّش الحقائق.

كانت المصارعة الثانية فظيعة. فقد انتزع ديك أحمر عينيّ خصمه بضربتين صائبتين من مهمازه. لكن الديك الأعمى لم يستسلم، وهاجم الديك الآخر بشراسة إلى أن تمكن من انتزاع رأسه وأكله بضربات متتالية بمنقاره.

قالت كاميل: «لم أتخيّل حفلة دموية مثل هذه. لكنها أعجبتني».

أوضح لها الجنرال أن المشهد يصبح أجمل بكثير عندما يحرّضون الديكة بصرخات بذيئة وبإطلاق الرصاص في الهواء، وأن مربّي الديكة كانوا متحفظين في ذلك المساء بسبب وجود امرأة، خصوصاً أنها امرأة فاتنة. نظر إليها نظرة تودد، وقال: «وهكذا فإنك أنت المذنبة».

ضحكت مستمتعة وقالت: «بل أنت المذنب يا صاحب الفخامة، لأنك حكمت هذه البلاد طوال سنوات، ولم تسن قانوناً يجبر الرجال على عدم تبديل سلوكهم في أثناء وجود النساء أو في غيابهن».

بدأ الجنرال يفقد زمام نفسه، وقال لها: «أرجوك ألّا تقولي فخامتك. يكفيني أن أكون من أنا».

في تلك الليلة، وبينما كان يطفو في مياه حوض الحمّام غير المجدية، قال له خوسيه بالاثيوس: «هذه المرأة هي أحسن صبية عرفناها». ولم يفتح الجنرال عينيه حين قال: «إنها فظيعة».

كان ظهوره في ساحة صراع الديكة، برأي الجميع، عملاً محسوباً، الهدف منه تفنيد مختلف الروايات حول مرضه، بعدما تزايدت في الآونة الأخيرة وجعلت الجميع يصدقون شائعة موته. وقد كان للأمر مردوده فعلاً، لأن جميع رسل البريد الذين خرجوا من كارتاخينا، حملوا إلى

مختلف الأنحاء نبأ حالته الصحية الجيّدة، واحتفل أنصاره في كل مكان بذلك احتفالات عامة فيها من التحدّي أكثر مما فيها من البهجة.

تمكن الجنرال يومها من أن يخدع حتى جسده ذاته، فقد واصل حماسته في الأيام التالية، ووصل به الأمر إلى حدّ السماح لنفسه بالجلوس ثانية إلى طاولة اللعب مع معاونيه الذين كانوا يجرجرون ضجرهم في أدوار من لعب الورق لا نهاية لها. كان أندريس إيبارا، أكثرهم شباباً ومرحاً، لا يزال يحتفظ بإحساسه الرومنطيقي الذي كان يتمتع به في زمن الحرب، وقد كتب في تلك الأيام إلى صديقة له في كيتو يقول: «أفضّل الموت بين ذراعيك على هذا السلام من دونك».

كانوا يلعبون ليلاً ونهاراً، مستغرقين في لغز الورق حيناً، ومتحاورين بأصوات صارخة في حين آخر، لكنهم مطارَدون دوماً بالبعوض الذي يهاجمهم حتى في أثناء النهار في تلك الأيام الماطرة، على الرغم من حرائق روث الحظائر التي كان جنود الخدمة يبقونها مشتعلة. لم يعد الجنرال إلى اللعب منذ الليلة المشؤومة في غوادواس، لأن الحادث الكريه الذي جرى له مع ويلسون خلف لديه مرارة كان يرغب من أعماق قلبه في محوها، لكنه كان يسمع صراخهم وهو في أرجوحة النوم، ويسمع نجواهم، وحنينهم إلى الحرب في بطالة ذلك السلام المتملّص. وفي إحدى الليالي، جال عدة مرّات في أنحاء البيت، ولم يستطع مقاومة إغراء التوقف في الممر. وأشار لمن كانوا يواجهونه أن يبقوا صامتين، ثم اقترب من أندريس إيبارا ليقف وراءه، ووضع يديه على كتفَيّ أندريس، مثل مخالب طير جارح، وسأله:

«قل لي يا ابن العم، أأنت أيضاً ترى أن لي وجه ميت؟».

لم يلتفت إيبارا المعتاد على تلك الأساليب، وقال: «لا يا سيدي الجنرال».

فقال هو: «أنت أعمى إذن، أو أنك تكذب».

قال إيبارا: «أو أنني أوليك ظهري».

أبدى الجنرال اهتمامه باللعبة، فجلس معهم، ثم انتهى به الأمر إلى اللعب. كان ذلك يعني للجميع العودة إلى الأحوال الطبيعية، ليس في تلك الليلة فقط، وإنما في الليالي التالية أيضاً. «ريثما يصلنا جواز السفر» مثلما قال الجنرال. ومع ذلك، فقد أكّد له خوسيه بالاثيوس أن الأمر قد وصل بضباط المرافقة حتى خصياتهم من ذلك الذهاب والإياب الفارغ، بالرغم من طقوس الورق، وبالرغم من اهتمامه الشخصي، وبالرغم منه بالذات.

لم يكن هناك مَن هو مهتم مثله بمصير ضباطه، وبتفاصيل حياتهم اليومية وآفاق قدَرهم، ولكن حين تكون المشاكل عويصة، كان يحلها بخداع نفسه. منذ الحادث مع ويلسون، ثم على امتداد الرحلة في النهر، كان يوقف آلامه ليهتم بهم. لقد كان تصرّف ويلسون غير متوقَّع، ولم يكن ليدفعه إلى رد فعل على ذلك القدر من الفظاظة إلا إحباط خطير جداً. كان الجنرال قد قال عنه حين رآه يقاتل في معركة خونين: «إنه عسكري جيد مثل أبيه» ثم أضاف: «وهو أكثر تواضعاً»، حين رفض قبول الترقية إلى رتبة كولونيل التي منحه إياها الماريشال سوكره، وأجبره الجنرال نفسه على قبولها.

كان النظام الذي يفرضه عليهم جميعاً، سواء في السلم أو في الحرب، لا يعتمد على انضباط حديدي وحسب، وإنما كذلك على إخلاص يتطلب بُعد نظر. كانوا رجال حرب، بالرغم من أنهم ليسوا رجال ثكنات، فقد قاتلوا كثيراً من دون أن تتاح لهم فرصة التخييم. كان بينهم نماذج من جميع الأصناف، أما نواة مَنْ صنعوا الاستقلال قريباً من الجنرال، فكانوا زهرة الأرستقراطية الكريولية، ممن ترَبّوا في مدارس الأمراء. وقد أمضوا حياتهم في القتال، متنقلين من مكان إلى آخر، بعيداً عن بيوتهم،

وعن نسائهم، وعن أبنائهم وبعيداً عن كل شيء. وقد حوّلتهم الحاجة إلى سياسيين ورجال حكومة. جميعهم كانوا فنزويليين، باستثناء ايتوربيدي والمرافقين الأوروبيين، وجميعهم يكادون يكونوا أقرباء الجنرال بالدم أو بالمصاهرة: فرناندو، وخوسيه لاورينثيو، والأخوة إيبارا، وبريثينيو مينديث. لقد كانت الروابط الطبقية وروابط الدم تجمعهم وتوحّدهم.

واحد منهم كان مختلفاً: إن خوسيه لاورينثو سيلفا، ابن قابلة قرية أليتناكو في لوس ليانوس، وصيّاد سمك نهري. ورث عن أبيه وأمه سمرة قاتمة في البشرة، وكان من طبقة الملوَّنين الدنيا، لكن الجنرال زوّجه من فيليثيا، إحدى بنات أخته. وقد بدأ حياته المهنية جندياً متطوعاً في الجيش المُحَرِّر وهو في السابعة عشرة من عمره، ووصل إلى رتبة جنرال حين بلغ الثامنة والخمسين، وقد أصيب بأكثر من خمسة عشر جرحاً بليغاً وعدد من الجراح الخفيفية بأسلحة متنوعة في اثنتين وخمسين معركة تشمل جميع حملات الاستقلال تقريباً. العائق الوحيد الذي سببه له لون بشرته هو رفض إحدى سيدات الارستقراطية المحلية مراقصته في إحدى الحفلات الراقصة. وقد طلب الجنرال حينئذ إعادة عزف الفالس، ورقصه معه.

كان الجنرال أولياري هو الطرف النقيض: فهو أشقر، طويل القامة، ذو هيئة وجيهة، تزيد من حسنها بدلاته الفلورنسية. كان قد وصل إلى فنزويلا وهو في الثامنة عشرة، برتبة فارس في فيلق الفرسان الحمر، وقد قضى خدمته كلها في جميع معارك الاستقلال. كما أنه مرّ بمحنة، مثل الجميع، عندما اعتبر سانتَندير محقاً في نزاعه مع خوسيه أنطونيو بايث، حين أرسله الجنرال للبحث عن صيغة وفاق معه. لم يعد الجنرال يحييه وتركه مهملاً طوال أربعة عشر شهراً، إلى أن بردت أحقاده عليه.

لم يكن هناك مجال للجدال حول الجدارة الشخصية التي يتمتع بها كل واحد منهم. لكن السيئ في الأمر هو أن الجنرال نفسه لم يكن يعي مطلقاً

سَدّ السلطة الذي يرفعه أمامهم، وهو السدّ الذي كان يصبح أكثر مناعة كلما ظن هو أنه أصبح أكثر انفتاحاً عليهم ورأفة بهم. وفي الليلة التي بيّن له فيها خوسيه بالاثيوس حالتهم المعنوية، لعب معهم كندٍّ لهم، وكان يخسر متعَمّداً، إلى أن استسلم الضباط للراحة وباحوا بمكنون قلوبهم.

تبين له أنهم لا يحملون خيبات أمل قديمة. ولا يهتمون بمشاعر الهزيمة التي تسيطر عليهم بالرغم من أنها تأتي بعد كسبهم للحرب. ولا يهتمون بالتباطؤ الذي يفرضه على ترقياتهم ليحول بذلك دون إظهارهم بمظهر من يتمتعون بامتيازات خاصة، كما لم تكن تهمهم حياة التشرد التي يعيشونها، ولا مِحَن الغراميات العابرة. كانت الرواتب العسكرية قد خُفّضت إلى الثلث بسبب عوَز البلاد الضرائبي، وكانت تُدفع لهم مع ذلك متأخرة ثلاثة شهور، وبسندات حكومية غير مضمونة الصرف، يبيعونها بخسارة إلى المضاربين بالبورصة. لكن ذلك كله لم يكن يهمهم، كما لم يكن يهمهم خروج الجنرال من البلاد صافقاً وراءه الباب صفقة تدوّي أصداؤها في جميع أرجاء العالم، ولا ذهابه وتركه لهم تحت رحمة أعدائهم. لم يكن يهمّهم أي شيء من ذلك: فالمجد للآخرين. لكن ما لم يتحملوه هو ذلك الشك الذي راح يبثه فيهم منذ اتخذ قرار التخلي عن السلطة، ثم صار يزداد بشكل لا يُطاق كلما تقدموا وتورَّطوا أكثر في تلك الرحلة اللانهائية إلى اللامكان.

أحسّ الجنرال في تلك الليلة بالرضى التام، حتى أنه قال لخوسيه بالاثيوس وهو يستحمّ ألّا يحاول وضع أية ظلال بينه وبين ضباطه. ومع ذلك، فإن الإحساس الذي بقي لدى الضباط هو أنهم لم يتمكنوا من أن يبثّوا في الجنرال إحساساً بالعرفان أو بالذنب، وإنما بذَرّة عدم الثقة.

وكان من أحسّ بذلك أكثر من سواه هو خوسيه ماريا كارينيو. فمنذ ليلة المحادثة في السفينة صار يبدي النفور، وأخذ يغذّي من دون وعي منه الشائعة القائلة إنه على اتصال مع انفصاليي فنزويلا. أو أنه أصبح ساحلياً،

حسب تعبير ذلك الزمان. قبل أربعة أعوام من ذلك، كان الجنرال قد طرده من قلبه، مثلما فعل باولياري، ومونتيللا، وبريثينيو مينديث، وسانتانا وكثيرين غيرهم، وذلك لمجرد ارتيابه بأنه يسعى إلى نَيْل شعبية على أكتاف الجيش. لاحقه الجنرال، مثلما فعل في ذلك الحين وراح يتشمّم آثاره، وينصت للأقاويل التي تدبَّر ضده، يريد أن يلمح بريقاً في ظلمات شكوكه.

وفي إحدى الليالي، سمعه يتكلم في الحجرة المجاورة، من دون أن يعرف إذا كان نائماً أم مستيقظاً، وكان يقول إن الوصول إلى الخيانة من أجل سلامة الوطن هو أمر مشروع. أمسكه الجنرال حينئذ من ذراعه، وقاده إلى الفناء، وأخضعه إلى سحر إغرائه الذي لا يُقاوَم، بموَدّة محسوبة لا يلجأ إليها إلا في المناسبات الحرِجة. فاعترف له كارينيو بالحقيقة: لقد كان يؤلمه فعلاً تخلي الجنرال عن الإنجاز الذي حققه، وعدم اهتمامه باليُتم الذي صاروا إليه جميعهم. لكن مخططاته للخيانة كانت مخلصة في ولائها. فبعدما ملّ من العثور على بارقة أمل في رحلة العميان تلك، ولعجزه عن مواصلة العيش من دون روح، قرّر الهرب إلى فنزويلا ليقود من هناك حركة مسلحة في سبيل الوحدة الشاملة. وانتهى قائلاً:

«لم يخطر لي أي مخرج مشرِّف آخر».

فسأله الجنرال:

«وما الذي تظنه أنت: هل ستلقى في فنزويلا معاملة أفضل؟».

لم يتجرّأ كارينيو على الردّ بالإيجاب، فقال:

«حسن، لكن فنزويلا هي الوطن على الأقل».

قال الجنرال:

«لا تكن نذلاً. الوطن بالنسبة لنا هو أميركا، وأميركا بأسرها في وضع مماثل: إنها حالة لا علاج لها».

لم يتِح له المجال لقول المزيد. حدّثه مطولاً، مُظهِراً له في كل كلمة ما يمكنه أن يبدو معبّراً عن أعماق قلبه، بالرغم من أن كارينيو أو أي شخص آخر، لم يكن يعرف إن كان ذلك صحيحاً. وأخيراً، ربّت على ظهره، وتركه في الظلام قائلاً له:

«كفاك هذياناً يا كارينيو. فكل ما عملناه ذهب مع الشيطان».

يوم الأربعاء، السادس عشر من حزيران، تلقى نبأ مصادقة الحكومة على راتبه التقاعدي مدى الحياة، والذي كان الكونغرس قد وافق عليه. فبعث إشعاراً بالاستلام إلى الرئيس موسكيرا مع رسالة رسمية لا تخلو من سخرية، وعندما انتهى من إملائها قال لفرناندو، محاكياً لهجة الجلال والتفخيم الطقوسية التي يستخدمها خوسيه بالاثيوس: «إننا أثرياء». ويوم الثلاثاء، الثاني والعشرين من الشهر نفسه، تلقّى جواز السفر ليغادر البلاد، فهزّه في الهواء قائلاً: «إننا أحرار». بعد يومين من ذلك، وحين استيقظ بعد ساعة من النوم السيئ، فتح عينيه وهو في أرجوحة النوم، وقال: «إننا حزينون». عندئذ قرّر السفر إلى كارتاخينا في الحال، منتهزاً فرصة أن ذلك اليوم كان يوماً غائماً وبارداً. الأمر المحدَّد الوحيد الذي أصدره هو أن يسافر معاونوه الضباط بالملابس المدنية ومن دون أسلحة. لم يقدّم أي تفسير لذلك، ولم يُبدِ أي إشارة توحي بدوافعه، ولم يُتح الوقت لوداع أحد. فقد انطلقوا فور إعداد الحرس الشخصي، وتركوا الأحمال إلى ما بعد، لتأتي مع بقية الموكب.

اعتاد الجنرال التوقف في رحلاته وقفات عرَضية لتقصّي مشاكل الناس الذين يجدهم في الطريق. كان يسألهم عن كل شيء: أعمال أولادهم، أصناف أمراضهم، أحوال تجاراتهم وأعمالهم، ورأيهم وما يفكرون به

في كل شيء. أما في تلك المرّة فلم يقل كلمة واحدة، ولم يبدّل إيقاع خطواته، ولم يسعل، ولم يبدِ علائم التعب، وعاش اليوم كله على كأس من نبيذ الأوبورتو. وفي نحو الساعة الرابعة مساء، ظهر في الأفق شبح دير جبل لابويا القديم. كانت تلك هي فترة المناسك، وكانت تظهر للعيان من الطريق العام صفوف الحجّاج وكأنها نعال بغّالة يرتقون الدرب الجبليّ الضيّق والمائل. بعد ذلك بقليل رأوا عن بعد البقعة الأبدية التي تكوّنها طيور الرخمة وهي تطير في دوائر فوق السوق العام ومياه المسلخ. وعند رؤية الأسوار، أومأ الجنرال مشيراً إلى خوسيه ماريا كارينيو، فلحق به هذا الأخير، ومدّ له الجزء القوي المتبقي من ذراعه المبتورة ليستند إليه، مثلما يفعل مربّو الصقور.

قال له بصوت خافت: «لديّ مهمة سرية لك. عندما تصل، تحرّ لي أين هو سوكره». ربّت على ظهره التربيتة المعهودة، وأضاف: «هذا أمر سيبقى بيننا طبعاً».

كان ينتظرهم على الطريق العام موكب حاشد يرأسه مونتيللا، ووجد الجنرال نفسه مضطراً إلى إكمال الرحلة في العربة الفخمة القديمة، التي كان يستخدمها حاكم الولاية الإسبانية، والتي تجرّها مجموعة من البغال الزاهية. وبالرغم من أن الشمس بدأت تميل نحو الغروب، فقد بدت أغصان أشجار المانغلي وكأنها تغلي من الحرّ في المستنقعات الميتة المحيطة بالمدينة. وكانت روائح المستنقعات المنتنة أشد وطأة من مياه الخليج البحري المتعفنة منذ نحو قرن من الزمان بدماء المسلخ وفضلاته. عندما دخلوا من بوابة ميديا لونا، هبّت ريح أثارتها طيور الرخمة وارتفعت من السوق إلى الهواء الطلق. كانت لا تزال هناك بقية ذعر من كلب مصاب بداء الكلب، عضّ في الصباح عدة أشخاص يعملون في مهن مختلفة، بينهم رجل أبيض من قشتالة كان يتجوّل في مكان لا يعنيه. وقد عضّ كذلك بضعة صبيان من حي العبيد، لكن هؤلاء الصبيان أنفسهم تمكنوا من

قتله بالحجارة. وكانت جثة الكلب معلقة على شجرة عند باب المدرسة. أمر الجنرال مونتيللا بإحراقها، ليس لأسباب صحيّة فقط، وإنما للحيلولة كذلك دون محاولة استخدام شؤمه رُقْيَة في الشعوذات الأفريقية.

كان سكان القطاع المسوَّر قد خرجوا إلى الشوارع، إثر استدعائهم ببلاغ مستعجل. وكانت الأمسيات قد بدأت تطول وتصفو في الانقلاب الحزيراني، وكانت هناك أكاليل زهور ونساء يرتدين الملابس الشعبية المدريدية على الشرفات، وكانت نواقيس الكاتدرائية وموسيقى الفرقة البلدية وطلقات المدافع تدوّي حتى البحر. لكن شيئاً من ذلك كله لم يستطع تخفيف البؤس الذي كانوا يريدون إخفاءه. أما الجنرال الذي كان يحيي الناس بقبَّعته وهو في العربة المشققة، فلم يستطع إلا أن يرى نفسه تحت ضوء من الشفقة، حين قارن ذلك الاستقبال التافه بدخوله الظافر إلى كاراكاس في شهر آب العام 1813، متوَّجاً بالغار في عربة تجرّها أجمل ست فتيات في المدينة، ووسط حشود مغتسلة بالدموع خلّدته في ذلك اليوم باسمه المجيد: المُحَرِّر. كانت كاراكاس لا تزال في ذلك الحين بلدة نائية في الولاية الاستعمارية، قبيحة وكئيبة وبائسة، لكن أمسيات أفيلا كانت مؤثرة تمزق القلب حنيناً.

لم يكن ممكناً لهذا الاستقبال وذاك أن يبدوا حدثين من ذكريات حياة الشخص نفسه. فمدينة كارتاخينا دي إندياس، النبيلة والبطلة، وعاصمة الولاية الاستعمارية عدة مرّات، والتي تغنّى بها الشعراء آلاف المرّات على أنها أجمل مدينة في العالم، لم تكن يومئذ ولو مجرد شَبَه لما كانت عليه من قبل. فقد عانت من تسعة حصارات عسكرية، من البرّ والبحر، ونُهبت عدة مرّات على أيدي القراصنة والجنرالات. لكن شيئاً لم يدمّرها مع ذلك مثلما دمرتها حروب الاستقلال، ثم الحروب بين الفئات المختلفة في ما بعد. كانت أسر الأزمنة الذهبية الثرية قد هربت. وانساق العبيد القدماء وراء حرية غير مجدية، وكانت قصور الأمراء التي استولت عليها

جموع الفقراء تطلق إلى مزابل الشوارع جزذاناً ضخمة مثل القطط. أما حزام الحصون المنيعة التي رغب دون فيليب الثاني برؤيتها من فوق شرفة قصر الأسكوريال بأجهزته للرؤية عن بعد، فلم يكن بالإمكان إلا تخيّلها ما بين الأجمات الكثيفة. وتحول السوق الذي كان مزدهراً بتجارة العبيد في القرن السابع عشر، إلى بضعة دكاكين خربة. ولم يكن ممكناً مصالحة المجد مع روائح النتانة المنبعثة من المجاري المكشوفة. فتنهّد الجنرال هامساً في أذن مونتيللا:

«كم كلفنا غالياً هذا الاستقلال الخرائي!».

جمع مونتيللا في تلك الليلة جميع أعيان المدينة في بيته الفخم في شارع لافاكتوريا، حيث عاش مركيز فالديهويوس حياة تعيسة، فيما أثرت مركيزته من تهريب الدقيق والمتاجرة بالزنوج. أضيئت أنوار فصح القيامة في البيوت الكبرى، لكن الجنرال لم يوهم نفسه، فقد كان يعلم أن أي أمر مهما كان نوعه، بما في ذلك موت شخصية بارزة، يمكن له أن يكون في منطقة الكاريبي مبرراً لحفلة صاخبة. وكان ما جرى هو حفلة زائفة فعلاً. فقبل عدة أيام كانت توزّع منشورات شائنة ضده، وقد حرَّض الحزب المعادي عصاباته لترجُمَ النوافذ بالحجارة وتتشاجر مع الشرطة بالهراوات. وقد قال مونتيللا بظرفه المعتاد: «لم يبق لدينا لحسن الحظ زجاج نافذة واحدة يحطمونه». وكان واعياً أن الغضب الشعبي موجّه ضده شخصياً أكثر مما هو موجّه ضد الجنرال. عزز جنود الحراسة بوحدات محلية، وفرض طوقاً حول المنطقة، وحظر نقل أي شيء إلى ضيفه عن حالة الحرب المفروضة في الشارع.

جاء الكونت رايجيكور في تلك الليلة ليقول للجنرال إن سفينة البريد الإنكليزية قد أصبحت في مجال الرؤية من قلاع بوكاتشيكا، لكنه عدل عن السفر بها. وكان السبب المعلن هو أنه لا يريد أن يتقاسم امتدادات المحيط مع مجموعة نساء سيسافرن متكوّمات في القمرة الوحيدة في

السفينة. أما السبب الحقيقي، فكان إدراك الكونت أن الجنرال لم يكن في حالة صحيّة تمكّنه من السفر، بالرغم من الغداء الدنيوي في توورباكو، وبالرغم من مغامرة ساحة صراع الديكة، وبالرغم من كل ما فعله الجنرال لتجاوز مِحَن صحته. وفكّر الكونت بأن الجنرال قد يكون قادراً على اجتياز المحيط بمعنوياته، لكن جسده عاجز عن فعل ذلك، ورفض أن يقدم خدمة للموت. مع ذلك، لم تستطع هذه الأسباب ولا كثير غيرها أن تثني الجنرال عن عزمه.

لم يرضخ مونتيللا للاستسلام. ودّع ضيوفه باكراً كي يتمكن المريض من الراحة، لكنه أبقاه طويلاً بعد ذلك في الشرفة الداخلية، فيما كانت صبيّة هزيلة ترتدي عباءة من الموسلين، تكاد تكون غير مرئية، تعزف لهما على قيثارة سبع أغنيات غرامية. كانت معزوفات جميلة جداً، وقد عُزفت برقّة بالغة جعلت الرجلين العسكريين عاجزَيْن عن الكلام إلى أن كنست رياح البحر آخر رماد الموسيقى من الجو. بقي الجنرال مخدَّراً في الكرسي الهزاز، طافياً في أمواج القيثارة، وفجأة اهتز من أعماقه وغنّى بصوت خافت جداً، لكنه واضح وحسن النغمة، الكلمات الكاملة للمعزوفة الأخيرة. ثم التفت في النهاية إلى العازفة مدمدماً بامتنان خرج من أعماق روحه. لكن ما رآه لم يكن سوى القيثارة وإكليل من الغار الذابل. عندئذ تذكر:

«هناك رجل سجين في أوندا لاقترافه قتلاً مبرراً».

سبقت ضحكة مونتيللا قفشة: «وما هو لون قرنيه؟».

تجاهل الجنرال السؤال، وشرح له القضية بكل تفاصيلها، مستثنياً سابقته الشخصية مع ميراندا ليندساي في جامايكا.

وكان لدى مونتيللا حل سهل:

«عليه أن يطلب نقله إلى هنا لأسباب صحيّة. وعندما يصل إلينا نبدأ في مسألة العفو».

سأل الجنرال: «وهل هذا ممكن؟».

«غير ممكن، لكنه يحدث» - قال مونتيللا.

أغمض الجنرال عينيه متجاهلاً ضجة الكلاب الليلية التي انطلقت فجأة، وظن مونتيللا أنه قد غفا ثانية. وبعد تأمّل عميق، فتح عينيه من جديد وحفظ القضية قائلاً:

«موافق. لكنني لا أعرف عن الأمر أي شيء».

بعد ذلك فقط انتبه إلى النباح الذي كان يتّسع في موجات وحيدة المركز انطلاقاً من القطاع المسوَّر وحتى أبعد المستنقعات، حيث توجد كلاب مُدرّبة على عدم النباح كي لا تكشف أصحابها. روى له الجنرال مونتيللا أنهم يقومون بتسميم كلاب الشوارع ليمنعوا انتشار داء الكلب. وأنهم لم يستطيعوا الإمساك إلا بصبيَّين اثنين ممن عضهم الكلب في حي العبيد. أما الآخرون، فقد خبّأهم آباؤهم كالعادة، في مستنقعات ماريا باخا، حيث لا تصل ذراع الحكومة، كي يحاولوا إنقاذ حياتهم بالشعوذات.

لم يحاول الجنرال أبداً إلغاء تلك الشعائر القدَرية، لكن تسميم الكلاب بدا له أمراً لا يليق بالصفة الإنسانية. فقد كان يحب الكلاب كثيراً مثلما يحب الخيول والأزهار. فعندما أبحر إلى أوروبا أوّل مرّة، حمل معه زوجاً من الجراء حتى فيراكروث، وقد كان برفقته أكثر من عشرة كلاب عندما اجتاز جبال الأنديز انطلاقاً من لوس ليانوس في فنزويلا، على رأس أربعمئة من مواطني لوس ليانوس الحُفاة، لتحرير غرناطة الجديدة وتأسيس جمهورية كولومبيا. وكان يأخذ معه كلاباً إلى الحرب دوماً. وأشهر كلابه هو نيفادو، الذي رافقه منذ حملاته الأولى، وهزَم وحده فصيلة من عشرين كلباً ضارياً من كلاب الجيوش الإسبانية، وقد قُتل بطعنة رمح في معركة كارابوبو الأولى. وفي ليما، كان لدى مانويلا ساينث من الكلاب أكثر مما تستطيع رعايته، إضافة إلى حيوانات من مختلف الأجناس، كانت تربيها في «لامجدلينا». وقد قال أحدهم للجنرال يوماً إنه عندما يموت كلب

يجب استبداله فوراً بكلب آخر يشبهه وتسميته بالاسم ذاته لمواصلة الاعتقاد بأنه الكلب نفسه. لكنه لم يوافق على ذلك الرأي. فقد كان يختار كلاباً مختلفة على الدوام، ليتذكر كل واحد منها بهويته الذاتية، بحنين عينيه، وبقلق أنفاسه، ولكي يتألم لميتاتهم. وفي ليلة الخامس والعشرين من أيلول المشؤومة، أدرج في قائمة ضحايا الهجوم الكلبين السلوقيَّين اللذين ذبحهما المتآمرون. أما في رحلته الأخيرة تلك، فكان معه الكلبان الآخران، إضافة إلى الكلب الأعرج الذي وجدوه في النهر. الخبر الذي أطلعه عليه مونتيللا، بأنهم سمموا أكثر من خمسين كلباً في اليوم الأول وحده، أفسد الحالة المعنوية التي خلفتها فيه قيثارة الحب.

أبدى مونتيللا أسفاً حقيقياً، ووعد بألّا يكون هناك مزيد من الكلاب الميتة في الشارع. هدّأ الوعد من اضطرابه، ليس لأنه صدّق أن الوعد سينفَّذ، وإنما لأن طيب نوايا جنرالاته كان يبعث العزاء في نفسه. وقد تولّى بهاء تلك الليلة الباقي. كانت تنبعث من الفناء المُضاء روائح الياسمين، وكان الهواء يبدو وكأنه من ماس، وكان عدد النجوم في السماء أكبر منه في أي وقت آخر. «مثل الأندلس في شهر نيسان»، لقد قال تلك العبارة في زمن آخر، متذكراً ما كان قد قاله كولومبس. لكن ريحاً معاكسة كنست الأصوات والروائح، ولم يبق سوى صوت تحطم الموج على الأسوار.

«لا تذهب يا جنرال» - قال مونتيللا متوسلاً.

فقال الجنرال: «السفينة في المرفأ».

«ستأتي سفن أخرى» - قال مونتيللا.

فرد عليه: «سيّان. فكل سفينة ستكون هي الأخيرة».

لم يتراجع قيد أنملة. وبعد توسلات كثيرة مبدَّدة، لم يبق أمام مونتيللا من وسيلة إلا أن يبوح له بالسر الذي أقسم على صونه حتى عشية الوقائع: فالجنرال رافائيل أوردانيتا، على رأس الضباط البوليفاريين، يُعدّ لتحرّك

انقلابي في سانتافي خلال الأيام الأولى من شهر أيلول. لم يفاجأ الجنرال بذلك، خلافاً لما كان مونتيللا ينتظره. وقال:

«لم أكن أعرف، ولكن من السهل تصوّر ذلك».

كشف له مونتيللا حينئذ عن تفاصيل المؤامرة العسكرية التي كانت على علم بها جميع الحاميات الموالية له في البلاد، بالاتفاق مع ضباط من فنزويلا. فكّر الجنرال في الأمر بعمق، وقال:

«لا معنى لهذا كله. إذا كان أوردانيتا يريد أن يعيد تشكيل العالم حقاً، فليرتب الأمور مع بايث ويأتي لإعادة تاريخ السنوات الخمس عشرة الأخيرة ابتداء من كاراكاس وحتى ليما. أما من هناك إلى باتاغونيا، فسيكون الأمر مجرد نزهة». إلا أنه ترك باباً مفتوحاً حين سأل قبل أن يذهب إلى النوم: «وهل سوكره على علم بذلك؟».

فقال مونتيللا: «إنه يعارض».

قال الجنرال: «بسبب خلافه مع أوردانيتا طبعاً».

قال مونتيللا: «لا، لأنه ضد كل ما من شأنه أن يحول دون ذهابه إلى كيتو».

فقال الجنرال:

«إنه على أي حال الشخص الذي يجب الحديث معه. أما حديثكم معي فهو إضاعة للوقت».

بدا وكأن تلك هي كلمته الأخيرة، حتى أنه أصدر أمراً إلى خوسيه بالاثيوس في اليوم التالي بنقل الأمتعة إلى السفينة عند دخولها الخليج، وأرسل إلى ربّان السفينة يطلب منه أن يرسو بها في المساء قبالة حصن سانتو دومينيغو، بحيث يتسنى له رؤيتها من شرفة البيت. كانت استعداداته تلك محدَّدة ودقيقة حتى ظنَّ ضباطه أنه لن يأخذ معه أي واحد منهم، لأنه لم يقل مَن هم الذين سيسافرون معه. وتصرف ويلسون حسبما كان مقرراً

منذ شهر كانون الثاني، فنقل أمتعته إلى السفينة من دون أن يستشير أحداً.

وحتى مَن هم أقل قناعة برحيلة، ذهبوا لوداعه حين رأوا في الشارع العربات الست المحمَّلة والمتوجهة نحو مرسى الخليج. كان الكونت رايجيكور، برفقة كاميل هذه المرّة، هو ضيف الشرف على الغداء. وكانت كاميل تبدو أكثر نضارة، وعيناها أقل قسوة وهي تربط شعرها المشدود في غديرة فوق ظهرها، وترتدي ثوباً أخضر، وخفاً بيتياً له اللون ذاته. وقد دارى الجنرال بلطف ضيفه من رؤيتها. وقال بالقشتالية:

«لا بد أن السيّدة واثقة تماماً من جمالها حتى ترى أن الأخضر يناسبها».

وترجم الكونت ما قاله فوراً، فأطلقت كاميل ضحكة امرأة حرّة أشبعت البيت كله بأنفاسها التي لها رائحة عرق السوس، وقالت:

«لا أريد أن نبدأ من جديد يا دون سيمون».

وكان شيء قد تغيّر فيهما، فلم يتجرأ أيّ منهما على تجديد المبارزة الكلامية التي نشبت بينهما في المرّة الأولى، خوفاً من إهانة الآخر. نسيته كاميل وهي تتنقل بين أناس نالوا التربية اللازمة كي يتحدثوا بالفرنسية في مناسبات مثل تلك. مضى الجنرال لتبادل الحديث مع سيباستيان دي سيغونيثا، وهو راهب فاضل يتمتع بشهرة يستحقها عن جدارة لمعالجته هومبولدت من الجدري الذي أصيب به لدى مروره في المدينة في العام صفر. وكان الراهب نفسه هو الوحيد الذي لا يولي ذلك الأمر أهمية ويقول: «لقد هيّأ الربّ لأن يموت أناس بالجدري وينجو آخرون، وقد كان البارون من الفئة الأخيرة». وكان الجنرال قد طلب التعرّف عليه في زيارته السابقة للمدينة، حين علم أنه يعالج ثلاثمئة مرض مختلف بأدوية تُستخلَص من الصبر[1].

---

(1) الصبر: هو النبات الطبي المعروف بعصارته المرّة. وتسميته الإسبانية Sàbila أو Zàbila ذات أصل عربي.

أمر مونتيللا بالإعداد لعرض الوداع العسكري عندما رجع خوسيه بالاثيوس من المرفأ، حاملاً رسالة من الربان بأن السفينة ستكون قبالة البيت بعد الغداء. وبسبب حدّة الشمس في ذلك الوقت الحزيراني، أمر بوضع مظلات للزوارق التي ستحمل الجنرال من حصن سانتو دومينغو حتى السفينة. في الساعة الحادية عشرة، كان البيت يغصّ بمدعوين ومتطوعين غارقين في الحرّ، وامتلأت المائدة بكل أصناف الطعام المحلي المثيرة للفضول. لم تفهم كامبل سبب الاضطراب الذي ساد الصالة، إلى أن سمعت الصوت المتهدج قريباً من أذنها: "Aprés Vous, madame". ساعدها الجنرال على ملء طبق بشيء قليل من كل صنف، موضحاً لها اسم كل نوع من الطعام وطريقة إعداده وأصله، ثم أعدّ لنفسه وجبة منتقاة بشكل أفضل، أمام ذهول طاهيته التي كان قد رفض منها قبل ساعة قطعاً من حلوى الغويريرا، ألذّ من تلك الموجودة على المائدة. ثم شق طريقه مع كاميل بين الجموع التي تبحث عن مكان تجلس فيه، وقادها إلى البركة ذات الأزهار المائية الكبيرة في الشرفة الداخلية، وحاصرها من دون مقدمات، قائلاً لها:

«سيكون ممتعاً أن نلتقي في كينغستون».

فقالت من دون ذرة واحدة من المفاجأة:

«ليس هناك ما يعجبني أكثر من ذلك. إنني مولعة بجبال مونتيس أثوليس».

«وحدك؟».

فقالت:

«سيّان مع مَن أكون، فأنا وحيدة دائماً». ثم أضافت بخبث: «يا صاحب الفخامة».

ابتسم وقال: «سأبحث عنك عبر هيسلوب».

كان ذلك هو كل شيء. ثم قادها ثانية عبر الصالة إلى المكان الذي التقيا فيه، فاستأذن منها، وترك طبقه على حافة النافذة من دون أن يتذوّق منه شيئاً، وعاد إلى مكانه. لم يعرف أحد متى اتخذ قرار البقاء، ولا السبب الذي دفعه إلى اتخاذه. كان متضايقاً من السياسيين الذين يتكلمون عن الخلافات المحلية عندما التفت فجأة نحو رايجيكور وقال من دون أية مناسبة، وبصوت عال ليسمعه الجميع:

«أنت على حق أيها السيّد الكونت. ما الذي سأفعله مع كل أولئك النساء وأنا في هذه الحالة المحزنة».

فقال الكونت متنهداً: «أجل أيها الجنرال». وسارع إلى القول: «ثم إن شانون ستصل الأسبوع القادم، وهي فرقاطة إنكليزية لا توجد فيها حجرة جيدة وحسب، بل يوجد على متنها طبيب أيضاً».

قال الجنرال: «هذا أسوأ من مئة امرأة».

كان ذلك التوضيح على أية حال مجرد ذريعة، لأن أحد الضباط كان مستعداً للتنازل له عن قمرته حتى جامايكا. وكان خوسيه بالاثيوس هو الوحيد الذي أصاب الحقيقة بعبارته الدائمة: «ما يفكر به سيدي، لا يعرفه أحد سوى سيدي». ثم إنه ما كان سيستطيع السفر في كل الأحوال، لأن سفينة البريد ارتطمت بالشاطئ وهي تتقدم لترسو قبالة حصن سانتو دومينغو، وأصيبت بعطل بالغ.

وهكذا بقي، وكان شرطه الوحيد هو عدم مواصلته الإقامة في بيت مونتيللا. كان الجنرال يرى فيه أجمل بيت في المدينة، لكنه كان شديد الرطوبة على عظامه نظراً لقربه من البحر، وخصوصاً في الشتاء، حين كان يستيقظ وملاءات سريره مبللة. ما كانت تتطلبه حالته الصحية هو هواء أقل أبهة من هواء القطاع المسوَّر. وفسّر مونتيللا الأمر بأنه ينوي البقاء لوقت طويل، فسارع إلى إرضائه.

كانت هناك على التلال المحاذية لجبل بوبا ضاحية استجمام أحرقها الغرناطيون أنفسهم سنة 1815، حتى لا تجد القوّات الملكية العائدة لاسترداد المدينة مكاناً تعسكر فيه. لكن التضحية لم تفد في شيء، لأن الإسبان تمكنوا من استعادة القطاع المحصَّن، بعد مئة وستة عشر يوماً من الحصار، وصل خلالها الأمر بالمحاصرين إلى أكل نعال أحذيتهم، ومات منهم جوعاً أكثر من ستة آلاف. وبعد مضي خمس عشرة سنة، كانت الرابية المتفحّمة لا تزال معرضة لشموس الساعة الثانية بعد الظهر. أحد البيوت القليلة التي أعيد بناؤها هناك كان ملكاً للإنكليزي جودا كينغسلير، وقد كان على سفر في تلك الأيام. لقد لفت البيت انتباه الجنرال عند مجيئه من توروباكو، بسقفه السعفي المعتنى به وجدرانه ذات الألوان الاحتفالية، ولأنه شبه مختف في غابة أشجار مثمرة. فكر مونتيللا بأن البيت لا يليق بمكانة المستأجر، لكن الجنرال ذكره بأنه قد نام في سرير دوقة ونام متدثراً بعباءة على الأرض في زريبة خنازير، وكان ذلك عنده سيّان. وهكذا استأجر البيت لوقت غير محدد، وبأجر إضافي مقابل السرير وإبريق غسل الأيدي، وكراسي الصالة الجلدية الستة التي كانت بلا مساند للظهر، والإمبيق الذي كان السيّد كنيغسلير يقطّر فيه خمرته. ونقل الجنرال مونتيللا إلى البيت كذلك تكأة من القطيفة أحضرها من دار الحكومة، وبنى عشة من القصب والطين لجنود الحراسة. كان البيت بارداً في الداخل خلال ساعات اشتداد حرارة الشمس، وأقل رطوبة في جميع الأوقات من بيت مركيز فالديهويوس، وكانت فيه أربع غرف للنوم مشرعة لكل الرياح، تدخل إليها عظاءات الإغوانا. وكان الأرق فيه أقل قحولة في ساعات الفجر، إذ كانت تسمع التفزرات المفاجئة لثمار الغوانابانا الناضجة لدى سقوطها عن الأشجار. وفي المساء، خصوصاً في الأزمنة ذات الأمطار العظيمة، كانت تشاهد مواكب الفقراء وهم يحملون غرقاهم ليسهروا على جثثهم في الدير.

لم يرجع الجنرال إلى القطاع المسوّر من المدينة، منذ انتقاله إلى بيت بيّه دي بوبا، إلا ثلاث مرّات، وكان يذهب وحيداً ليقف أمام الرسام الإيطالي أنطونيو ميوشي الذي كان يقوم بزيارة عابرة لمدينة كارتاخينا. كان الجنرال يشعر بضعف شديد، فكان يتخذ وضعية التصوير بالجلوس على الشرفة الداخلية في منزل المركيز، بين أزهار برية وعصافير منتشية، ولم يكن قادراً مع ذلك على البقاء ثابتاً لأكثر من ساعة واحدة. أعجبته الصورة، مع أنه لم يخفِ شكوكه في أن الرسام قد رآه بشفقة بالغة.

لقد صوَّره الرسام الغرناطي خوسيه ماريا اسبيوزا في مقر الإقامة الحكومي في سانتافي قبيل محاولة اغتياله في شهر أيلول، وقد بدا له الرسم يومئذ شديد الاختلاف عن الصورة التي كان يرى نفسه فيها، حتى أنه لم يستطع مقاومة الرغبة في التفريج عن نفسه مع الجنرال سانتانا، سكرتيره الخاص في ذلك الحين، فقال له:

«أتعرف من تشبه هذه الصورة؟ إنها تشبه أولايا العجوز، الذي من لاميسا».

وحين علمت مانويلا ساينث بذلك، أبدت استنكارها، لأنها كانت تعرف شيخ لاميسا. وقد قالت للجنرال:

«يبدو لي أن حبّك لنفسك صار ضئيلاً جداً. فعندما رأينا أولايا آخر مرّة كان قد بلغ الثمانين من العمر تقريباً. ولم يكن قادراً على الوقوف على قدميه».

أما أقدم صورة له، فكانت صورة صغيرة بألوان مائية ومغفلة التوقيع، رُسمت في باريس عندما كان في السادسة عشرة من العمر. وحين بلغ الثانية والثلاثين، رسموا له صورة أخرى في هايتي، وكان الرسمان أمينين جداً في إظهار سنّه وطبيعته الكاريبية. لقد كان فيه خط دم أفريقي، من جد ثالث لأبيه الذي أنجب ابناً من عبدة، وكان ذلك واضحاً في تقاطيعه، حتى

أن أرستقراطيي ليما كانوا يطلقون عليه لقب الزامبو[1]. ولكن مع اتساع أمجاده، بدأ الرسامون بتصويره في أطر من المثالية، فغسلوا دماءه، وحوّلوه إلى أسطورة، إلى أن فرضوه على الذاكرة الرسمية بتقاطيع رومانية. أما الصورة التي رسمها له اسبيوزا، فلم تكن تشبه أحداً سواه وهو في الخامسة والأربعين، وقد هدّه المرض الذي سعى جهده لإخفائه، وقد أخفاه حتى عن نفسه بالذات حتى عشية موته.

في إحدى الليالي الماطرة، ولدى استيقاظه من إغفاءة قلقة في منزل بيّه دي لابوبا، رأى الجنرال صبية جالسة في أحد أركان حجرة النوم، وكانت ترتدي حلة من الخيش كتلك التي ترتديها عضوات إحدى الأخويات الدنيوية، وتزيّن شعرها بإكليل من الكوكويول المشعّ. لقد كان الرحّالة الأوروبيون يفاجَأون، خلال العهد الاستعماري، حين يرون السكان الأصليين ينيرون الطريق بأوان ملأى بالكوكويول. ثم تحوّل ذلك في العهد الجمهوري إلى موضة بين النساء اللواتي استخدمنه على شكل أكاليل مشعَّة يضعنها على شعورهن، وتيجان ضوء على جباهنن، وبروشات براقة على صدورهن. أما الصبيّة التي دخلت في تلك الليلة إلى حجرة النوم فكانت تضعه على عصابة معقودة حول جبهتها، فتضيء وجهها ببريق شبَحيّ. كانت هزيلة وغامضة، في شعرها بعض الشيب وهي لا تزال في العشرين من عمرها، وقد اكتشف في الحال وميض الفضيلة التي يقدّرها في المرأة: الذكاء غير المروَّض. كانت قد جاءت إلى معسكر الجنود عارضة نفسها مقابل أي شيء، وقد بدت للضابط المناوب أنها شديدة الندرة، فأرسلها مع خوسيه بالاثيوس لعل الجنرال يهتم بها. دعاها للاستلقاء إلى جواره، لأنه لم يشعر أن لديه القوّة لحملها بين ذراعيه إلى أرجوحة النوم. فخلعت رداءها، وخبأت الكوكويو في قطعة قصب كانت

---

(1) زامبو Zambo: مولود من أبوين، أحدهما زنجي والاخر هندي أحمر.

تحملها معها، واضطجعت بجانبه. وبعد محادثة متعثرة، تجرّأ الجنرال وسألها عم يفكرون بشأنه في كارتاخينا، فقالت:

«يقولون إن فخامتك بخير، ولكنك تتمارض كي يشفقوا عليك».

خلع رداء النوم الذي كان يلبسه، وطلب من المرأة أن تتفحّصه على ضوء القنديل. وحينئذ تعرفت، شبراً شبراً، على أكثر الأجساد التي يمكن أن تتصورها تلفاً: البطن ضامر، والأضلاع بارزة، والساقان والذراعان مجرد عظام، وكل ذلك مغطى بجلد أمرد وشاحب شحوب الموت. أما الرأس المدبوغ في تقلبات المناخ، فكان يبدو وكأنه لجسد آخر.

قال لها: «الشيء الوحيد الذي ينقصني هو الموت».

فأصرّت الفتاة:

«الناس يقولون إنك كنت هكذا على الدوام، وإنك تريدهم أن يعرفوا ذلك الآن لأنه ملائم لك».

استسلم للبداهة. وواصل تقديم الأدلة الحاسمة على مرضه، فيما كانت هي تستسلم لإغفاءات سهلة في لحظات متقطعة، وتواصل الردّ عليه وهي نائمة، من دون أن تفقد خيط الحوار. لم يلمسها طوال الليل، وإنما اكتفى بالإحساس بوهج صباها. وفجأة، انطلق الكابتن ايتوربيدي بالغناء إلى جوار النافذة: «إذا استمرت العاصفة، واشتد الإعصار، فتمسكي بعنقي، ليبتلعنا البحر معاً». كانت أغنية من أزمنة أخرى، الأزمنة التي كانت المعدة لا تزال فيها قادرة على تحمل قدرة الاستذكار الرهيبة للجوافة الناضجة ولقسوة امرأة في الظلام. استمع الجنرال والفتاة إلى الأغنية معاً، بما يشبه التعبّد، ولكنها نامت في منتصف الأغنية الثانية، وسقط هو بعد ذلك بقليل في خمود من دون راحة. ساد صمت شديد النقاء بعد الموسيقى، حتى أن الكلاب ضجّت في النباح عندما نهضت الفتاة وتسللت على رؤوس أصابعها كي لا توقظ الجنرال. سمعها تبحث باللمس عن مزلاج الباب. فقال لها:

«ستذهبين وأنت عذراء».

فردت عليه وهي تضحك ضحكة احتفالية:

«ما من امرأة تبقى عذراء بعد قضاء ليلة مع فخامتك».

ومضت مثلما كن يمضين جميعهن. فبين جميع النساء اللواتي مررن في حياته، وبعضهن لساعات قصيرة، لم تكن هناك واحدة لمّح لها مجرد تلميح إلى فكرة البقاء معه. وكان في تهيّجاته الغرامية قادراً على تغيير العالم للقاء بهن، لكنه ما إن يُشبع رغباته حتى يكتفي بأمل مواصلة الاحتفاظ بهن في الذاكرة، مستسلماً لهن عن بعد في رسائل أخاذة، ومرسلاً إليهن هدايا يقاوم بها النسيان، إنما من دون أن يُلزم أدنى قدر من حياته في مشاعر تبدو أقرب إلى المباهاة منها إلى الحب.

ما إن بقي وحيداً في تلك الليلة، حتى نهض ليجتمع مع ايتوربيدي الذي كان يواصل الحديث مع ضباط آخرين حول النار المشتعلة في الفناء. جعله يُغنّي حتى الفجر بصحبة غيتار يعزف عليه الكولونيل خوسيه دي لاكروث باريديس، ولاحظ الجميع سوء حالته المعنوية من خلال الأغنيات التي كان يطلبها.

كان قد رجع من رحلته الثانية إلى أوروبا متحمساً للأغنيات الشعبية الرائجة، فكان يصدح بها بأعلى صوته، ويرقص على إيقاعها بظرافة لا تُضاهى في حفلات زفاف نبلاء كاراكاس. لكن الحروب بدّلت ذوقه. والأغنيات الرومنسية المستوحاة من الحياة الشعبية، التي قادته من يده في بحار غرامياته الأولى، استبدلت بالفالسات الفخمة والمارشات الانتصارية. وقد عاد في تلك الليلة في كارتاخينا إلى طلب أغنيات شبابه الرومنسية، وكان بعضها قديماً حتى أنه اضطر إلى تلقينها لإيتوربيدي الذي كان صغيراً جداً على تذكّرها. بدأ جمهور المستمعين بالتناقص مع ازدياد نزف الجنرال داخلياً، إلى أن بقي وحيداً مع إيتوربيدي إلى جوار جذوات النار.

كانت ليلة غريبة، سماؤها خالية من أي نجمة، وكانت تهب رياح بحرية محملة بنحيب يتامى وبروائح متعفنة. وكان إيتوربيدي رجلاً عظيم الصمت، يمكنه البقاء حتى الفجر ساهماً في الرماد البارد من دون أن يرمش له جفن، بالإلهام نفسه الذي يجعله يغني لليلة كاملة من دون توقف. وبينما كان الجنرال يسعّر النار بقضيب في يده، كسر صمت إيتوربيدي:

«ما الذي يُقال في مكسيكو؟».

فقال إيتوربيدي: «ليس لي أحد هناك. إنني منفي».

قال الجنرال:

«جميعنا منفيون هنا. فأنا لم أعش سوى ست سنوات في فنزويلا منذ بدأت هذه الأمور. وأمضيتُ بقية حياتي متنقلاً على صهوات الخيول في نصف العالم. أنت لا تعرف ما الذي يمكنني أن أقدمه مقابل أن أتناول طبيخ لحم في سان ماتيو».

ولا بد أن ذهنه قد فرّ حينئذ إلى معاصر القصب التي عرفها في طفولته، لأنه غرق في صمت عميق وهو ينظر إلى النار المحتضرة. وعندما عاد إلى الكلام ثانية، كان قد أصبح على أرض صلبة من جديد، فقال:

«اللعنة هي في أننا تخلينا عن كوننا إسبانيين، ثم رحنا نتنقل من مكان إلى آخر، في بلدان تتبدل أسماؤها وحكوماتها من يوم إلى آخر، حتى لم نعد نعرف من أية لعنة نحن».

عاد يتأمل الرماد طويلاً، ثم سأل بنبرة مختلفة:

«كيف خطر لك المجيء إلى هنا، بالرغم من وجود بلدان كثيرة في هذا العالم؟».

أجابه إيتوربيدي بالتفافة كبيرة: «علمونا في الكلية العسكرية كيف نخوض حروباً على الورق. كنا نقاتل بجنود من رصاص فوق خرائط من الجَصّ، وكانوا يأخذوننا أيام الآحاد إلى المروج القريبة، بين الأبقار

والسيدات العائدات من الصلاة، فيطلق الكولونيل قذيفة مدفع لنألف فزع الانفجارات ورائحة البارود. تصوّر أن أشهر الأساتذة لدينا كان مشوَّه حرب إنكليزي يدربنا كيف نسقط عن الجياد ميتين».

قاطعه الجنرال: «وكنت تريد الحرب الحقيقية».

فقال إيتوربيدي:

«حربك أيها الجنرال. ولكن سنتين ستنقضيان على قبولي بينكم، وما زلت لا أعرف كيف هي المعركة الحقيقية».

وقال الجنرال الذي لم ينظر إلى وجه محدّثه بعد:

«لقد أخطأت المكان إذن. لن تدور هنا حروب إلّا حروب الفئات ضد بعضها بعضاً، وهذه أشبه بقتل الأم».

أخرجه خوسيه بالاثيوس من أفكاره في ذلك الفجر الذي كان يوشك أن يبزغ، فحرّك الجنرال عندئذ الرماد بعصاه، وقال وهو ينهض مستنداً إلى ذراع إيتوربيدي:

«لو كنت مكانك لذهبت من هنا طيراناً، قبل أن يلحق بي العار».

لن يتوقف خوسيه بالاثيوس عن القول حتى موته إن منزل البيّه دي لابوبا كان مسكوناً بالأقدار المشؤومة. فما كادوا يستقرون فيه حتى جاء من فنزويلا الضابط البحري خوسيه توماس ماتشادو، حاملاً أخباراً عن أن عدة وحدات عسكرية قد سحبت اعترافها بالحكومة الانفصالية، وعن أن حزباً جديداً مؤيداً للجنرال بدأ يكتسب قوة كبيرة. استقبله الجنرال على انفراد، واستمع إليه باهتمام، لكنه لم يبد أي حماس. وقال له: «الأخبار جيدة، لكنها متأخرة. أما بالنسبة لي شخصياً، فما الذي يستطيع عمله عاجز مسكين مثلي في مواجهة عالم بأسره». أصدر التعليمات لإحاطة الرسول بكل التشريفات اللازمة، لكنه لم يَعِدْ بتحميله أي رد. وقال:

«لا أنتظر تحسن صحة الوطن».

ومع ذلك، ما إن ودّع الجنرال الكابتن ماتشادو، حتى التفت إلى كارينيو وسأله: «هل عرفت ما هي أخبار سوكره؟». أجل، وأخبره أنه غادر سانتافي منذ منتصف شهر أيار، وكان مستعجلاً، ليكون دقيقاً في الوصول إلى حيث زوجته وابنته ليحتفل معهما بعيد قديسه. وانتهى كارينيو إلى القول: «كان لديه متسع من الوقت. وقد التقاه الرئيس موسكيرا في طريق بوبايان».

قال الجنرال مذعوراً: «كيف ذلك! هل سافر براً؟».

«أجل أيها الجنرال».

فقال: «يا رب الفقراء!».

كان في قوله توجّس خفيّ. وفي تلك الليلة بالذات تلقى نبأ وقوع الماريشال سوكره في كمين، واغتياله برصاصة غادرة في الظهر عند اجتيازه موقع بيرويكوس المشؤوم، يوم الرابع من حزيران الماضي. جاء مونتيللا بالخبر السيئ عندما انتهى الجنرال من حمّامه الليلي. وما إن سمع الخبر كاملاً حتى ضرب جبهته بكفه، وشدّ شرشف الطاولة الذي كان طبق العشاء الخزفي لا يزال فوقه، واستولى عليه الجنون في نوبة من نوبات غضبه التوراتية، وصاح: «أير!».

لم تكن أصداء الجلبة قد توقفت في البيت حين استعاد السيطرة على نفسه، فهوى على الكرسي وهو يزمجر: «إنه أوباندو». وكرّر ذلك مرّات عديدة: «إنه أوباندو، القاتل المأجور للإسبان». كان يعني الجنرال خوسيه ماريا أوباندو، قائد منطقة باسو، على الحدود الجنوبية لغرناطة الجديدة، الذي حرم الجنرال بجريمته تلك من خليفته الوحيد المناسب، ضامناً لنفسه بذلك رئاسة الجمهورية الممزَّقة كي يسلمها إلى سانتَندير. وقد روى أحد المشاركين بالمؤامرة في مذكراته أنه لدى مغادرته البيت الذي دُبّرت فيه الجريمة، عانى اضطراباً في أعماق روحه حين رأى الماريشال سوكره في ضباب الظهيرة الجليدية، في الساحة الكبرى بسانتافي، مرتدياً معطفه الأسود وقبعته البائسة وهو يتمشى أمام الكتدرائية ويداه في جيبه.

تقيّءَ الجنرال دماً في الليلة التي علم فيها بمصرع سوكره. وقد أخفى خوسيه بالاثيوس الأمر، مثلما فعل في أوندا، عندما فاجأ الجنرال وهو يمسح أرض الحمّام بإسفنجة. حفظ السرّين من دون أن يطلب الجنرال منه ذلك، مفكراً بأنه ليس الوقت المناسب لإضافة أخبار سيئة أخرى إلى الأخبار السيئة الكثيرة.

في ليلة مثل تلك الليلة، في غواياكيل، وعى الجنرال شيخوخته المبكرة. كان شعره لا يزال طويلاً يصل حتى كتفيه، وكان يربطه وراء رقبته بشريطة من أجل الشعور براحة أكبر في معارك الحرب والحب، لكنه انتبه في تلك الليلة إلى أن شعره كله يكاد يكون أبيض، وأن وجهه ذاوٍ كئيب. وقد كتب إلى أحد أصدقائه: «إذا ما رأيتني فلن تعرفني. عمري واحد وأربعون عاماً، لكنني أبدو شيخاً في الستين». وفي تلك الليلة، قصّ شعره. وبعد زمن قصير من ذلك، في بوتوسي، حلق شاربَيه وسالفَيه، في محاولة لوقف ريح الشباب الهاربة التي تفلت من بين أصابعه.

لم يكن لدى الجنرال، عند اغتيال سوكره، أدوات زينة لإخفاء الشيخوخة. غرق منزل البيّه دي لابوبا في الحداد. ولم يعد الضباط يلعبون الورق، بل صاروا يقضون الليالي ساهرين، يتبادلون الأحاديث في الفناء حتى وقت متأخر حول النار المشتعلة بشكل دائم لإبعاد البعوض، أو في حجرة نومهم المشتركة، في أراجيح نوم معلقة على مستويات مختلفة.

أتاح ذلك للجنرال تقطير مرارته قطرة قطرة. فكان يختار اثنين أو ثلاثة من ضباطه كيفما اتفق، ويبقيهم ساهرين، عارضاً عليهم أسوأ ما يخفيه في قلبه من عفونة. وقد أسمعهم مرّة أخرى الرواية المكرورة عن أن جيوشه كانت على وشك التفسّخ بسبب بخل سانتَنْدير الذي رفض، حين كان رئيساً مكلفاً لكولومبيا، أن يرسل قوات وأموالاً لإنهاء تحرير البيرو. وكان يقول: «إنه بخيل ومقتّر بالفطرة، لكن تبريراته كانت أشد شِحّاً: لأن ذكاءه لم يكن يمكّنه من أن يرى أبعد من الحدود الاستعمارية». وروى

لهم للمرّة الألف كابوسه القائل إن الضربة القاصمة للاندماج كانت في دعوة الولايات المتحدة إلى مؤتمر بنما، وهي الدعوة التي وجهها سانتَنْدير لحسابه وعلى مسؤوليته الشخصية، بينما كان الأمر المطروح هو وحدّة أميركا، وقال:

«كانت تلك الدعوة أشبه بدعوة القط إلى حفلة الفئران. وكل ذلك لأن الولايات المتحدة هدّدت باتهامنا بالسعي لتحويل القارة إلى رابطة بلدان شعبية في مواجهة الحلف المقدَّس. يا للهول!».

وكرّر مرّة أخرى رعبه من برودة الأعصاب غير المفهومة التي كان سانتَنْدير يصل بها إلى غاياته النهائية، ثم يقول «إنه سمكة ميتة». وكرّر للمرّة الألف القصة التشهيرية عن القروض التي كان سانتَنْدير يتلقاها من لندن، والتواطؤ الذي حمى به فساد أصدقائه. وفي كل مرّة يأتي على ذكر ذلك الأمر، سواء في حديث خاص أو عام، كان يضيف قطرة سم، في جو سياسي يبدو وكأنه لا يحتمل قطرة أخرى. لكنه لم يكن يستطيع أن يكبح نفسه. وكان يقول:

«وهكذا بدأ كل شيء بالانهيار».

كان صارماً جداً في تصرّفه بالأموال العامة، حتى أنه لم يكن قادراً على العودة إلى هذه المسألة من دون أن يستشيط غضباً. لقد أصدر، خلال رئاسته، مرسوماً يقضي بإعدام أي موظف حكومي يختلس أو يسرق مبلغاً يزيد عن عشرة بيزوات. لكنه بالمقابل كان مسرفاً في تبذير أملاكه الشخصية، فخلال سنوات قليلة من حرب الاستقلال، أنفق معظم الثروة التي ورثها، وأهدى إلى شقيقتَيْه بيته في كاراكاس، ووزّع معظم أراضيه على عبيده الكثُر الذين أعتقهم قبل صدور قانون إلغاء الرقّ. ورفض مبلغ مليون بيزو قدمه له كونغرس ليما في نشوة التحرير. أمّا البيت الريفي في مونسرات الذي خصصته له الحكومة، كي يكون لديه مكان لائق يعيش فيه،

فقد أهداه إلى صديق يعاني ضائقة قبل أيام قليلة من استقالته. وفي أبوريه، نهض من أرجوحة النوم التي كان ينام فيها وأهداها إلى الدليل المريض كي يتعرّق فيها حُمّاه، ونام هو على الأرض متدثراً بمعطف عسكري. ومبلغ العشرين ألف بيزو الذي طلب دفعه من ماله الخاص إلى المربّي الكويكرز جوسيه لانكستر، لم يكن ديناً عليه وإنما على الدولة. وكان يهدي خيوله التي طالما أحبها إلى أصدقائه الذين يلتقيهم في طريقه. وحتى بالومو بلانكو، حصانه الشهير والمجيد، بقي في بوليفيا ليرأس حظائر الماريشال سانتاكروث. لهذا كله كان موضوع القروض المختلَسة يقوده إلى توجيه الاتهام بالخيانة العظمى من دون تحفّظ. وكان يقول لكل من يود السماع:

«كاساندرو خرج نظيفاً، مثلما خرج في الخامس والعشرين من أيلول، لأنه بكل تأكيد، ساحر في الحفاظ على الشكليات. لكن أصدقاءه كانوا يعيدون إلى إنكلترا الأموال التي أقرضتها هذه الدولة للأمة، بفوائد باهظة، ويضاعفونها لمصلحتهم في تجارات رَبَوية».

لقد عرض على الجميع، وعلى امتداد ليال كاملة، أشد أعماق قلبه كَدَراً. وفي فجر اليوم الرابع، حين بدت الأزمة وكأنها أبدية، أطل من بوابة الفناء وهو بالملابس التي كان يرتديها حين تلقى نبأ الجريمة، واستدعى الجنرال بريثينيو مينديث على انفراد، وتحدث معه حتى صياح الديكة الأولى. كان الجنرال في أرجوحته المغطاة بكلّة، وبريثينيو مينديث في أرجوحة أخرى علّقها له خوسيه بالاثيوس. وربما لم يكن أي منهما واعياً لما خلفته فيهما عادات القعود السلمية، بعدما رجعوا خلال أيام قليلة إلى حياة المعسكرات غير المستقرة. وفي تلك المحادثة، اتضح للجنرال أن المخاوف والرغبات التي عبّر عنها خوسيه ماريا كارينيو في تورباكو، لم تكن مخاوفه ورغباته هو وحده، بل كان يشاركه فيها معظم الضباط الفنزويليين. فقد أحسّ هؤلاء بأنهم فنزويليون أكثر من أي وقت مضى،

بعد تصرفات الغرناطيين ضدهم، لكنهم كانوا مستعدين للموت في سبيل الوحدة. ولو أصدر الجنرال أمراً بذهابهم للقتال في فنزويلا، لذهبوا مسرعين، ولكان بريثينيو ميندديث نفسه أوّل الذاهبين.

كانت تلك هي أسوأ الأيام. والزائر الوحيد الذي وافق الجنرال على استقباله كان الكولونيل البولوني ميشيسلاو نابيرسكي، بطل معركة فريدلاند والناجي من نكبة ليبزج، وكان قد وصل في تلك الأيام ومعه توصية من الجنرال بونياتوفيسكي لقبول انضمامه إلى جيش كولومبيا.

قال له الجنرال: «لقد جئت متأخراً. لم يبق أي شيء هنا».

وبعد موت سوكره بقي أقل من لا شيء. هذا ما أفهمه لنابيرسكي، وهو ما تركه هذا الأخير مفهوماً في مذكرات رحلته التي سيخرجها إلى التاريخ شاعر غرناطي عظيم بعد مئة وثمانين سنة من ذلك. كان نابيرسكي قد وصل على متن الفرقاطة شانون. وقد رافقه قبطانها حتى بيت الجنرال، الذي أطلعهما على رغبته في السفر إلى أوروبا، لكن أيّاً منهما لم يلمح لديه استعداداً حقيقياً للرحيل. وبما أن الفرقاطة كانت ستذهب إلى لاغوايرا وترجع إلى كارتاخينا قبل عودتها إلى كنيغستون، فقد حمّل الجنرال القبطان رسالة ليوصلها إلى وكيله الفنزويلي في قضية مناجم أورا، علّه يرسل إليه بعض المال عند عودة القبطان. لكن الفرقاطة عادت من دون جواب، فأبدى كآبة شديدة، لم يفكر أحد معها أن يسأله إن كان سيذهب.

لم يكن هناك خبر واحد يبعث على العزاء. وقد اهتم خوسيه بالاثيوس بدوره بعدم تضخيم تلك الأخبار التي كانوا يتلقونها، فكان يحاول تأخير إبلاغه بها قدر المستطاع. وقد كان هناك أمر يقلق الضباط المرافقين، وكانوا يخفونه عن الجنرال حتى لا يزيدوا في عذابه، ذلك أن فرسان الحراسة وجنودها كانوا ينشرون بذرة داء السيلان الأبيض النارية. بدأ الأمر بامرأتين ضاجعتا جنود الحامية جميعهم خلال الليالي التي قضوها في أوندا، وقد واصل الجنود بث الداء بغرامياتهم الخبيثة في كل مكان

حلّوا فيه. ولم يكن هناك حينئذ عنصر واحد من عناصر الفرقة غير مصاب، بالرغم من أنهم لم يتركوا دواء طبياً ولا مهارة من مهارات المداوين إلا جرّبوها.

لم تكن احتياطات خوسيه بالاثيوس لمنع وصول مرارات لا جدوى منها إلى سيدة معصومة عن الاختراق. وفي إحدى الليالي، انتقلت رسالة من دون عنوان من يد إلى أخرى، ووصلت إلى أرجوحة نوم الجنرال من دون أن يدري أحد كيف حدث ذلك. قرأها من دون استخدام نظارته، بإبعادها عن عينيه على امتداد ذراعه، ثم وضعها على لهب الشمعة، وأمسكها بأطراف أصابعه إلى أن احترقت تماماً.

كانت الرسالة من خوسيفا ساغراريو، التي وصلت يوم الاثنين مع زوجها وأولادها، وقد مرّت في طريقها من مومبوكس، وتنفّست الصعداء حين علمت أن الجنرال قد خُلع من الرئاسة وأنه سيغادر البلاد. لم يكشف مطلقاً عما جاء في الرسالة، لكنه أظهر طوال تلك الليلة علائم جزع عظيم، وأرسل في الصباح إلى خوسيفا ساغراريو يقترح عليها المصالحة. لكنها صدّت التوسلات، وتابعت رحلتها المقررة، من دون لحظة وَهَن واحدة، وكان تبريرها الوحيد، كما قالت لخوسيه بالاثيوس، هو أنها لا تجد أي معنى للتوصل إلى مصالحة مع رجل يُعتبر ميتاً.

عُلم في ذلك الأسبوع أن الحرب الشخصية التي تشنها مانويلا ساينث في سانتافي، من أجل عودة الجنرال، آخذة بالاستفحال. ولجعل حياتها لا تُطاق، طلبت منها وزارة الداخلية تسليم الأرشيف الذي في عهدتها. لكنها رفضت، وبدأت حملة استفزازات أخرجت الحكومة عن طورها. كانت تنشر الفضائح، وتوزّع منشورات تمجّد بها الجنرال، وتمحو الشعارات المكتوبة بالفحم ضده عن جدران الأبنية العامة، ترافقها في ذلك عبدتان من عبداتها الفدائيات. كان معروفاً للجميع أنها تدخل الثكنات بزيّ كولونيل، فتشارك في حفلات الجنود وفي مؤامرات الضباط على حد

سواء. وأكثر الشائعات رواجاً كانت تقول إنها تعدّ في ظل أوردانيتا لتمرّد مسلح يعيد فرض سلطة الجنرال المطلقة.

كان من الصعب الاعتقاد بأن لدى الجنرال من القوّة ما يكفي لذلك. فنوبات حمى الغروب كانت تصبح أكثر دِقّة في موعدها يوماً بعد يوم، وصارت نوبات السعال مؤثرة في شدّتها. وفي فجر أحد الأيام، سمعه خوسيه بالاثيوس يصرخ: «وطن عاهر!» أسرع بالدخول إلى غرفة النوم، مذعوراً من صرخة أطلقها الجنرال مؤنّباً ضباطه، فوجد خدّه مغطى بالدم، كان قد جرح نفسه وهو يحلق ذقنه. ولم يكن سخطه بسبب الحادثة بحد ذاتها بقدر ما كان بسبب تعثره. الصيدلي الذي جاء به الكولونيل ويلسون على عجل لمعالجته، وجده يائساً جداً، فحاول أن يهدئه ببضع قطرات من ماء حشيشة البلادونا. لكن الجنرال أوقفه بجفاء قائلاً له:

«دعني بحالي. فاليأس هو الصحّة للخاسرين».

كتبت له أخته ماريا أنطونيا من كاركاس تقول: «الجميع يتذمرون لأنك لم تشأ المجيء لإصلاح هذه الفوضى». كان كهنة الأرياف يقفون إلى جانبه بحزم، وأصبح التحكم بانشقاقات الجيش أمراً غير ممكن، وكانت الجبال تغص بأناس مسلحين يقولون إنهم لا يريدون أحداً سواه. وتضيف شقيقته: «إنها ضجة مجانين لا يدرون بأنهم هم أنفسهم من قاموا بالثورة». ففيما كان البعض يهتفون له، كان الصباح يطلع على نصف جدران البلاد وهي ملأى بالشتائم ضده، وكانت المنشورات تقول إنه يجب استئصال أفراد أسرته حتى الجيل الخامس.

وقد أطلق عليه كونغرس فنزويلا، المنعقد في فلنسيا، طلقة الرحمة، بتتويجه قراراته بالانفصال النهائي، وبالإعلان رسمياً أنه لا مجال للاتفاق مع غرناطة الجديدة والإكوادور ما دام الجنرال في الأراضي الكولومبية. وبقدر ما آلمته الواقعة، آلمه أنّ مَن نقل إليه الخبر الرسمي من سانتافي هو متآمر قديم شارك في مؤامرة الخامس والعشرين من أيلول، وعدوّه حتى

الموت، الذي أعاده الرئيس موسكيرا من المنفى ليعيّنه وزيراً للداخلية. وقد قال الجنرال:

«عليَّ أن أقرّ بأنه أكثر حدث محزن في حياتي».

وأمضى الليلة ساهراً، يملي على عدد من كتبته عدة تقليبات وروايات للرد، لكن سخطه كان عظيماً فغلبه النعاس، وفي الصباح، قال لخوسيه بالاثيوس بعد نوم قلق:

«يوم موتي، ستُقرَع النواقيس ابتهاجاً في كاراكاس».

وقد جرى ما هو أكثر من ذلك. فقد كتب حاكم ماراكايبو يوم علم بخبر موته: «إنني أسارع إلى إحاطتكم علماً بهذا الحدث العظيم الذي سيحمل أفضالاً لا حصر لها لقضية الحرية ولسعادة البلاد. فعبقريّ الشرّ، وشعلة الفوضى، وطاغية الوطن قد غاب عن الوجود». وقد تحوّل هذا التبليغ الموجّه أساساً لإعلام حكومة كاراكاس بالأمر، إلى بيان وطني.

وسط رعب تلك الأيام المشؤومة، أعلن خوسيه بالاثيوس للجنرال، في الساعة الخامسة صباحاً، عن حلول يوم ميلاده: «الرابع والعشرين من تموز، يوم القديسة كريستينا، العذراء والشهيدة». فتح الجنرال عينيه، ولا ريب في أنه أحسّ مرّة أخرى بأنه مختار للمِحَن.

لم يكن من عادته الاحتفال بيوم ميلاده، وإنما بيوم قدّيسه. كان هناك أحد عشر قدّيساً يحملون اسم سيمون في سجل القديسين الكاثوليكي، وكان هو يفضل أن يُنسب اسمه إلى القيرواني، الذي ساعد المسيح على حمل الصليب، لكن القَدَر أمدّه بسيمون آخر هو الرسول المبشّر في مصر وأثيوبيا، وذكراه في الثامن والعشرين من تشرين الأول. ففي يوم كهذا اليوم، وضعوا على رأسه خلال الحفلة إكليلاً من الغار، فرفعه عن طيب خاطر، ووضعه بكل خبثه على رأس الجنرال سانتَندير الذي تقبّله من دون تأثر. لم يكن يحسب حياته بالاسم، وإنما بالسنوات، فقد كان للسنوات

السبع والأربعين في نظره مغزى خاصاً. ففي الرابع والعشرين من تموز، من العام السابق، وفيما هو في غواياكيل، وسط أخبار مشؤومة تأتيه من كل مكان، وهذيانات الحمّى الوبيلة، هزّت أعماق نفسه نبوءة مفاجئة، وهو الذي لم يكن يؤمن بحقيقة النبوءات. كانت الإشارة واضحة: إذا ما تمكن من البقاء حياً حتى عيد ميلاده التالي، فلن يكون هناك موت قادر على قتله. وكان سحر تلك النبوءة السرّية هو القوّة التي أبقته حياً حتى ذلك الحين بالرغم من كل الحسابات.

دمدم قائلاً: «سبع وأربعون سنة كاملة، وما زلت حياً».

جلس في الأرجوحة، بقوى متجَدِّدة، وقلب هائج ليقينه العجيب بأنه في منجى من كل شر. استدعى بريثينيو مينديث، زعيم الراغبين في الذهاب إلى فنزويلا للقتال من أجل وحدة كولومبيا، وأبلغه بالمكرُمة الممنوحة لضباطه بمناسبة عيد ميلاده قائلاً له:

«كل من يرغب بالذهاب إلى فنزويلا، من رتبة ملازم وما فوق، فليجهّز أمتعته».

كان الجنرال بريثينيو مينديث هو أوّل الراغبين. وانضمّ إلى الحملة جنرالان، وأربعة كولونيلات، وثمانية نقباء من حامية كارتاخينا. أما عندما حاول كارينيو أن يذكّر الجنرال بوعده السابق، فقد قال له:

«أنت محجوز لمصير أعظم».

وقبل ساعتين من رحيلهم، قرّر أن يرسل معهم خوسيه لاورينثيو سيلفا، لأنه رأى أن صدأ الروتين كان يزيد من خوفه على عينيه. لكن سيلفا رفض ذلك الشرف، وقال:

«هذه البطالة التي نحن فيها هي حرب أيضاً، ومن أقسى أنواع الحروب. لذلك سأبقى هنا، ما لم يأمر سيدي الجنرال بشيء آخر».

أما إيتوربيدي وفرناندو وأندريس إيبارا فلم يتمكنوا من الانضمام إلى

الحملة. فقد قال الجنرال لإيتوربيدي: «إذا كان عليك أن تذهب، فستذهب إلى مكان آخر». وأفهم أندريس أنه لا يوافق على ذهابه لسبب واحد، هو أن الجنرال دييغو إيبارا موجود في القتال، وأن أخوَين في حرب واحدة هو أمر لا لزوم له. أما فرناندو فلم يحاول طلب الذهاب، لأنه كان واثقاً بأنه سيتلقى الجواب الدائم: «يمكن للرجل أن يذهب بكامل جسده إلى الحرب، لكنه لا يستطيع السماح لنفسه بالذهاب إليها من دون عينيه ويده اليمنى». وارتضى بتعزية نفسه بأن ذلك الجواب هو امتياز عسكري على نحو ما.

تبرّع مونتيللا بالمعدات اللازمة كي يرحلوا يوم إقرار الأمر بالذات، وشارك في الاحتفال البسيط الذي عانق فيه الجنرال كل واحد منهم ووجّه له عبارة وداع. ذهبوا متفرّقين ومن دروب مختلفة. بعضهم عبر جامايكا، وآخرون عبر كوراساو، وغيرهم عبر غواخيرا، وجميعهم ذهبوا بالملابس المدنية ومن دون أسلحة أو أي شيء آخر يمكن أن يكشف هويتهم، مثلما تعلموا خلال العمليات السرية ضد الإسبان. وعند الفجر، كان منزل بيّه دي لابوبا أشبه بثكنة مهجورة، لكن الجنرال كان يستند إلى الأمل باندلاع حرب أخرى تعيد الإخضرار إلى أكاليل الغار القديمة.

استولى الجنرال رافائيل أوردانيتا على السلطة يوم الخامس من أيلول. وكان الكونغرس التأسيسي قد أنهى فترة ولايته. ولم تكن هناك سلطة قانونية يمكنها إضفاء الشرعية على الانقلاب، لكن الثائرين لجأوا إلى مجلس سانتافي الإداري الذي اعترف بأوردانيتا مسؤولاً عن إدارة السلطة إلى أن يتولاها الجنرال. وهذا اكتملت ثورة الجنود والضباط الفنزويليين المتحشدين في غرناطة الجديدة، فهزموا القوّات الحكومية بدعم من ملاّكي السهول الصغار ورجال الإكليروس الريفيين، كان ذلك هو الانقلاب العسكري الأول في جمهورية كولومبيا، والحرب الأولى من الحروب الأهلية التسع والأربعين التي ستكابدها البلاد خلال بقية ذلك القرن. أما الرئيس خواكين موسكيرا ونائب الرئيس كايثيدو، الوحيدان وسط الفراغ، فقد تخلّيا عن منصبَيْهما. التقط أوردانيتا السلطة من الأرض. وكان عمله الحكومي الأول هو إرسال وفد إلى كارتاخينا ليعرض رئاسة الجمهورية على الجنرال.

لا يتذكر خوسيه بالاثيوس أنه رأى سيده منذ زمن طويل بصحة مستقرة كما رآه في تلك الأيام، فقد سلَّمت آلام الرأس وحمّى الغروب أسلحتها فور تلقيه نبأ الانقلاب العسكري. لكنه لم يكن قد رآه في قلق أعظم من قلقه حينئذ. وقد تمكن مونتيللا، الخائف عليه، من التوصل إلى اتفاق

تواطؤ مع الكاهن سيباستيان دي سيغوينثا لتقديم مساعدة مبطّنة للجنرال. وقد وافق الكاهن مسروراً، وقام بذلك على أكمل وجه حين كان يفسح له المجال ليفوز عليه بالشطرنج في الأمسيات المجدبة بينما هم ينتظرون مجيء مبعوث أوردانيتا.

كان الجنرال قد تعلم تحريك أحجار الشطرنج في زيارته الثانية إلى أوروبا، وكان ينقصه القليل ليصبح معلماً في اللعبة عندما كان يعلب مع أولياري، في الليالي الميتة، خلال حملة البيرو الطويلة. لكنه أحسّ بأنه غير قادر على المضي بعيداً في اللعبة. وكان يقول: «الشطرنج ليس لعبة، وإنما هو وَلَع. وأنا أفضّل ولعاً آخر أكثر جسارة». لكنه أدخل الشطرنج في برامج التربية العامة ضمن الألعاب المفيدة والعفيفة التي يجب تلقّيها في المدرسة. والحقيقة أنه لم يثابر على اللعب لأن أعصابه لم تكن تتحمل لعبة شديدة الرصانة مثلها، كما أن التركيز الذي تتطلبه كان يلزمه في شؤون أخرى أكثر خطورة.

كان الكاهن سيباستيان يجده وهو يهز نفسه في أرجوحة النوم التي طلب تعليقها مقابل الباب الخارجي، ليراقب الطريق الترابي الذي سيأتي منه مبعوث أوردانيتا. وما إن يراه الجنرال قادماً حتى يقول له: «آه يا أبتاه، أنت لا تعتَبِر من الخسارة». وكان لا يكاد يجلس لتحريك الأحجار، بل ينهض واقفاً بعد كل حركة فيما الكاهن ساهم يفكر. وكان الكاهن يقول له:

«لا تشوّش ذهني بحركتك الدائمة يا صاحب الفخامة، فأنا قادر على أكلك حياً».

فيضحك الجنرال: «مَن يكون غداؤه عجرفة سيكون عشاؤه العار».

كان من عادة أولياري الوقوف إلى جانب الطاولة، ليدرس وضع الأحجار على الرقعة، وليقترح فكرة ما على الجنرال، لكن الجنرال كان يرفض تلك الإيحاءات بسخط. وكلما كسب دوراً، خرج إلى الفناء فوراً

ليزف نبأ الفوز إلى ضباطه الذين يلعبون الورق. وفي منتصف أحد الأدوار سأله الراهب سيباستيان إذا كان يفكر بكتابة مذكراته، فقال الجنرال:

«مطلقاً. هذه اهتمامات موتى».

أما البريد الذي كان أحد هواجسه، فقد تحوّل إلى عذاب له، وخصوصاً في أيام البلبلة تلك، حين كان سعاة بريد سانتافي يتأخرون بانتظار أخبار جديدة، وتملّ مراكز البريد الوسيطة من انتظارهم. لكن وسائط البريد السريّ، بالمقابل، صارت أكثر تواتراً وسرعة. وهكذا كان الجنرال يحصل على أخبار عن الأخبار قبل وصولها، مما يمنحه الوقت لإنضاج قراراته.

حين علم أن المبعوثَيْن أصبحا قريبَيْن، وكان ذلك يوم السابع عشر من أيلول، أرسل كلاً من كارينيو وأولياري لانتظارهما في طريق توورباكو. كان المبعوثان هما الكولونيلين فيثنته بينيريس وخوليان سانتا ماريا، وكانت مفاجأتهما الأولى هي حالة الحماسة التي وجدا عليها المريض الذي كان يتردّد في سانتافي أن لا أمل في شفائه. جرى ارتجال حفل رسمي في البيت، شاركت فيه شخصيات مدنية وعسكرية، وألقيت فيه خطابات حول المناسبة، ورُفعت أنخاب في صحة الوطن. لكنه اختلى بالمبعوثين أخيراً وتداول معهما البحث في الحقائق على انفراد. الكولونيل سانتا ماريا، الذي كان ينتشي بالمواقف المؤثرة، وصل في إحدى ملاحظاته إلى الذروة: إذا ما رفض الجنرال القيادة، فسيؤدي ذلك بالبلاد إلى حالة من الفوضى.

وتملص الجنرال قائلاً:

«لا بد من الوجود قبل التغيير، ولن نعرف إذا كان للوطن وجود أم لا إلا بعد انقشاع الأفق السياسي».

لم يفهم الكولونيل سانتا ماريا ذلك، وقال للجنرال:

«تعني أن الشيء الملحّ الآن هو توحيد البلاد بقوة السلاح، لكن طرف الخيط ليس هنا وإنما في فنزويلا».

ومنذ ذلك الحين، ستصبح تلك هي فكرة الجنرال الراسخة: البدء ثانية من البداية، آخذاً في الاعتبار أن العدو في البيت وليس خارجه. فأوليغاركية كل بلد من البلدان، والمتمثلة في غرناطة الجديدة بالسانتَنديريين، وبسانتَنْدير نفسه، كانت قد أعلنت الحرب حتى الموت ضد فكرة الوحدة الاندماجية، لأنها مناقضة لامتيازات الأسر الإقليمية الكبيرة.

قال الجنرال:

«هذا هو السبب الحقيقي والوحيد لحرب الانقسامات التي تقتلنا. والمحزن في الأمر هو اعتقادهم أنهم يغيّرون العالم فيما هم لا يفعلون شيئاً سوى تخليد أشدّ ما في الفكر الإسباني تخلفاً».

ثم واصل بنَفَسٍ واحد:

«أعلم أنهم يسخرون مني لأني أقول شيئاً ونقيضه في رسالة واحدة، مكتوبة في اليوم ذاته، وموجهة إلى الشخص ذاته، ولأني وافقت على مشروع النظام الملكي، ولأنني لم أوافق عليه، أو لأنني أوافق في مكان آخر على أمرين متناقضين في الوقت ذاته».

كانوا يتهمونه بأنه متقلب الأهواء في أسلوبه في الحكم على رجال التاريخ ونسائه وبأنه كان يقاتل ضد فرناندو السابع ويعانق موريو، وبأنه يخوض حرباً حتى الموت ضد إسبانيا بينما هو أكبر مشجع لروحها. وبأنه تلقّى مساندة هايتي كي ينتصر ثم اعتبرها بلداً أجنبياً كي لا يدعوها إلى مؤتمر بنما، وبأنه كان ماسونياً وموالياً لأفكار فولتير بشأن الصلاة، لكنه المدافع العنيد عن الكنيسة، وبأنه يتودّد إلى الإنكليز بينما كان يودّ الزواج من أميرة فرنسية، وبأنه تافه ومنافق، وغادر أيضاً، لأنه كان يتملق أصدقاءه في حضورهم ويشتمهم من وراء ظهورهم. وقال:

«حسن. كل هذا صحيح، لكنه عارض، لأن ما فعلته كان له هدف واحد

هو أن تكون هذه القارة بلداً مستقلاً وموحداً، وأنا لم أقع في هذا الشأن بتناقض واحد أو في تردد واحد» واختتم قائلاً بكاريبية محضة:
«وما سوى ذلك ليس إلا أُيوراًا!».

وفي رسالة بعثها بعد يومين إلى الجنرال بريثينيو مينديث، قال: «لم أرضَ القبول بالقيادة التي أولتني إياها التقارير، لأني لا أريد أن يُنظر إليَّ على أنني زعيم متمرّدين، وبأنني مُعيَّن عسكرياً من قبل المنتصرين». ومع ذلك، فقد كان حذراً كي لا يبدو شديد التطرّف في الرسالتين اللتين أملاهما على فرناندو في تلك الليلة بالذات، ووجَّههما إلى الجنرال رافائيل أوردانيتا.

كانت الرسالة الأولى عبارة عن ردّ رسمي، وكان طابعها الرسمي واضحاً تماماً من مطلعها: «فخامة السيّد». وفيها يبرر الانقلاب بحالة الفوضى والإهمال التي صارت إليها الجمهورية بعد حل الحكومة السابقة. وكتب يقول: «لا يمكن خداع الشعب في مثل هذه الحالات». إنما لم تكن هناك أية إمكانية لقبولة الرئاسة. والشيء الوحيد الذي يستطيع تقديمه هو استعداده للعودة إلى سانتافي ليخدم الحكومة الجديدة كجندي عادي.

أما الرسالة الثانية فكانت رسالة خاصة، ويظهر ذلك من السطر الأول فيها: «عزيزي الجنرال»، وكانت طويلة ومفصَّلة، لا تترك مجالاً للشك في أسباب تردّده، فدون خواكين موسكيرا لم يتنحَّ عن منصبه، وقد ينال في غد الاعتراف بأنه رئيس شرعي، ويجعل منه مغتصباً للسلطة. وقد أكّد على ما قاله في الرسالة الرسمية: طالما لم تهيأ له ولاية صريحة، صادرة عن مرجع قانوني، فلن تكون هناك أيّ إمكانية في قبوله تولّي السلطة.

ذهبت الرسالتان في البريد ذاته، ومعهما النسخة الأصلية من نداء يطلب فيه من البلاد أن تنسى أهواءها وتدعم الحكومة. لكنه وضع نفسه بعيداً عن

أي التزام. وقد قال فيما بعد: «حتى ولو ظهرت بأنني أقدم كل شيء، فإنني لم أقدم شيئاً». واعترف بأنه كتب بعض العبارات التي لم يكن لها من هدف سوى تملّق من يرغبون في تلقّي التملّق.

الأمر ذو المغزي الكبير في الرسالة الثانية كان نبرتها الآمرة، وهي نبرة مفاجئة من شخص مجرّد من أيّ سلطة. فقد طالب فيها بترقية الكولونيل فلورينثيو خيمينث كي يذهب إلى الغرب مع قوات وعتاد كافيين لصد الحرب الباطلة التي يشنها ضد الحكومة المركزية الجنرالان خوسيه ماريا أوباندو وخوسيه هيلاريو لوبيث. «مَنْ اغتالا سوكره» كما قال في رسالته إلى أوردانيتا، «وأنا سأتكفل بالباقي من مجدلينا وحتى فنزويلا، بما في ذلك بوياكا». وكان يستعد للسفر إلى سانتافي على رأس ألفَيّ رجل، كي يساهم في إقرار النظام العام وترسيخ سلطة الحكومة الجديدة.

لم يعد يتلقى أخباراً مباشرة من أوردانيتا خلال اثنين وأربعين يوماً، لكنه واصل الكتابة إليه على كل حال طوال فترة تزيد على الشهر، لم يفعل خلالها شيئاً سوى إصدار الأوامر العسكرية إلى الرياح الأربع. كانت السفن تأتي وتروح، لكنه لم يعد إلى الحديث عن الرحيل إلى أوروبا، بالرغم من أنه كان يذكّر بذلك بين الحين والآخر كوسيلة للضغط السياسي. تحوّل منزل بيّه دي لا بوبا إلى قيادة أركان للبلاد بأسرها، وكان هو من يتخذ معظم القرارات العسكرية أو يوحي باتخاذها وهو في أرجوحة النوم. وانتهى به الأمر، خطوة خطوة، ومن دون قصد منه، إلى التورّط باتخاذ قرارات تصل إلى ما هو أبعد من الشؤون العسكرية. وبدأ يهتم حتى بأصغر الأمور، مثل الحصول على وظيفة في البريد لصديقه الطيب تاتيس، أو إعادة الجنرال خوسيه أوكروس إلى الخدمة الفعلية، لأنه لم يعد يطيق حياة السلام في بيته.

في تلك الأيام، كرّر بتفخيم متجدّد إحدى عباراته القديمة: «إنني عجوز مريض، متعب، خائب الأمل، منكد، مفترَى عليه، وسيئ الأجر» إنما لم يصدق ذلك أحد ممن رأوه عندها. ففي حين كان يبدو وكأنه منهمك في

مجرد مناورات قط متيقظ لترسيخ الحكومة، فإن ما كان يفعله في الحقيقة هو تحضير الآلة العسكرية الدقيقة، قطعة بعد قطعة، ليحقق نواياه باستعادة فنزويلا، كي يبدأ من هناك ثانية في إعادة ترميم تحالف أكبر أمم العالم.

لم يكن قادراً على تصوّر فرصة أكثر ملاءمة من تلك. فغرناطة الجديدة، مضمونة بين يدي أوردانيتا، بينما الحزب الليبرالي مهزوم وسانتَنْدير قابع في باريس. والإكوادور مضمونة في يد فلوريس، الزعيم الفنزويلي الطموح، الذي فصل عن كولومبيا كلاً من كيتو وغواياكيل ليؤسس جمهورية جديدة، لكن الجنرال كان واثقاً من قدرته على استعادته إلى جانبه بعد أن ينتهي من قهر قتلة سوكره. وبوليفيا كانت مضمونة مع الماريشال سانتا كورث، صديقه الذي عرض عليه قبل وقت قصير التمثيل الدبلوماسي لدى البلاط البابوي. وهكذا فإن الهدف الملحّ هو انتزاع السيطرة على فنزويلا نهائياً من يد الجنرال بايث.

كانت خطة الجنرال العسكرية تبدو وكأنها وضعت ليبدأ تنفيذها من كوكوتا بهجوم كبير، في حين كان بايث يركز دفاعه على ماراكايبو. لكن مقاطعة ريوهاتشا عَزلت في شهر أيلول قائدها العسكري، ولم تعد تعترف بسلطة كارتاخينا، وأعلنت أنها فنزويلية. لم يأتها الدعم من ماراكايبو في الحال وحسب، بل أرسل لنجدتها الجنرال بيدرو كاروخو، زعيم مؤامرة الخامس والعشرين من أيلول، الذي فرّ من يد العدالة إلى كنف الحكومة الفنزويلية.

سارع مونتيللا بنقل الخبر فور تلقيه، لكن الجنرال كان قد علم بالخبر، وكان مبتهجاً، فتمرد ريوهاتشا سيعطيه موطئ قدم لتعبئة قوات جديدة من جبهة أخرى ضد ماراكايبو. وقال:

«ثم إن كاروخو صار في قبضتنا».

في تلك الليلة بالذات، اجتمع مع ضباطه وراء باب مغلق، ووضع الخطة الاستراتيجية بدقة متناهية، فكان يصف طبيعة الأرض بحذافيرها،

ويحرّك جيوشاً كاملة وكأنها قطع شطرنج، ويستبق أي نيّات قد تخطر للعدو.

كل ذلك من دون أن يكون قد تلقّى تأهيلاً أكاديمياً يمكن مقارنته مع أي ضابط من ضباطه الذين تدربوا في أفضل المدارس العسكرية في إسبانيا، لكنه كان قادراً على تصوّر الموقف بشكل متكامل ومن دون نسيان أدق التفاصيل. كانت ذاكرته البصرية مذهلة، حتى أنه كان قادراً على تذكر كل عائق كان قد رآه على الأرض عند مروره في المكان قبل سنوات طويلة، وبالرغم من أنه كان بعيداً عن أن يكون معلّماً من معلّمي فنون الحرب، فإن أحداً لم يكن يفوقه في الإلهام.

كانت الخطة جاهزة بكل تفاصيلها عند الفجر، وقد كانت خطة دقيقة وضارية وعلى قدر كبير من الإلهام، وكان مقرَّرا للهجوم على ماراكايبو أن يتم في أواخر شهر تشرين الثاني، أو في بداية كانون الأول في أسوأ الاحتمالات. وعند انتهاء المراجعة الأخيرة، في الساعة الثامنة من صباح يوم ثلاثاء ماطر، لفت مونتيللا نظره إلى أن الخطة تفتقر إلى جنرال غرناطي.

فقال: «لا يوجد جنرال يساوي شيئاً في غرناطة الجديدة. فمن هم ليسوا عديمي الجدارة منهم، يكونون أنذالاً».

سارع مونتيللا إلى التخفيف من حدّة الكلام:

«وأنت أيها الجنرال، إلى أين ستذهب؟».

فقال الجنرال:

«سواءٌ لديَّ في هذا الوقت، الذهاب إلى كوكوتا أو إلى ريوهاتشا».

دار على أعقابه لينصرف. وذكرته تقطيبة جبين الجنرال كارينيو بالوعد الذي لم يفِ به عدة مرّات. الحقيقة أنه كان يريد استبقاءه إلى جانبه بأي

ثمن، لكنه لم يعد قادراً على إلهاء أشواقه إلى الذهاب لوقت أطول، فربّت على كتفه بحركتة المعتادة، وقال له:

«لقد وفيت بوعدي يا كارينيو. أنت أيضاً ستذهب».

انطلقت الحملة المؤلفة من ألف رجل من كارتاخينا في موعد بدا وكأنه اختير رمزاً: 25 أيلول. وكانت تحت قيادة الجنرالات: مريانو مونتيللا، وخوسيه فيلكس بلانو، وخوسيه ماريا كارينيو. وكان كل واحد منهم مكلفاً، على انفراد، بمهمة البحث في سانتا مارتا عن بيت ريفي يصلح كي يتابع الجنرال منه سير الحرب ريثما يستردّ عافيته. وقد كتب الجنرال إلى أحد أصدقائه: «خلال يومين سأذهب إلى سانتا مارتا، للقيام ببعض التمرينات، ولأخرج من الضجر الذي أنا فيه، ولأحسّن مزاجي». قال ذلك وفعله: ففي الأول من شهر تشرين الأول بدأ الرحلة. وفي اليوم الثاني منه، وهو لا يزال في الطريق، كان أكثر صراحة في رسالة كتبها إلى الجنرال خوستو بريثينيو: «إنني ذاهب إلى سانتا مارتا وهدفي المشاركة بنفوذي في الحملة المتوجهة إلى ماركايبو». وعاد في اليوم ذاته فكتب إلى أوردانيتا: «إنني ذاهب إلى سانتا مارتا وهدفي زيارة تلك البلاد التي لم أزرها مطلقاً، ولأرى إن كنت أخيب أمل بعض الخصوم الذين يؤثّرون كثيراً في رأي الناس». وعندئذ فقط كشف له عن الغرض الحقيقي من رحلته: «سأراقب عن قرب العمليات ضد ريوهاتشا، وسأقترب من ماركايبو ومن القوّات لأرى إن كنت قادراً على التأثير في عملية ذات أهمية». بهذه الرؤية، لم يعد ذاك المتقاعد المهزوم الهارب إلى المنفى، وإنما صار جنرالاً في حملة عسكرية.

استبق خروجه من كارتاخينا باستعدادات حرب سريعة، فلم يتِح وقتاً لأي وداع رسمي، ولم يبلّغ سوى عدد محدود من الأصدقاء بالخبر مسبقاً. وبتعليمات منه، ترك فرناندو وخوسيه بالاثيوس نصف الأمتعة في عهدة أصدقاء أو في بيوت تجارية، كي لا يحملوا معهم أثقالاً لا جدوى منها

إلى حرب غير مضمونة. تركوا لدى التاجر المحلي دون خوان بافاجيو عشرة صناديق تضم أوراقاً خاصة، وكلفوه بإرسالها إلى عنوان في باريس سيزوّدونه به في ما بعد. وفي إيصال الإيداع اتفق على أن يقوم السيد بافاجيو بإحراق تلك الصناديق إذا لم يستطع صاحبها المطالبة بها لأسباب قاهرة.

وأودع فرناندو في مؤسسة بوش وشركاه المصرفية مئتي أونصة ذهبية ظهرت في اللحظة الأخيرة، من دون أن يجدوا أي أثر لمصدرها، بين أدوات الكتابة الخاصة بعمّه. وأودعوا لدى خوان دي فرانثيسكو مارتين صندوقاً يحتوي على خمس وثلاثين ميدالية ذهبية. وتركوا لديه أيضاً جراباً من المخمل يضم مئتين وأربعاً وتسعين ميدالية فضية كبيرة، وسبعاً وستين ميدالية صغيرة وستاً وتسعين ميدالية متوسطة، وجراباً آخر يضم أربعين ميدالية تذكارية من الفضة والذهب، بعضها عليه صورة جانبية للجنرال. كما تركوا عنده الدرع الذهبية التي حملوها من مومبوكس في علبة نبيذ قديمة، وبعض ملاءات الأسرّة المستعملة، وصندوقيّ كتب، وسيفاً مرصَّعاً وبندقية معطوبة. وبين مجموعة الأشياء الصغيرة الكثيرة التي تراكمت في الأزمنة الماضية، كانت توجد عدة نظارات مهملة، ذات تدريجات متتالية، منذ اكتشف الجنرال أنه يعاني طول بصر شيخوخي بسبب الصعوبة التي كان يجدها في حلاقة ذقنه، حين كان في التاسعة والثلاثين، حتى لم يعد امتداد ذراعه يكفيه للقراءة.

وقد ترك خوسيه بالاثيوس بدوره في عهدة دون خوان دي ديوس أمادور، صندوقاً كان يحمله معه في ترحاله من مكان إلى آخر، من دون أن تكون لديه فكرة مؤكدة عن محتواه. كان صندوقاً خاصاً بالجنرال الذي لم يستطع في إحدى اللحظات مقاومة شراهة تملّك أشياء لا تخطر على بال، مثلما يفعل الرجال الذين لا يتمتعون بمزايا كبيرة، وبعد فترة من الزمن صار يضيق بتلك الأشياء ولا يعرف كيف يتخلص منها. لقد حمل ذلك

الصندوق معه من ليما إلى سانتافي، سنة 1826، وبقي معه بعد محاولة اغتياله في الخامس والعشرين من أيلول، حين رجع إلى الجنوب لخوض حربه الأخيرة. وكان يقول: «لا يمكننا التخلي عنه، ما دمنا لا نعرف على الأقل أنه ليس لنا». وعندما عاد إلى سانتافي في آخر مرّة، مستعداً لتقديم استقالته النهائية أمام الكونغرس التأسيسي، رجع إليه ذلك الصندوق مع المتاع القليل المتبقّي من أمتعته الإمبراطورية. وأخيراً قرروا فتحه في كارتاخينا، خلال جرد عام لممتلكاته، واكتشفوا فيه خليطاً من الأشياء الشخصية التي اعتبرت مفقودة منذ زمن بعيد. كان في الصندوق أربعمئة وخمس عشرة أونصة ذهبية ممهورة بالختم الكولومبي، ورسم للجنرال جورج واشنطن مع خصلة من شعره، وعلبة سعوط ذهبية مهداة من ملك بريطانيا، وعلبة ذهبية مزينة بمفاتيح من الماس تضم أيقونة، ونجمة بوليفيا العظمى المرصَّعة بالماس. أودع خوسيه بالاثيوس كل تلك الأشياء في بيت دون فرانشيسكو مارتين، موصوفة ومسجلة، وطلب بها إيصالاً نظامياً. تقلصت الأمتعة حينئذ إلى حجم معقول، بالرغم من بقاء ثلاثة صناديق لملابسه التي يستخدمها وصندوق آخر فيه عشرة شراشف مستعملة من القطن والكتان، وصندوق يحتوي على أدوات مائدة ذهبية وفضية من أنواع مختلفة، لم يشأ الجنرال أن يتركها أو أن يبيعها، مقدراً أنه قد يحتاج إليها في ما بعد لوليمة يقيمها لضيوف بارزين. كثيراً ما اقترحوا عليه بيع تلك الأشياء لزيادة موارده القليلة، لكنه رفض ذلك دوماً متذرعاً بأنها من أملاك الدولة.

بتلك الأمتعة المخفَّفة والموكب المصغَّر، قطعوا المرحلة الأولى من رحلتهم ووصلوا إلى تورباك. ثم واصلوا الرحلة في اليوم التالي في جو حسن. ولكنهم اضطروا عند الظهيرة إلى الاحتماء تحت شجرة كامبانو ضخمة، حيث أمضوا ليلتهم تحت رحمة الأمطار ورياح المستنقعات الخبيثة. اشتكى الجنرال من آلام في ذراعه وكبده، فأعد له خوسيه

بالاثيوس شراباً دافئاً من تلك التي ينصح بها الكتاب الفرنسي، لكن الآلام أصبحت أكثر حدّة، واشتدت الحمّى عليه. وما إن طلع الصبح حتى كان منهوكاً تماماً، مما جعلهم يحملونه وهو فاقد الإحساس إلى بلدة سوليداد، حيث استقبله في بيته صديق قديم، هو دون بيدرو خوان فيسبال. بقي هناك أكثر من شهر، يعاني جميع أنواع الآلام التي فاقمتها أمطار تشرين الجائرة.

كان اسم سوليداد[1] مناسباً لها تماماً: فهي أربعة شوارع ذات بيوت بائسة، وملتهبة وكئيبة، على بعد فرسخين من بارانكا دي سان نيكولاس القديمة، التي ستتحوّل بعد سنوات قليلة إلى أكثر مدن البلاد ازدهاراً وضيافة. ما كان الجنرال ليجد مكاناً أكثر سكوناً، ولا بيتاً أكثر ملاءمة لحالته، بشرفاته الأندلسية الست التي تغمره بالضياء، وبفنائه المناسب للتأمل تحت شجرة الثيبا المئوية. وكان وهو في حجرة النوم، يرى الساحة المقفرة، والكنيسة المهدمة والبيوت ذات السقوف المصنوعة من السعف والمطليّة بألوان باهتة.

لم يُفِدهُ السلام المنزلي في شيء كذلك. ففي الليلة الأولى أصيب بإغماءه خفيفة، لكنه رفض الإقرار بأنها مؤشر جديد على تدهور صحته. واستناداً إلى الكتاب الفرنسي شخَّص أمراضه بأنها كآبة زاد من تأثيرها زكام عام، وروماتيزم قديم جدده سوء الأحوال الجوّية. وقد زاد ذلك التشخيص المتعدد من كراهيته لطعم الأدوية التي تستخدم لعدة أمراض في وقت واحد، وكان يقول إن المفيد منها لبعض الأمراض، مضرٌّ لأمراض أخرى. لكنه كان يعترف كذلك بأنه لا وجود لدواء جيد لمن يرفض تناول الدواء، ويشكو يومياً من افتقاره إلى طبيب جيد. على حين كان يمنع الأطباء الكثيرين المرسَلين إليه من الكشف على حاله.

وقد قال الكولونيل ويلسون في رسالة كتبها إلى أبيه في تلك الأيام، أنه

---

(1) سوليداد Soledad: هو اسم البلدة، ويعني:عزلة.

يمكن للجنرال أن يموت في أي لحظة، وأن رفضه للأطباء لم يكن ازدراءً وإنما نوعاً من بُعد النظر. فالحقيقة - يقول ويلسون - إن المرض هو العدو الوحيد الذي كان الجنرال يخشاه، ويرفض مواجهته كي لا يشغله عن مهمة حياته الكبرى. وكان الجنرال قد قال له يوماً: «إن تكريس الاهتمام بمرض هو أشبه بالعمل في سفينة». وقبل أربع سنوات، في ليما، اقترح عليه أولياري أن يوافق على إجراء فحوص طبية متعمقة في أثناء إعداده دستور بوليفيا، فكان رده حاسماً:

«لا يمكن كسب سباقين في وقت واحد».

يبدو أنه كان مقتنعاً بأن الحركة المتواصلة والاعتماد على النفس هما رقية ضد المرض. كان من عادة فرناندا باريغا أن تضع له مريلة وأن تطعمه بالملعقة، مثل الأطفال، وكان يتلقى الطعام ويمضغه بصمت، بل إنه كان يعيد فتح فمه عندما ينتهي من ابتلاعه. لكنه في تلك الأيام أخذ ينتزع منها الطبق والملعقة ويأكل بيده، من دون مريلة، كي يفهم الجميع أنه ليس بحاجة لمساعدة أحد. وكان قلب خوسيه بالاثيوس يتفتت حين يجده يحاول أداء الأعمال البيتية التي يقوم بها عادة خدمه أو جنوده أو مرافقوه، ولم يجد عزاء حين رآه يدلق على نفسه يوماً زجاجة حبر وهو يحاول أن يفرغها في دواة. كانت تلك الحادثة فريدة، لأن الجميع كانوا معجبين بثبات نبض يديه وعدم ارتجافهما مهما بلغ سوء حالته، وقد كان نبضه ثابتاً لدرجة أنه كان يقلّم أظفاره بنفسه ويهذبها مرّة كل أسبوع، ويحلق ذقنه بنفسه كذلك كل يوم.

لقد عاش ليلة سعيدة، في فردوسه بليما، مع فتاة يغطّي جسدها زغب ناعم يصل حتى آخر ملليمتر من بشرتها البدوية، وبينما كان يحلق ذقنه في الصباح، تأملها وهي عارية في الفراش، سابحة في حلم هادئ مثل أي امرأة راضية، ولم يستطع مقاومة الرغبة في جعلها له مدى الحياة. غطى جسدها، من رأسِها وحتى قدميها، بالصابون وحلق بتلذّذ حب ذلك

الجسد بموسى حلاقة، وكان يفعل ذلك بيده اليمنى حيناً، وبيده اليسرى حيناً آخر، ذارعاً بشرتها شبراً شبراً، بما في ذلك الحاجبين وتركها عارية مرتين بجسدها الرائع الذي صار وكأنه جسد وليد. سألته بروح مفتونة إن كان يحبها حقاً، فأجابها بالرد الطقوسي الذي أمضى حياته وهو ينثره من دون رأفة في قلوب لا حصر لها:

«أكثر من كل من أحببت في هذا العالم».

في بلدة سوليداد، وفيما هو يحلق ذقنه كذلك، أخضع نفسه لتلك التضحية ذاتها: بدأ بقَصّ خصلة شعر بيضاء ناعمة من الشعر القليل الذي تبقى له، وربما كان ينقاد في ذلك إلى دافع طفولي. ثم قصّ خصلة أخرى وهو أكثر وعياً، وبعد ذلك قصّ شعره كله من دون نظام معين، وكأنه يقطع أعشاباً، بينما كان ينشد بصوته المشروخ مقاطعه المفضلة من ملحمة «لا أراوكانا». دخل خوسيه بالاثيوس إلى حجرة النوم ليرى مع مَن يتكلم، فوجده يحلق بالموسى رأسه المغطى برغوة الصابون، إلى أن صار رأسه حليقاً تماماً.

لم يتوصل إلى الخلاص بذلك التعزيم، وصار يلبس القلنسوة الحريرية في النهار، ويضع على رأسه الطاقية الملونة في الليل، لكنه لم يستطع التخفيف من لسعات خمود الهمّة الجليدية. كان ينهض في الظلام ليتمشى في البيت الواسع، لكنه لم يعد يسير عارياً، بل صار يتدثر ببطانية كي لا يرتعش من البرد في الليالي الحارة. ومع مرور الأيام لم تعد البطانية تكفيه، فقرر أن يلبس الطاقيَّة الملونة فوق القلنسوة الحريرية.

كانت دسائس العسكريين، وخبث السياسيين تثير حفيظته، حتى إنه ضرب الطاولة بقبضته في مساء أحد الأيام، وقرّر أنه لم يعد قادراً على تحمل هؤلاء ولا أولئك، وصاح: «قولوا لهم إنني مسلول كي لا يرجعوا إليّ». كان قراراً حاسماً، حظر بموجبه البدلات والمراسم العسكرية في البيت. لكنه لم يستطع العيش من دونها، فقد توالت زيارات المواساة والاجتماعات

السرية العقيمة مثلما كانت في السابق، على الرغم من أوامره. حينئذ أحسّ بأنه في حالة بالغة السوء، ووافق على أن يزوره طبيب شريطة ألّا يفحصه، وألا يسأله عن آلامه، وألا يحاول تقديم أي شراب له. وقال:

«فليأتِ لنتبادل الحديث فقط».

كان الطبيب المختار يبدو أكثر من مناسب لرغباته. كان اسمه هيركوليس غاستيلبوندو، وهو شيخ مطلي بالمرح، ضخم الجسد هادئ الطباع، يلمع رأسه بصلعة كاملة، ويتمتع بصبر غريق كافٍ بحد ذاته لتسكين أمراض الآخرين. كانت شكوكه وجسارته العلمية مشهورة في المنطقة الساحلية كلها. فهو يصف كريما الشوكولاته لاختلالات الغدة الصفراء، وينصح بممارسة الحب في استراحة الهضم باعتباره عاملاً ملائماً للعيش حياة مديدة، ويدخّن من دون توقف سجائر حوذيين يلفها بنفسه في ورق أسمر خشن، ويصف تلك السجائر لمرضاه كدواء لجميع اضطرابات الجسد. وكان مرضاه أنفسهم يقولون إنه لا يشفيهم أبداً شفاء نهائياً، لكنه يسليهم بطلاقة لسانه المزوَّقة، فيطلق هو ضحكة مبتذلة ويقول:

«مرضى الأطباء الآخرين يموتون مثل مرضاي، لكن من يموتون معي يكونون أكثر بهجة».

جاء في عربة السيّد بارتولومي موليناريس، الذي كان يذهب ويجيء عدة مرّات في اليوم محضراً معه جميع أصناف الزائرين المتطوعين، إلى أن منعه الجنرال من المجيء من دون دعوة مسبقة. وصل الطبيب مرتدياً ملابس بيضاء من كتان غير مكوي، وشق طريقه تحت المطر، بجيوبه المترعة بمأكولات متنوّعة، وكان يحمل مظلة مفتقة كثيراً لدرجة أنها تنفع في اجتذاب الماء أكثر مما تنفع في الحماية منه. وأول ما فعله بعد التحيّات الشكلية هو أنه طلب المعذرة للرائحة الكريهة المنبعثة من سيجارته التي كان قد دخن نصفها. لكن الجنرال الذي لم يكن يطيق دخان التبغ، ليس في ذلك الحين فقط، بل على الدوام، صفح له مقدماً بالقول:

«إنني معتاد. فمانويلا تدخن سجائر أشد قرفاً من سجائرك، وتفعل ذلك حتى وهي في الفراش، وتنفث الدخان قريباً مني أكثر مما تفعله حضرتك».

تلقف الدكتور غاستيلبوندو على الفور الفرصة التي كانت تحرق روحه، وقال:

«وبالمناسبة، كيف هي الآن؟».

«مَن؟».

«دونيا مانويلا».

فرد الجنرال بجفاء: «لا بأس».

ثم غيّر الموضوع بشكل مكشوف جعل الطبيب يطلق قهقهة مدوية ليداري وقاحته. كان الجنرال يعلم بلا ريب أنه لا توجد واحدة من شقاواته الغرامية بمنأى عن همسات مرافقيه. لكن مغامراته كانت كثيرة وصاخبة، مما جعل أسرار مخدعه معروفة للجميع. لقد كان وصول رسالة عادية مرسلة من ليما إلى كارتاخينا يتأخر ثلاثة شهور، أما التقوّلات عن مغامراته فكانت تطير على ما يبدو مع الأفكار. وكانت الفضائح تلاحقه وكأنها ظل آخر له، وتبقى عشيقاته موسومات إلى الأبد بصليب من رماد، لكنه كان ينفّذ، بلا جدوى، واجبه في الحفاظ على أسرار الحب محمية في نار مقدسة. لم يحصل أحد منه على وشاية بامرأة كانت له يوماً، اللهم إلّا خوسيه بالاثيوس الذي كان متواطئاً معه في كل شيء. وحتى من دون أن يرضي فضولاً بريئاً مثل فضول الدكتور غاستيلبوندو، حول مانويلا ساينث، فإن علاقاته الغرامية كانت شائعة بحيث لم يكن لحيطته أي أهمية.

باستثناء ذلك الحادث العارض، كان الدكتور غاستيلبوندو بالنسبة إليه رؤيا مرسلة من العناية الإلهية. لقد أعاد إليه الحماسة بجنونه الحكيم، فكان يقاسمه حيوانات الحلوى، والكعك المصنوع مع الحليب وقطع الشوكولاته الممزوجة بنشاء اليكة التي يحملها في جيوبه، فيتقبلها

الجنرال تهذّباً ويأكلها سهواً. وفي أحد الأيام أبدى تذمره من أن حلوى الصالونات تلك تنفع في إلهاء الجوع، ولكنها غير نافعة في استعادة وزن الجسم، وهو ما يرغب فيه. فرد عليه الطبيب: «لا تقلق يا صاحب الفخامة. فكل ما يدخل عبر الفم يُسمّن وكل ما يخرج منه يُحقّر». وقد بدت تلك النصيحة مسلية للجنرال، حتى أنه وافق على أن يتناول مع الطبيب كأساً من نبيذ وفنجاناً من خلاصة جذور الساغو النشوية.

ومع ذلك، فإن مزاجه الذي كان الطبيب يُحسّنه بإتقان، كانت تعكره الأخبار السيئة، فقد روى له أحدهم أن صاحب البيت الذي أقام فيه في كارتاخينا قد أحرق السرير الذي نام عليه، خوفاً من العدوى، وأحرق معه الفراش والشراشف، وكل ما مسَّته يداه خلال إقامته هناك. فأرسل إلى خوان دي ديوس آمادور يأمره بأن يدفع من المال الذي تركه لديه ثمن كل الأشياء التي أُتلفت، كما لو كانت جديدة، إضافة إلى بدل إيجار البيت. لكن ذلك كله لم يحمل السكينة إلى مرارته.

وكان شعوره أسوأ بعد بضعة أيام، حين علم أن خواكين موسكيرا قد مرّ من هناك وهو في طريقه إلى الولايات المتحدة، ولم يتنازل بزيارته. وحين سأل هذا وذاك من دون مواراة جزعه، علم أنه قد أمضى أسبوعاً في الساحل بانتظار السفينة، وأنه قابل عدداً كبيراً من أصدقائهما المشتركين، وبعض خصومه أيضاً، وقد أعرب للجميع عن استيائه مما كان يعتبره جحود الجنرال. وفي لحظة رحيله، حين كان في الزورق الذي حمله إلى السفينة، أوجز فكرته الراسخة ليسمعها جميع مَن كانوا في وداعه، بأن قال لهم:

«تذكروا جيداً. هذا الشخص لا يحب أحداً».

كان خوسيه بالاثيوس يعرف مدى حساسية الجنرال من مثل ذلك الذم. فلم يكن هناك ما يؤلمه أو يعمي بصيرته مثل ارتياب أحد في عواطفه ووضعها موضع الشك. كان مستعداً لإزاحة محيطات وهدّ جبال بقدرته الرهيبة على الإغواء، لكي يقنعه بخطئه. ففي ذروة مجده، أغلقت ديلفينا

غواردیو لا، فاتنة انغوستورا، باب بيتها في وجهه، ساخطة من تقلب أهوائه، وقالت له: «أنت رجل أرفع مكانة من جميع الرجال أيها الجنرال، لكن الحب كبير على مقاسك». دخل إليها من نافذة المطبخ وظل معها ثلاثة أيام، ولم يكن على وشك خسارة معركة بسبب ذلك، بل كاد أن يخسر حياته أيضاً، إلى أن تمكن من جعل ديلفينا تثق بقلبه.

كان موسكيرا قد أصبح بعيداً عن متناول يده، لكنه أوضح حقده لكل من استطاع محادثتهم. وتساءل حتى التخمة عن حق التكلم عن الحب الذي يتمتع به رجل سمح بأن يبلغوه في مذكرة رسمية، بالقرار الفنزويلي القاضي بحرمانه من مواطنيته ونفيه. وصرخ: «عليه أن يشكرني لأني لم أردّ عليه وأنقذته بذلك من إدانة تاريخية». تذكر كل ما عمله من أجله، وكم ساعده ليصير إلى ما هو عليه، وكم كان عليه أن يتحمّل بلاهة نرجسيته الريفية. بعد ذلك كتب إلى صديق مشترك لهما رسالة مطوَّلة ويائسة، ليتأكد من أن أصوات غمّه ستصل إلى موسكيرا في أي مكان من العالم.

أما الأخبار التي لا تصل فكانت تلفّه بضباب غير مرئيّ. فأوردانيتا لم يرد على رسائله بعد. وبريثينيو مينديث، رجله في فنزويلا، أرسل إليه رسالة ومعها بعض فواكه جامايكا التي يحبها كثيراً، لكن المراسل غرق في الطريق. وخوستو بريثينيو، رجله في الجبهة الشرقية، كان يبعث فيه القنوط ببطئه. كان صمت أوردانيتا قد ألقى ظلالاً على البلاد وألقى موت فيرنانديث مدريد، مراسله في لندن، ظلالاً على العالم.

ما لم يكن يعرفه الجنرال هو أنه في الوقت الذي كان يفتقر فيه إلى أخبار من أوردانيتا، كان هذا الأخير يحتفظ بمراسلات نشطة مع الضباط المرافقين للجنرال، محاولاً جعلهم ينتزعون منه رداً واضحاً. فقد كتب إلى أولياري: «أريد أن أعرف بصورة نهائية إذا كان الجنرال يقبل الرئاسة أم أنه لا يقبل بها، أو إذا كنا سنقضي حياتنا كلها في الركض وراء شبح لا يمكن اللحاق به».

وكان كثيرون ممن يحيطون بالجنرال، وليس أولياري وحده، يحاولون الدخول في ثرثرات عارضة معه ليبعثوا إلى أوردانيتا رداً ما، لكن تهرّبات الجنرال لم تكن تترك لهم مدخلاً.

عندما تلقوا، أخيراً، أنباء مؤكدة من ريوهاتشا، كانت تلك الأنباء أشدّ سوءاً من النبوءات. فالجنرال مانويل فالديس، استولى كما كان مقرراً على المدينة، من دون مقاومة، في العشرين من تشرين الأول، لكن كاروخو أباد له فرقتين استكشافيتين في الأسبوع التالي. قدم فالديس إلى مونتيللا استقالة تبدو مشرفّة، لكن الجنرال اعتبرها نذالة، وقال: «إن هذا الوغد يموت خوفاً». كان أمامهم خمسة عشر يوماً فقط للاستيلاء على ماراكايبو، حسب الخطة الموضوعة، لكن بسط السيطرة على ريوهاتشا كان لا يزال حلماً بعيد المنال.

«يا للعنة! زهرة وزبدة جنرالاتي يعجزون عن إخماد تمرّد ثكنه» - صرخ الجنرال.

ومع ذلك، فإن أكثر خبر أثّر فيه هو أن الأهالي كانوا يهربون لدى وصول القوّات الحكومية، لأنهم كانوا يعتبرونها مثله، ويعتبرونه قاتل الأميرال باديللا، الذي كان معبوداً في مسقط رأسه ريوهاتشا. ويبدو أن الكارثة جاءت متوافقة مع بقية نكبات البلاد. فالفوضى والبلبلة كانت تضرب جميع الأرجاء، وكانت حكومة أوردانيتا عاجزة عن وضع حد لذلك.

لقد فوجئ الدكتور غاستيلبوندو مرّة أخرى بقدرة الغضب على الإنعاش، يوم وجد الجنرال يطلق لعنات توراتية أمام مبعوث خاص قدّم إليه آخر أخبار سانتافي. كان يصرخ:

«هذه الحكومة الخرائية، بدلاً من أن تشرك معها الشعب والشخصيات البارزة، فإنها تبقيهم مشلولين. ستسقط من جديد، ولن تنهض للمرّة الثالثة، لأن الرجال الذين يؤلفونها سيُبادون هم والجماهير التي تدعمها».

لم تُجدِ نفعاً الجهود التي بذلها الطبيب لتهدئته. وما إن انتهى من انتقاداته اللاذعة للحكومة حتى راجع صارخاً سجل أركانها الأسود، فعن الكولونيل خواكين باريغا، بطل ثلاث معارك كبيرة، قال إنه يمكنه أن يكون سيئاً قدر ما يستطيع: «بل وقاتلاً أيضاً». وعن الجنرال بيدرو مارغوتييو، وكان يشتبه بأنه متورط في مؤامرة اغتيال سوكره، قال إنه رجل بائس لا يمكنه أن يكون في قيادة القوّات. أما الجنرال غونثالث، أكبر مؤيديه في كاوكا، فقد أجهز عليه بقسوة قائلاً: «أمراضه ليست إلا ضعفاً وانتفاخات غازية في أمعائه». ثم تهالك على الكرسي الهزاز لاهثاً، ليمنح قلبه الراحة التي كان يحتاج إليها منذ نحو عشرين سنة. عندئذ لمح الدكتور غاستيلبوندو يقف عند إطار الباب وقد شله ذهول المفاجأة، فرفع صوته وقال:

«وما الذي يمكن انتظاره في نهاية المطاف من رجل خسر بيتين في لعبة الزهر؟».

وقف الدكتور غاستيلبوندو حائراً، ثم سأله: «عمن نتحدث الآن؟».

«عن أوردانيتا. خسر البيتين في ماراكايبو مع قومندان من البحرية. لكنه أظهر الأمر في الوثائق وكأنه عملية بيع». ثم استنشق الهواء الذي كان بحاجة إليه، وتابع: «وجميعهم ليسوا بالطبع سوى قديسين إلى جانب الداهية سانتَندير. كان أصدقاؤه يسرقون أموال القروض الإنكليزية، بشرائهم السندات الحكومية بعُشر قيمتها الحقيقية، ثم تقبلها الحكومة ذاتها منهم في ما بعد بسعرها الكامل مئة بالمئة». وأوضح أنه لم يكن يعارض مع ذلك القروض لما تحمله من مخاطر الإفساد، وإنما لإدراكه في الوقت المناسب بأنها تهدّد الاستقلال الذي كلف دماء كثيرة. وقال: «إنني أمقت القروض أكثر من مقتي للإسبان. لذلك نبهت سانتَندير إلى أن كل ما نفعله لخير الأمة لن ينفع شيئاً إذا ما قبلنا الديون، لأننا سنبقى ندفع فوائدها إلى أبد الآبدين. وها نحن نرى الأمر بجلاء الآن: لقد هزمتنا الديون».

لم يكن في بداية الحكومة الحالية متفقاً مع قرار أوردانيتا باحترام حياة المهزومين وحسب، بل إنه احتفل بذلك معتبراً إياه أخلاقاً جديدة للحرب: «ما لم يفعل بنا خصومنا الحاليين ما فعلناه نحن بالإسبان» أي، ما لم يخوضوا حرباً حتى الموت. لكنه في لياليه الداجية في سوليداد ذكّر أوردانيتا في رسالة رهيبة بأن المنتصر في جميع الحروب الأهلية هو الأشدّ شراسة على الدوام.

وقد قال للطبيب: «صدقني يا دكتور. لا يمكننا الحفاظ على سلطتنا وعلى حياتنا إلّا بإهراق دم خصومنا».

وفجأة، انزاح الغضب عنه من دون أن يخلف أثراً، بالصورة المفاجئة التي بدأ بها، وشرع الجنرال في التبرئة التاريخية للضباط الذين شتمهم قبل قليل، وقال:

«أنا المخطئ على أية حال. لقد أرادوا تحقيق الاستقلال، وكان مسألة مباشرة ومحددة، وانظر إذا كانوا قد حققوه بصورة جيدة!».

مدّ يده التي كانت مجرّد عظام إلى الطبيب ليساعده في النهوض، ثم اختتم كلامه متنهداً:

«أما أنا فضيّعت نفسي في حلم أبحث فيه عن شيء لا وجود له».

في تلك الأيام، اتخذ قراره النهائي حول تسوية وضع أيتوربيدي. ففي أواخر شهر تشرين الأول، تلقى هذا الأخير رسالة من أمه، مرسلة كالعادة من جورج تاون، تخبره فيها بأن تقدّم القوّات الليبرالية في المكسيك، يُبعد عن الأسرة أكثر فأكثر، أي أمل في العودة إلى الوطن. صار تردّده حينئذ لا يُطاق، وهو الذي كان يحمل التردّد من المهد، ولحسن حظه، وفيما كان الجنرال يتمشى مستنداً إلى ذراعه في أحد الأيام، استحضر أمامه ذكرى غير متوقعة حين قال له:

«أحمل من المكسيك ذكرى خبيثة واحدة. ففي فيراكروث، مزقت كلاب ضابط الميناء الكبيرة جروَين كنت سآخذهما معي إلى إسبانيا».

وأخبره أن تلك كانت، على أية حال، تجربته الأولى في الدنيا، وقد أثرت فيه إلى الأبد. كان مقرراً أن تكون فيراكروث محطة قصيرة في رحلته الأولى إلى أوروبا، في شباط 1799، لكن توقفه فيها استمر نحو شهرين بسبب حصار إنكليزي على هافانا، وهي المحطة الثانية؛ وقد منحه التأخير وقتاً للذهاب في عربة إلى مدينة مكسيكو، متسلقاً نحو ثلاثة آلاف متر بين قمم براكين ثلجية وقفار مبهرة لا تشبه في شيء صباحات وادي أرغوا الرعوية، حيث عاش حتى ذلك الحين. قال: «وفكرت بأنه لا بد للقمر من أن يكون هكذا». وفي مدينة مكسيكو، فاجأه نقاء الهواء، وأذهلته الأسواق العامة، بوفرة بضائعها ونظافتها. كانت تُباع للأكل في تلك الأسواق ديدان صبر السيزال الحمراء، والأرماديلات[1]، وديدان النهر، وبيوض الناموس، والجنادب، ويرقات النمل الأسود، ودبابير الذرة، وعظائيات مدجنة، وحيّات من ذوات الأجراس، وعصافير من كل الأنواع، وكلاب قزمة، ونوع من الفاصولياء التي تتقافز حيّة من دون توقف، وقال: «إنهم يأكلون كل ما يدب» وقد فاجأته المياه الصافية المنسابة في عدة قنوات تخترق المدينة، والزوارق المطلية بألوان احتفالية، وبهاء الأزهار ووفرتها. ولكنه أحس بالاكتئاب لقصر نهارات شباط، ولمرأى الهنود الصامتين، ولرذاذ المطر الأبدي، وكل ما سيُثقل على قلبه في ما بعد في كل من سانتافي وليما ولاباز، وعلى طول منطقة الأنديز وعرضها، وكان يعانيه يومئذ لأوّل مرّة. وقد قاده الأسقف الموصى عليه إلى اجتماع مع نائب ملك إسبانيا في المكسيك، وكان أسقفياً أكثر من الأسقف، ولم يكد يولي اهتماماً للفتى الأسمر الهزيل، ذي الملابس المتأنقة، الذي أعلن إعجابه بالثورة

(1) الأرماديلات، جمع أرماديلّو Armadillo: وهو حيوان لبون أميركي جنوبي، يعرف باسم المدرَّع، لأن جسمه مغطى بدرع من حراشف قاسية.

الفرنسية. وقد قال الجنرال مستمتعاً: «ربما فكرت بأنه لا بدّ من بعض السياسة في الحديث مع نائب الملك، وكان الحديث عن الثورة الفرنسية هو الشيء الوحيد الذي كنت أعرفه وأنا في السادسة عشرة من عمري». وقبل أن يواصل الرحلة، كتب رسالة إلى خاله دون بيدرو بالاثيوس اي سوخو، وهي رسالته الأولى التي ستحفظ، وقال وهو يكاد يموت من الضحك: «كان خطّي سيئاً حتى أنني لم أكن أفهمه أنا نفسي، لكنني أوضحت لخالي أن خطي يخرج على تلك الحالة بسبب إرهاق السفر». في رسالة من صفحة ونصف، ارتكب أربعين خطأ إملائياً، اثنان منها في كلمة واحدة هي كلمة «أنا».

لم يستطع ايتوربيدي أن يعلق بكلمة واحدة، لأن ذاكرته لا تسمح له بذلك. فكل ما بقي لديه من المكسيك كان ذكرى نكبات زادت من كآبته الخلقيّة، وقد كانت لدى الجنرال أسباب كافية لفهم ذلك، فقال له: «لا تبق مع أوردانيتا، ولا تذهب كذلك مع أسرتك إلى الولايات المتحدة، فهي بلاد الجبروت والفظاعة، وهي ستنتهي بكلامها عن الحرية إلى الإيقاع بنا جميعاً في البؤس».

ألقت كلمات الجنرال شكوكاً جديدة في مستنقع التردّد، فهتف ايتوربيدي:

«لا تخفني يا جنرال!».

فقال الجنرال بلهجة هادئة:

«لا تخف. عد إلى المكسيك، حتى لو قتلوك أو مُتّ. واذهب إليها الآن، وأنت لا تزال شاباً، وإلا فإن ذلك سيصبح متأخراً في يوم ما، وعندها لن تشعر بالانتماء إلى هنا ولا إلى هناك. ستشعر بأنك غريب في كل مكان، وهذا أسوأ من الموت». نظر إلى عينيه مباشرة، ووضع يده المفتوحة على صدره، وانتهى قائلاً:

«اسألني أنا عن ذلك».

وكان أن ذهب ايتوربيدي في أوائل شهر كانون الأول، حاملاً رسالتين إلى أودانيتا، يقول له في إحداهما إنه هو وويلسون وفيرناندو أكثر الناس ثقة في بيته. وبقي في سانتافي من دون هدف واضح حتى شهر نيسان من العام التالي، عندما أطاحت بأوردانيتا مؤامرة سانتَنديرية. وقد تمكنت أمه بإصرارها المثالي على حملهم على تعيينه سكرتيراً في المفوضية المكسيكية بواشنطن. وعاش بقية حياته منسيّاً في وظيفة عامة، ولم يعد يُعرف أي شيء عن أسرته إلى ما بعد اثنتين وثلاثين سنة، عندما تبنى ماكسيميلانو دي هابسبورغ - الذي فرضه السلاح الفرنسي إمبراطوراً على المكسيك - اثنين من ذكور الجيل الثالث من آل ايتوربيدي، وعيّنهما خلفاء له على عرشه الوهمي.

في الرسالة الثانية التي بعث بها الجنرال مع ايتوربيدي إلى أوردانيتا، طلب منه أن يتلف جميع رسائله السابقة واللاحقة، كي لا يبقى أي أثر لأيامه القاتمة، لكن أوردانيتا لم ينفذ الطلب. وكان قد التمس من الجنرال سانتَندير الشيء نفسه قبل خمس سنوات من ذلك: «لا تأمر بنشر رسائلي، سواء وأنا حيّ أو بعد موتي، لأني كتبتها بحرّية كبيرة وفوضى شديدة». ولم ينفذ سانتاندير الطلب أيضاً. لأن رسائله على عكس رسائل الجنرال، كانت دقيقة شكلاً ومضموناً، ويبدو واضحاً من النظرة الأولى أنه كان يكتبها وهو واعٍ أن مصيرها النهائي هو التاريخ.

منذ رسالة فيراكروث الأولى وحتى الرسالة الأخيرة التي أملاها قبل ستة أيام من وفاته، كتب الجنرال ما لا يقل عن عشرة آلاف رسالة، بعضها بخط يده، وبعضها أملاها على كَتَبته، وبعضها صاغه أولئك الكتَبَة بتعليمات منه. وقد حُفظ منها أكثر من ثلاثة آلاف رسالة ونحو ثمانية آلاف وثيقة، تحمل توقيعه. لقد كان يثير حفيظة كتَبَتِه في بعض الأحيان، أو العكس. وفي إحدى المناسبات بدت له الرسالة التي انتهى من إملائها سيئة، وبدلاً

من إملاء رسالة أخرى، أضافِ إليها سطراً بخط يده أشار فيه إلى الكاتب: «وكما تلاحظ حضرتك، فإن مارتيل اليوم أشدّ حماقة من أي وقت آخر». وعشية خروجه من انغوستورا لينهي تحرير القارة، سنة 1817، أنجز شؤونه الحكومية في أربع عشرة رسالة أملاها في يوم واحد. وربما كان ذلك هو مصدر الأسطورة التي لم ينفها أحد قطّ، والقائلة إنه كان يُملي على عدة كتبة، عدة رسائل مختلفة في وقت واحد.

تقلص تشرين الأول ليصبح مجرّد خرير مطر. ولم يعُد الجنرال يغادر غرفته، وكان على الدكتور غاستيلبوندو أن يلجأ إلى أكثر أساليبه حكمة كي يسمح له بزيارته وإطعامه. وكان لدى خوسيه بالاثيوس إحساس بأنه يراجع في ذاكرته، في تلك القيلولات الساهمة، تفاصيل حياته الماضية وهو قابع في الأرجوحة من دون أن يهزها. وفي مساء أحد الأيام، تنهّد قائلاً:

«يا إله الفقراء. ماذا حدث لمانويلا!».

فقال خوسيه بالاثيوس:

«نعرف فقط أنها في حالة جيدة، لأننا لا نعرف شيئاً عنها».

كان الصمت هو السائد مذ تولي أوردانيتا السلطة. لم يعد الجنرال يكتب إليها، لكنه كان يوصي فرناندو باطلاعها على أخبار الرحلة أولاً بأوّل. أما آخر رسالة منها فقد وصلت في أواخر شهر آب، وكانت تتضمن أخباراً سرية كثيرة حول الإعداد للانقلاب العسكري، ولم يكن فَك رموزها سهلاً بسبب إنشائها القلق ومعلوماتها المتداخلة عن عمد لتضليل العدو.

لقد تجاهلت مانويلا نصائح الجنرال الطيبة، وتولت حتى الأعماق، وبحماسة مفرطة، دور البوليفارية الأولى في الأمة، وخاضت وحدها معركة على الورق ضد الحكومة. لم يجرؤ الرئيس موسكيرا على اتخاذ أي إجراء ضدها، لكنه لم يمنع وزراءه من عمل ذلك. وكانت مانويلا تردّ

على اعتداءات الصحافة الرسمية بتشهيرات مطبوعة توزعها على صهوة حصانها في شارع كاييه ريال، تحت حراسة عبداتها. وتخرج مستعدة لمطاردة من يوزعون قصاصات دنيئة معادية للجنرال في أزقّة الضواحي المرصوفة بالحجارة، وتغطي الشتائم التي تظهر على الجدران صباحاً بشتائم أعظم منها.

وانتهى الأمر بالحرب الرسمية إلى أن تصبح ضدها شخصياً، ونبَّهها جواسيسها في الحكومة إلى ذلك، لكنها لم تجبُن. وفي أحد أيام الأعياد الوطنية، أقاموا في الساحة الكبرى حفلة ألعاب نارية، ووضعوا رسماً كاريكاتيرياً للجنرال يمثله بملابس ملك مضحك. اخترقت مانويلا وعبداتها صفوف الحرّاس ومزقت الرسم بهجوم على الجياد. عندئذ حاول عمدة المدينة نفسه أن يعتقلها وهي في فراشها، مستعيناً بمجموعة من الجنود، لكنها كانت بانتظارهم ومعها غدارتان مجهزتان، ولم يحُل دون وقوع ما هو أسوأ سوى وساطة بعض أصدقاء الطرفين.

الشيء الوحيد الذي هدّأ اندفاعها هو استيلاء الجنرال أوردانيتا على السلطة. كانت تجد فيه صديقاً حقيقياً، وقد وجد فيها أورادنيتا الشريكة الأشدّ حماسةً. فعندما كانت وحيدة في سانتافي، حين خرج الجنرال لقتال الغزاة البيروانيين في الجنوب، كان أوردانيتا هو صديقها الموثوق به الذي يحافظ على سلامتها ويلبّي طلباتها. وعندما أدلى الجنرال بتصريحه المشؤوم في الكونغرس الموقّر، كانت مانويلا هي التي تمكنت من جعله يكتب إلى أوردانيتا: «إنني أعرض عليك صداقتي القديمة كلها، والمصالحة الكاملة الصادرة من القلب». وقد قبل أوردانيتا العرض الشهم، فردت مانويلا الجميل إليه بعد انقلابه العسكري، بأن اختفت من الحياة العامة، وفعلت ذلك بمنتهى الصرامة، حتى أن شائعة راجَت في أوائل تشرين الأول تقول إنها ذهبت إلى الولايات المتحدة، ولم يشك في

ذلك أحداً. لهذا كان خوسيه بالاثيوس محقاً: مانويلا في حالة جيدة، لأن أحداً لا يعرف شيئاً عنها.

في واحدة من تأملات الجنرال ولحظات تفكيره في الماضي، وبينما هو ساهم في المطر، وقد مضّه الانتظار من دون أن يعرف ماذا ينتظر، ولا مَن ينتظر، لامس القاع: فبكى وهو نائم. حين سمع خوسيه بالاثيوس الأنين الخافت ظنه أنين الكلب المتشرد الذي التقطوه في النهر. لكنه كان صادراً عن سيده. استولت عليه الحيرة، لأنه لم يره يبكي طوال سنوات طويلة من المعايشة الحميمة سوى مرّة واحدة، ولم يبك يومذاك ضعفاً، إنما غضباً. استدعى الكابتن إيبارا، الذي كان ساهراً في الممر، وسمع أيضاً حفيف البكاء.

قال إيبارا: «هذا سيساعده».

فقال خوسيه بالاثيوس: «سيساعدنا جميعاً».

تأخر الجنرال في النوم أكثر من المعتاد. لم توقظه العصافير في البستان المجاور، ولا نواقيس الكنيسة، وقد انحنى خوسيه بالاثيوس عدة مرّات على أرجوحة النوم ليرى إن كان لا يزال يتنفس. وعندما فتح عينيه كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة، وكان الحرّ قد بدأ.

قال خوسيه بالاثيوس مرتلاً:

«السبت، السادس عشر من تشرين الأول، يوم القديسة مرغريتا ماريا ألاكوكي».

نهض الجنرال من الأرجوحة وتأمل من خلال النافذة الساحة الترابية المقفرة، والكنيسة ذات الجدران المقشرة، وعراك مجموعة من طيور الرخمة على بقايا كلب ميّت. كانت شراسة أشعة الشمس الأولى تنذر بيوم خانق.

«فلنذهب طائرين من هنا. لا أريد أن أسمع صوت طلقات الإعدام» – قال الجنرال.

ارتعش خوسيه بالاثيوس. فقد عاش مثل تلك اللحظة في مكان آخر وزمان آخر، وكان الجنرال يبدو في هيئة مطابقة لما كان عليه يومئذ، حافياً فوق طوب الأرضية الخشن، ومرتدياً سروالاً داخلياً طويلاً، وطاقية النوم فوق رأسه الحليق. كان حلماً قديماً معاداً إلى الواقع.

«لن نسمعها»، قال خوسيه بالاثيوس ذلك، ثم أضاف بدقة مقصودة: «لقد تم إعدام الجنرال بيار في أنغوستورا، ليس في الساعة الخامسة من مساء اليوم، بل في يوم مثل هذا اليوم منذ ثلاثة عشر عاماً».

كان الجنرال مانويل بيار خلاسياً صلباً من كوراساو، في الخامسة والثلاثين من العمر، محمَّلاً بأمجاد لم يحرز مثلها أحد في الميليشيات الوطنية، وكان قد حاول وضع سلطات الجنرال في الاختبار حين كان الجيش المُحَرِّر في أمس الحاجة إلى الوحدة كي يوقف اندفاعات موريو. كان بيار يحرّض الزنوج والمولدين والخلاسيين، وجميع بائسي البلاد، ضد أرستقراطية كاراكاس البيضاء المجسَّدة بالجنرال. كانت شعبيته وهالة المخَلّص التي نُسجت حوله لا تقارن ألّا بما كان يتمتع به خوسيه أنطونيو بايث، أو بوفيس، الملكي، وكان قد أثر كذلك على عدد من ضباط الجيش المُحَرِّر البيض. استنفد الجنرال معه جميع فنون الإقناع من دون جدوى. ثم تم اعتقال بيار بأمر من الجنرال، واقتيد إلى أنغوستورا، العاصمة الموقّتة، حيث كان الجنرال يتمتع بالقوة بين ضباطه المقرّبين، الذين سيرافقه عدد منهم في رحلته الأخيرة عبر نهر مجدلينا. عين مجلساً عسكرياً بين أعضائه أصدقاء لبيار، لإجراء المحاكمة الصورية. وعمل فيها خوسيه ماريا كارينيو ناطقاً بالحكم. لم يكن على محامي الدفاع الرسمي أن يكذب كي يطري على بيار باعتباره واحداً من أمجد المشاركين في النضال ضد الإسبان. اعتُبر مذنباً وأدين بتهمة الانشقاق، والتمرد والخيانة، وحُكم عليه بالإعدام وبتجريده من ألقابه العسكرية. ولأن الجميع كانوا يعرفون مزاياه، لم يصدّق أحد بأن الجنرال سيصادق على الحكم، خصوصاً في

ذلك الوقت الذي استرد فيه موريو عدداً من الأقاليم، وانهارت معنويات الوطنيين وصار يُخشى من تشتتهم. تعرّض الجنرال لضغوط من كل نوع، واستمع بتهذيب إلى رأي أصدقائه المقرَّبين، ومنهم بريثينيو مينديث، لكن قراره كان غير قابل للاستئناف. ألغى حكم التجريد من الرتبة العسكرية، وصادق على الإعدام رمياً بالرصاص، وزاد عليه بأن أمر بتطبيقه علناً وأمام الملأ. كانت تلك هي الليلة التي لا نهاية لها، والتي أمكن فيها حدوث كل الشرور.

في السادس عشر من تشرين الأول، الساعة الخامسة مساء، نُفّذ الحكم تحت الشمس القاسية في الساحة الكبرى بأنغوستورا، المدينة التي انتزعها بيار نفسه من يد الإسبان قبل ستة شهور. كان قائد فصيلة الإعدام قد أزاح بقايا كلب ميّت كانت طيور الرخمة تأكله، وأغلق مدخل الساحة حتى لا تدخل الحيوانات الطليقة وتشوّه وقار الإعدام. مُنع بيار من شرف إصدار الأمر بنفسه إلى فصيلة الإعدام لتطلق النار، وعُصبت عيناه عنوة، لكنهم لم يستطيعوا منعه من أن يودّع الدنيا بقبلة على الصليب، ومن تقديم تحيّة الوداع للعلم.

كان الجنرال قد رفض حضور تنفيذ الإعدام. والشخص الوحيد الذي بقي معه في البيت هو خوسيه بالاثيوس، وقد رآه يجاهد لكبح الدموع حين سمع صوت الرصاص. وفي البيان الذي أعلم به القوّات بالأمر، قال: «كان يوم أمس يوماً مؤلماً لقلبي»، وسيردد طوال حياته أن ذلك كان ضرورة سياسية أنقذت البلاد، وأوقفت المتمرّدين، وحالت دون وقوع حرب أهلية. ولكنه كان على أية حال، العمل السلطوي الأكثر شراسة في حياته. وكان في الوقت نفسه العمل الأكثر ملاءمة له كذلك، فقد رسّخ سلطته على الفور، ووحّد القيادة وفتح الطريق لأمجاده.

بعد ثلاثة عشر عاماً، وفي قرية سوليداد، لم يبدُ عليه أنه كان يعي أنه كان ضحية تخريف الزمن. واصل تأمل الساحة إلى أن اجتازتها عجوز

ترتدي أسمالاً وتقود حماراً محمَّلاً بجوز الهند لتبيع ماءه، فأفزع ظلها طيور الرخمة. حينئذ رجع إلى الأرجوحة وهو يتنهد براحة. ومن دون أن يسأله أحد، أعطى الجواب الذي كان خوسيه بالاثيوس يود معرفته منذ ليلة انغوستورا المأساوية:

«لن أتردد في العودة إلى عمل ذلك» – قال.

كان المشي هو الخطر الأكبر، ليس لما ينطوي عليه من مخاطر الوقوع، بل لما يكلفه من جهد واضح. أما عند صعوده أدراج البيت ونزوله عليها، فكانت مساعدة الآخرين له أمراً مفهوماً، حتى ولو كان قادراً على عمل ذلك وحده. ولكنه حين صار يحتاج فعلاً إلى يد يستند إليها، لم يعد يسمح بأن يمدّوا إليه تلك اليد. وكان يقول: «شكراً، فأنا ما زلت قادراً على ذلك بمفردي».

لكنه لم يقدر على ذلك في أحد الأيام. كان يستعد لنزول الدرج عندما اختفى العالم فجأة من أمام عينيه. وقد روى لأحد أصدقائه: «هويت على قدميَّ، من دون أن أدري كيف حدث ذلك، وكنت مثل ميت». لكن الأمر كان أسوأ: فهو لم يمت بأعجوبة، لأن الإغماء فاجأه وهو عند بداية الدرج تماماً، ولم يهوِ متدحرجاً إلى أسفل بسبب خفه جسده.

حمَله الدكتور غاستيلبوندو على عجل إلى بارانكا دي سان نيكولاس القديمة، بعربة قدمها دون بارتولومي مولیناریس، الذي استقبله في بيته في رحلته السابقة، وكان قد جهّز له غرفة النوم الواسعة وحسنة التهوية، المطلة على الشارع العريض، والتي نزل فيها أثناء زيارته السابقة. وخلال الطريق بدأت تنزّ بلا توقف من مدمع العين اليسرى مادة سائلة كثيفة. قطع الرحلة غير عابئ بشيء، وكان يبدو في بعض الأحيان كأنه يصلّي، بينما كان في

الحقيقة يدمدم بمقاطع كاملة من أشعاره المفضَّلة. وكان الطبيب يمسح له عينه اليسرى بمنديل، مستغرباً من أنه لا يفعل ذلك بنفسه، وهو الغيور على حُسن مظهره الشخصي. انتبه من شروده عند مدخل المدينة، حين أوشكت مجموعة أبقار جامحة أن تصدم العربة، لكنها زاغت وقلبت عربة الكاهن الذي وثب في الهواء، ثم قفز ناهضاً في الحال وهو معفَّر ببياض الرمل حتى شعره، بينما كانت جبهته ويداه تنزف دماً. وعندما استعاد الكاهن السيطرة على اضطرابه، اضطر جنود الحراسة إلى شق الطريق بين المارة العاطلين والأطفال العراة الذين كانوا يودون التسلية برؤية الحادث فقط، من دون أن تكون لديهم أدنى فكرة عن المسافر الجالس في عتمة العربة، والذي يبدو وكأنه ميت.

قدم الطبيب الأسقف معرّفاً به على أنه واحد من الكهنة القلائل الذين ناصروا الجنرال في الزمن الذي حمل عليه الأساقفة من فوق المنابر وطُرد من رحمة الكنيسة بتهمة كونه ماسونياً شهوانياً. لم يبد على الجنرال أنه قد أدرك ما حدث، ولم يعِ بما يدور حوله إلّا عندما رأى الدم على مسوح الكاهن. وحين طلب منه هذا أن يستخدم نفوذه كي لا تبقى الأبقار طليقة في مدينة صار السير فيها مخاطرة بسبب كثرة العربات على الطريق العام، قال له الجنرال من دون أن ينظر إليه:

«لا تنكّد حياة نيافتك، فالبلاد بأسرها في مثل هذه الحال».

كانت شمس الساعة الحادية عشرة مستقرة فوق رمال الشوارع العريضة والكئيبة، وكانت المدينة كلها تتلألأ في القيظ. ابتهج الجنرال لأنه لن يبقى هناك إلا ريثما يشفى من زلته، وإلى أن يبحر في يوم يكون البحر فيه هائجاً، لأن الكتاب الطبيّ الفرنسي يقول إن دوار البحر مناسب للتخلص من إفرازات الغدة الصفراء وتنظيف المعدة. وقد شُفي من آثار وقعته بسرعة، إنما لم يكن من السهل الملاءمة بين خروج السفن وسوء أحوال الجو.

لم تعد لدى الجنرال الساخط من عقوق جسده قدرة على القيام بأي نشاط سياسي أو اجتماعي. وإذا ما استقبل بعض الزائرين، فإنما يكونون من أصدقائه الشخصيين القدماء الذين يمرون من المدينة لوداعه. كان البيت فسيحاً وبارداً، بالقدر الذي يسمح به شهر تشرين الثاني. وقد حوّله أصحابه إلى مشفى عائلي له. كان دون بارتولومي موليناريس واحداً من الكثيرين الذين قوّضتهم الحروب، والشيء الوحيد الذي خلفته له تلك الحروب هو وظيفة مدير للبريد، وكان يتولّاها من دون راتب منذ نحو عشر سنوات. وقد كان رجلاً طيباً إلى حد جعل الجنرال يدعوه «بابا» منذ رحلته السابقة. أما زوجته المتأنقة، ذات الميول الأمومية المفرطة، فكانت تشغل ساعاتها في صنع الدنتيلّا على مغزل تطريز، لتبيعها بأسعار جيدة في السفن الأوروبية. لكنها منذ مجيء الجنرال، كرّست له كل وقتها، حتى أنها دخلت في نزاع مع فرناندا باريغا، لأنها كانت تضيف له زيت الزيتون إلى العدس، ليقينها بأنه مفيد لأمراض الصدر، وكان الجنرال يأكله مكرهاً بالامتنان.

أكثر ما أزعج الجنرال في تلك الأيام هو صديد مدمَع عينه، الذي أبقاه مكتئب المزاج، إلى أن توقف بفعل قطرة من ماء البابونج. عندئذ انضم إلى اللعب بالورق، وهي سلوى آنية للعذابات التي يسببها البعوض وكآبات الغروب. وفي إحدى نوبات ندمه القليلة، وكان يتجادل مع صاحبَي البيت بين الجد والهزل، فاجأهما بحُكم يقول إن اتفاقاً جيداً أفضل من ألف دعوى رابحة.

سأله السيّد موليناريس:

«وهل ينطبق هذا على السياسة أيضاً؟».

فقال الجنرال: «ينطبق على السياسة قبل أي شيء آخر. فقد خسرنا كل شيء لأننا لم نتفق مع سانتَندير».

قال موليناريس: «ما دام هناك أصدقاء، فهناك أمل».

قال الجنرال: «على العكس تماماً. فليس غدر أعدائي هو الذي قضى على أمجادي، بل اهتمام أصدقائي. فهم الذين ألزموني في كارثة مؤتمر أوكانيا، وهم الذين ورّطوني في مسألة الحكم الملكي، وهم الذين أجبروني في البداية على بحث قضية إعادة انتخابي متذرّعين بالأسباب ذاتها التي جعلوني أستقيل بمقتضاها في ما بعد، وها هم الآن يحتجزونني في هذه البلاد التي لم يعد لي فيها أي شيء».

صار المطر أبدياً، وبدأت الرطوبة بإحداث شروخ في الذاكرة. وكان الحرّ شديداً حتى في الليل، مما جعل الجنرال مضطراً إلى استبدال قميصه المبلل عدة مرّات في اليوم. وكان يشكو:

«أشعر وكأنني أُطبَخُ في ماء يغلي».

وفي مساء أحد الأيام، بقي جالساً على الشرفة أكثر من ثلاث ساعات وهو ينظر إلى الشارع، متأملاً مرور أنقاض الأحياء الفقيرة والأدوات المنزلية، وجثث الحيوانات التي يجرفها سيل أمطار مزلزلة تحاول انتزاع البيت من أساسه.

ظهر القومندان خوان غلين، محافظ المدينة، وسط العاصفة وهو يحمل نبأ اعتقال امرأة من خدم السيّد فيسبال، لأنها كانت تبيع شعر الجنرال، الذي كان قد قصّه في بلدة سوليداد، على أنه تمائم مقدّسة، فأثقلت عليه الكآبة من جديد لإحساسه بأن كل مقتنياته ستتحوّل عند موته إلى بضاعة رخيصة. فقال:

«ها هم أولاء يعاملونني وكأنني ميت».

كانت السيّدة موليناريس قد أدنت كرسيها من طاولة اللعب كي لا تضيّع كلمة واحدة، فقالت:

«إنهم يعاملونك مثلما أنت في الحقيقة: كقدّيس».

«حسن، إذا كان الأمر كذلك، فليطلقوا سراح هذه المسكينة البريئة» - قال.

لم يعد يقرأ. وإذا ما اضطر إلى كتابة رسائل، فانه يكتفي بإعطاء التعليمات إلى فرناندو، من دون أن يراجع حتى تلك الرسائل القليلة التي عليه أن يوقّعها. كان يُمضي الصباح وهو يتأمل من الشرفة صحراء الشوارع الرملية، ويرى مرور حمار توزيع الماء، والزنجية المتهتّكة السعيدة التي تبيع السمك المقدَّد تحت الشمس، وخروج أطفال المدرسة في الحادية عشرة تماماً، والكاهن بمسوحه البالية والملأى بالرقع وهو يباركه من مدخل الكنيسة ويذوب في الحرّ. وفي الواحدة ظهراً، عندما ينام الآخرون القيلولة، كان يسير بجوار الأقنية المتعفّنة مفزِعاً بظلّه أسراب طيور الرخمة المتجمّعة في السوق، ومحَيّياً هنا وهناك الأشخاص القليلين الذين يتعرّفونه وهو شبه ميت وبملابس مدنية، حتى يصل إلى ثكنة الجنود، وهي حظيرة من القصب والطين تقوم مقابل المرفأ النهري. لقد كان قلقاً لمعنويات القوّات التي نخرها الملل، وكان يرى ذلك جلياً في فوضى الثكنة التي أصبحت روائحها لا تطاق، لكن رقيباً كان يبدو وكأنه يعاني غيبوبة قيظ تلك الساعة أفحمه بالحقيقة:

«ليست المعنويات هي التي تخوزقنا يا صاحب الفخامة، وإنما داء السيلان».

عندئذ فقط علم الجنرال بالأمر. فبعدما استنفد الأطباء المحليون علومهم في اللجوء إلى الغسل بالبرمنغنات، واستخدام مُسكنات سكر الحليب، رفعوا الأمر إلى القيادات العسكرية التي لم تتوصل إلى اتفاق حول التصرّف الواجب اتخاذه. كانت المدينة بأسرها على علم بالخطر الذي يهددها، وكان يُنظر إلى جيش الجمهورية المجيد على أنه ناقل الوباء. لكن الجنرال الذي أبدى من الذعر أقل مما كانوا يخشون، حل المسألة بوصفة واحدة تقضي بفرض الحجر الصحي المطلق.

عندما أصبح انقطاع الأخبار الحسنة والسيئة باعثاً على القنوط، وصل ساعٍ على جواد من سانتا مارتا، حاملاً رسالة من الجنرال مونتيللا: «الرجل صارَ عندنا، والإجراءات سائرة في الطريق المناسب». بدت الرسالة للجنرال غريبة جداً، وغير مألوفة في أسلوبها، فظنها شأناً من شؤون الدولة الخطيرة، وربما لها علاقة بالحملة على ريوهاتشا التي كان يوليها أولوية تاريخية لا يريد أحد أن يفهمها.

كان من الطبيعي في تلك الحقبة أن تتشابك المراسلات وأن تختلط البلاغات العسكرية عن قصد لأسباب أمنية، بعدما قضى تواني الحكومات على نظام المراسلات المشفَّرة التي كانت عظيمة الفائدة في المؤامرات الأولى ضد إسبانيا. وكان اعتقاد الجنرال بأن العسكريين يخدعونه هو أحد مخاوفه القديمة التي يشاطره إياها مونتيللا، فزاد ذلك من تعقيد لغز الرسالة وفاقم من تشوّق الجنرال لفهم مغزاها. عندئذ أرسل خوسيه بالاثيوس إلى سانتا مارتا بحجّة الحصول على فواكه وخضار طازجة وبضع زجاجات من نبيذ شيرش وبيرة بيضاء، وهي أشياء غير متوفرة في السوق المحلية. أما الهدف الحقيقي فكان حل لغز الرسالة. كان الأمر بمنتهى البساطة: فما أراد أن يقوله مونتيللا برسالته هو أن زوج ميراندا ليندساي قد نُقل من سجن أوندا إلى كارتاخينا، وأن العفو عنه لم يعد سوى مسألة أيام. أحسّ الجنرال بأنه قد خُدع ببساطة اللغز، حتى أنه لم يبتهج للجميل الذي قدّمه لمن أنقذت حياته في جامايكا.

في أوائل شهر تشرين الثاني، أعلمه أسقف سانتا مارتا في رسالة كتبها بخط يده، أنه هو الذي هدّأ الخواطر، بوساطته الروحية، في بلدة لاثيناغا المجاورة، حيث وقعت في الأسبوع السابق محاولة عصيان مدني تأييداً لريوهاتشا. وقد شكره الجنرال على ذلك بخط يده أيضاً، وطلب من مونتيللا إجراء اللازم. لكن طريقة الأسقف المتعجل في استرداد الدَيْن لم تعجبه.

لم تكن علاقاته بالمونسنيور أستفيث بالعلاقات الأكثر تدفّقاً على الإطلاق. فقد كان يخفي وراء وداعة الراهب الصامتة، سياسياً متهالكاً، إنما خافت البريق، معادياً للجمهورية في أعماق قلبه، ومعادياً لتوحيد القارة ولكل ما له علاقة بفكر الجنرال السياسي. ففي الكونغرس الموقّر، وكان نائباً لرئيسه، فهم جيداً مهمته الحقيقية في عرقلة سلطة سوكره، ومارس ذلك بدهاء أكثر مما مارسه بفعالية، سواء في انتخاب الموظفين السامين أو في المهمة التي كُلفا بها معاً لمحاولة التوصل إلى حل ودّي للخلاف مع فنزويلا. ولم يُفاجَأ الزوجان موليناريس، وهما المطلعان على تلك الخلافات، حين استقبلهما الجنرال على وجبة العصر، في الساعة الرابعة، بقول من أحكامه التنبؤية:

«ما الذي سيحل بأولادنا في بلد تتوقف فيه الثورات على مساعٍ يقوم بها أسقف؟».

فردّت عليه السيّدة موليناريس بتأنيب ودود، لكنه حازم في الوقت ذاته:

«بالرغم من أن فخامتك على حق، إلّا أنني لا أريد أن أتدخل في ذلك. فنحن كاثوليكيون من النمط القديم».

فأعاد الجنرال الأمور إلى نصابها فوراً:

«ولا شك في أنكم أكثر كاثوليكية من السيّد الأسقف، فهو لم يفرض السلام في لاثيناغا حباً بالرب، وإنما ليُبقي رعيته متحدة في الحرب ضد كارتاخينا».

قال السيّد موليناريس:

«نحن هنا ضد طغيان كارتاخينا أيضاً».

«أعرف ذلك. فكل كولومبي هو بلد معاد قائم بذاته» - قال الجنرال.

منذ كان الجنرال في سوليداد، طلب من مونتيللا أن يرسل سفينة خفيفة إلى ميناء سابانييا المجاور، من أجل مشروعه لطرد إفرازات الغدة الصفراء

عن طريق دوار البحر. وقد تأخر مونتيللا في الاستجابة لطلبه، لأن دون خواكين دي مير، وهو إسباني جمهوري وشريك للربان إلبيرس، وعده بأن يقدم له سفينة بخارية من تلك التي تقوم برحلات غير منتظمة في نهر مجدلينا. ولأن ذلك لم يتحقق، فقد أرسل مونتيللا في أواسط شهر تشرين الثاني سفينة شحن إنكليزية، ووصلت من دون سابق إنذار إلى سانتا مارتا. وما إن علم الجنرال بالأمر، حتى أفهم مَن هم حوله بأنه سينتهز الفرصة لمغادرة البلاد. قال: «لقد حسمت أمري بالذهاب إلى أي مكان كي لا أموت هنا». ثم هزّته نبوءة بأن كاميل تنتظره وهي تراقب الأفق من شرفة زهور مطلة على البحر، فتنهد:

«في جامايكا يحبونني».

أمر خوسيه بالاثيوس بأن يبدأ بإعداد الأمتعة، وبقي حتى ساعة متأخرة من تلك الليلة وهو يبحث عن أوراق يريد أخذها معه بأي ثمن. أرهقه البحث كثيراً فنام ثلاث ساعات. وعندما فتح عينيه في الصباح، لم يدرك مكان وجوده إلّا عندما أعلمه خوسيه بالاثيوس بتاريخ اليوم حسب وروده في سجل القديسين. فقال:

«حلمت بأنني في سانتا مارتا. كانت مدينة نظيفة جداً، بيوتها بيضاء ومتماثلة، لكن الجبل كان يحول دون رؤية البحر».

فقال خوسيه بالاثيوس:

«لم تكن سانتا مارتا إذاً. إنها كاراكاس».

وكشف له حلم الجنرال عن أنهم لن يذهبوا إلى جامايكا. كان فرناندو قد ذهب إلى المرفأ منذ الصباح الباكر لترتيب تفاصيل الرحلة، وحين رجع وجد عمّه يملي على ويلسون رسالة يطلب فيها من أوردانيتا جواز سفر جديد لمغادرة البلاد، لأن جواز سفره الممنوح من الحكومة المخلوعة فقد صلاحيته. وكان ذلك هو التفسير الوحيد الذي قدّمه لإلغاء السفر.

ومع ذلك، فقد اتفق الجميع على أن السبب الحقيقي هو الأنباء التي تلقاها في صبيحة ذلك اليوم حول العمليات في ريوهاتشا، والتي لم تكن إلا إضافة جديدة للأخبار السيئة السابقة وزيادتها سوءاً. كان الوطن بين المحيطين يتفتت، وشبح الحرب الأهلية يطل من بين أنقاضه، ولم يكن هناك ما يزعج الجنرال مثل الاستسلام للمحنة. فقال:

«لا توجد تضحية إلا ونقدمها من أجل إنقاذ ريوهاتشا».

وكان الدكتور غاستيلبوندو، القلق لقلق المريض أكثر من قلقه لأمراضه التي لا شفاء منها، هو الوحيد الذي يعرف كيف يصارحه بالحقيقة من دون أن يعذبه، فقال له:

«العالم ينهار، وأنت تهتم بريوهاتشا. لم نحلم أبداً بمثل هذا الشرف».

فكان رده فورياً:

«العالم كله متوقف على ريوهاتشا».

كان مؤمناً بذلك فعلاً، ولم يكن قادراً على إخفاء جزعه لكونهم قد دخلوا الفترة المقررة للاستيلاء على ماراكايبو، وما يزالون رغم ذلك أبعد ما يكونون عن النصر. ومع اقتراب شهر كانون الأول بأمسياته الياقوتية، لم يعد يخشى فقدان ريوهاتشا وحدها، أو ربما المنطقة الساحلية بأسرها، وإنما صار يخشى أن تقوم فنزويلا بحملة لتقوّض آخر ما تبقى من أحلامه.

بدأ المناخ يتبدل منذ الأسبوع الفائت، وحيث كانت تهطل أمطار كئيبة من قبل، ظهرت سماء صافية وليال مرصَّعة بالنجوم. بقي الجنرال غير مكترث بروائع الدنيا، فهو يغرق في التفكير في أرجوحة النوم حيناً، ويلعب الورق من دون اهتمام بحظه حيناً آخر. وبعد وقت قصير، فيما هم يلعبون في الصالة، هبّت ريح ورود من البحر انتزعت ورق اللعب من أيديهم وحطمت أقفال النافذة. هتفت السيّدة موليناريس، منفعلة من ذلك الإعلان المبكر عن فصل التدابير الإلهية: «إنه كانون الأول!».

وسارع ويلسون وخوسيه لاورينثيو سيلفا إلى إغلاق النافذة ليحولا دون أن تحمل الرياح البيت. وكان الجنرال وحده هو الذي بقي غارقاً في فكرته الثابتة، ثم قال:

«إنه كانون الأول، وما زلنا على الحالة نفسها. لقد كان محقّاً مَنْ قال إن امتلاك رقباء سيئين خير من امتلاك جنرالات عاجزين».

واصل اللعب. وفي منتصف الدور، وضع أوراقه جانباً وطلب من خوسيه لاورينثيو سيلفا أن يجهز كل شيء للرحيل. حار الكولونيل ويلسون الذي كان قد أنزل أمتعته للمرّة الثانية في اليوم السابق، وقال:

«السفينة رحلت».

كان الجنرال يعرف ذلك، وقال: «لم تكن تلك هي السفينة الجيّدة. يجب أن نذهب إلى ريوهاتشا، لعلنا نتمكن من جعل جنرالاتنا اللامعين يقررون البدء بالكسب أخيراً». وقبل أن يغادر الطاولة، أحسّ أنه مجبر على تبرير تصرفه لصاحبَي البيت، فقال لهما:

«لم تعد للأمر أية ضرورة عسكرية، لكنها مسألة شرف».

وهكذا أبحر في الساعة الثامنة من صباح الأول من كانون الأول في السفينة الشراعية ذات الصاريين «مانويل»، وقد وضعها تحت تصرفه السيّد خواكين دي ميير ليفعل بها ما يشاء: القيام بجولة لطرد إفرازات الغدة الصفراء، أو الذهاب للراحة في معصرة قصب السكر التي يملكها في سان بيدرو أليخاندرينو، حيث يمكنه الشفاء من أمراضه الكثيرة وأحزانه التي لا حصر لها، أو مواصلة الطريق إلى ريوهاتشا في محاولة جديدة لإنقاذ أميركا. وقد تمكن الجنرال مريانو مونتيللا الذي وصل في السفينة مع الجنرال خوسيه ماريا كارينيو، من تأمين حراسة للسفينة مانويل، وذلك بأن ترافقها فرقاطة تابعة للولايات المتحدة، وهي الفرقاطة غراميس، التي لم تكن مزوّدة بمدفعية جيدة وحسب، بل كان على متنها جرّاح جيد

كذلك، هو الدكتور نايت. وحين رأي مونتيللا حالة الجنرال المحزنة، رفض الانصياع لوجهة نظر الدكتور نايت وحدها، بل استشار كذلك طبيبه المحلي، فقال له الدكتور غاستيلبوندو:

«لا أظنه قادراً على احتمال الإبحار. ولكن فليذهب، فأي شيء أفضل من حياة كهذه».

كانت أقنية مستنقع ثيناغا غراندي بطيئة جداً وحارّة، تفوح منها أبخرة مميتة، لذلك مضوا عبر البحر منتهزين فرصة هبوب أوّل الرياح المدارية الشمالية، التي سبقت موعدها في تلك السنة وكانت لطيفة. كان في السفينة الجيّدة ذات القلوع المربعة قمرة خاصة به، وكانت نظيفة ومريحة، تبحر بشيء من الزهو.

أبحر الجنرال بمزاج رائق، ورغب في البقاء على سطح السفينة ليرى مصب نهر مجدلينا الكبير، الذي كان طميه يلوّن المياه بلون الرماد لعدة فراسخ داخل البحر. كان قد ارتدى بنطالاً قديماً من قماش رقيق، واعتمر القبعة الأنديزية، ولبس سترة من تلك التي يستخدمها بحّارة الأسطول الإنكليزي، أهداها إليه قبطان الفرقاطة، فبدا أفضل مظهراً تحت الشمس ووسط الريح المتقاطعة. اصطاد بحّارة الفرقاطة، على شرفه، سمكة قرش عملاقة، وقد وجدوا مهمازَي فارس بين الخردوات الكثيرة التي وجدوها في بطنها. كان يستمتع بكل شيء بحماسة سائح، إلى أن هزمه الإرهاق فغرق في روحه. حينئذ أشار إلى خوسيه بالاثيوس كي يدنو منه، وهمس في أذنه:

«لا بدّ أن بابا موليناريس يقوم الآن بإحراق الفراش ودفن الملاعق».

عند الظهيرة مروا مقابل مستنقع ثيناغا غراندي، وهي امتدادات شاسعة من المياه العكرة، حيث جميع طيور السماء تتنازع مجموعات من الأسماك الذهبية. وفي بطحاء ملح البارود المتقدة والممتدة بين المستنقع والبحر، حيث الضوء أكثر شفافية والهواء أكثر نقاءً، كانت قرى الصيادين

وشباك صيدهم منشورة في الأفناء لتجف، وفيما وراءها كانت بلدة ثيناغا التي جعلت أشباحها النهارية تلاميذ هومبولدت يرتابون بعلومهم. وفي الجانب الآخر من مستنقع ثيناغا غراندي كان ينتصب تاج الثلج الأبدي الذي يعمم سييرا نيفادا.

مضت السفينة الشراعية الزاهية، وكأنها تطير فوق سطح الماء، بأشرعتها الصامتة. كانت خفيفة ومستقرة لدرجة أنها لم تسبب للجنرال الاختلال البدني المَرجو لطرد إفرازات الصفراء. ومع ذلك، فقد مروا فيما بعد ببروز ملاصق لسلسلة الجبال يمتد حتى البحر، فأصبحت المياه مائجة، وعصفت الرياح. راقب الجنرال تلك التبدّلات بأمل متنام، فقد بدأت الدنيا تدور مع الطيور الجارحة التي كانت تطير محوّمة فوقٍ رأسه، وبلّل عرق بارد قميصه، وامتلأت عيناه بالدموع. كان على مونتيللا وويلسون أن يمسكا به، لأنه كان خفيفاً إلى حد يمكن معه لموجة بحرية أن تطوّح به خارج السفينة. عند الغروب، حين دخلوا مياه خليج سانتا مارتا الراكدة، لم يكن قد بقي لديه ما يطرده من بدنه المنهوك، وكان يرقد مستنَفَداً ومحتضراً على سرير القبطان، إنما بنشوة من تحققت أحلامه. ذعر الجنرال مونتيللا لحالته ذعراً شديداً دفعه إلى عرض الأمر على الدكتور نايت قبل النزول إلى البرّ، فقرر الدكتور نقله على كرسي محمول.

إن ما يفسّر قلة عدد من انتظروه في المرسى، إضافة إلى أسباب أخرى، هو عدم مبالاة أهالي سانتا مارتا بكل ما له علاقة بالجهات الرسمية. كانت سانتا مارتا واحدة من أصعب المدن في استمالتها إلى قضية الجمهورية. وحتى بعد إنجاز الاستقلال إثر معركة بوياكا، التجأ إليها نائب الملك الإسباني سامانو، بانتظار وصول تعزيزات من إسبانيا. وقد حاول الجنرال نفسه تحريرها عدة مرّات، لكن مونتيللا وحده هو الذي تمكن من ذلك بعد أن استتبت الجمهورية. فإضافة إلى حقد الملكيين، كان هناك عداء الجميع لكارتاخينا، بحجّة أنها المدينة التي تتمتع بمحاباة السلطة

المركزية، وكان الجنرال نفسه يعزّز ذلك الاعتقاد، من دون أن يدري، بحبه للكارتاخينيين. لكن السبب الأقوى، حتى لدى عدد كبير من أنصاره، كان في حكم الإعدام المتهوّر الذي نُفّذ بالأميرال بروديتثيو باديللا، وما زاد الطين بلة أنه كان خلاسياً مثل الجنرال بيار. وقد ازدادت حدّة الضغينة مع استيلاء أوردانيتا على السلطة، لأنه كان رئيس المجلس العسكري الذي أصدر حكم الإعدام. وهكذا فإن أجراس الكاتدرائية لم تُقرع مثلما كان مقرراً، ولم يستطع أحد تفسير ذلك. كما أن طلقات مدفعية الترحيب لم تُطلق في حصن المورّو لأن البلل لحق بالبارود في مخزن الأسلحة منذ الصباح. وقد عمل الجنود إلى ما قبل وصول الجنرال بوقت قصير، حتى لا يرى الإعلان الذي كُتب بالفحم على جدار الكاتدرائية: «يحيا خوسيه بروديتثيو». ولم تكد الإعلانات الرسمية عن وصوله تثير اهتمام الناس القلائل الذين كانوا ينتظرون في الميناء. لكن الغياب الأكثر بروزاً كان غياب الأسقف أستيفيث، وهو أوّل الشخصيات البارزة التي أبلغت بالزيارة وأكثرها شهرة.

سيتذكر دون خواكين دي فيير، حتى نهاية سنوات حياته المديدة، المخلوق المرعب الذي نزل إلى البرّ جالساً على حمّالة في سكون أوّل الليل، مغطى ببطانية صوف، ومعتمراً قبعة فوق قبّعة أخرى غاطسة في رأسه حتى حاجبيه، ومن دون أن تكون فيه سوى نفحة من حياة. لكن أكثر ما تذكره مع ذلك هو يده المتقدة، ونَفَسه العسير، والمهابة الخارقة التي ترجّل بها من المحفة ليصافح الجميع، فرداً فرداً، بألقابهم وأسمائهم الكاملة، معتمداً على قدميه بمَشقّة، يساعده في ذلك مرافقوه. بعدها سمح بأن يرفعوه إلى العربة، وتهالك على مقعدها، مسنداً رأسه الذي فقد قواه إلى المسند، لكن عينيه النهمتين كانتا معلقتين بالحياة التي تمر أمام ناظريه من خلال النافذة للمرّة الأولى والى الأبد.

كان على رتل العربات أن يجتاز الشارع الرئيسي فقط ليصل إلى مقر

الجمارك القديم الذي حُجز لإقامته. كانت الساعة تقترب من الثامنة، وكان اليوم هو يوم أربعاء، لكن هواء يوم سبت كان في جو طريق الشاطئ بفعل رياح كانون الأول الأولى. كانت الشوارع واسعة وقذرة، والبيوت الحجرية ذات الشرفات المتوالية تبدو مصونة خيراً من غيرها في بقية مدن البلاد، وكانت أسَر كثيرة قد أخرجت المقاعد للجلوس على الرصيف، وكثيرون منهم كانوا يستقبلون زائريهم في وسط الشارع. بينما كانت سحابات الحباحب بين الأشجار تضيء طريق البحر ببريق فوسفوري أشد سطوعاً من مصابيح الشوارع.

كان مقر الجمارك القديم هو أقدم مركز للجمارك في البلاد، أقيم قبل مئتين وتسع وتسعين سنة من ذلك اليوم، وقد أعيد ترميمه قبل وقت قريب، وهيّأوا في الطابق الثاني منه حجرة نوم للجنرال تطل على الخليج، لكنه فضَّل قضاء معظم الوقت في الصالة الرئيسية، وهي المكان الوحيد الذي وجد فيه حلقات تنفع لتعليق أرجوحة النوم. وهناك كانت كذلك الطاولة الوحيدة المصنوعة من خشب المغْنة المزخرف، والتي سيُسجّى عليها جسده المحنّط بعد ستة عشر يوماً ليُعرض في حجرة خانقة، بسترة رتبته الزرقاء، ولكن من دون أزرارها الذهبية الثمانية التي سينتزعها أحدهم في فوضى الموت.

يبدو أنه هو وحده الذي لم يكن يفكر بأنه قد صار قريباً إلى ذلك الحدّ من نهايته تلك. أما الدكتور ألكسندر بروسبير ريفيرند، الطبيب الفرنسي الذي استدعاه الجنرال مونتيللا على عجل في الساعة التاسعة ليلاً، فلم يكن بحاجة لقياس ضغطه كي يدرك أنه آخذ بالموت منذ عدة سنوات. وبسبب خمود عنقه، وانقباض صدره واصفرار وجهه، فكر بأن السبب الأساسي في مرضه هو تلف رئتيه، وجاءت مراقبته خلال الأيام التالية لتؤكد ذلك. وفي الاستجواب التمهيدي الذي أجراه معه على انفراد، بخليط من الإسبانية والفرنسية، تأكد له أن المريض يتمتع بعبقرية باهرة في

قلب أعراض مرضه وإخفاء الألم، وأنه يفقد أنفاسه القليلة في إجهاد نفسه كي لا يسعل أو يتنخّع في أثناء الفحص الطبيّ. لكن الفحص السريري أثبت ما كان الطبيب قد شخصه في اليوم الأول. إلا أن الطبيب نفسه، ومنذ تقريره في تلك الليلة، وهو أوّل التقارير الثلاثة والثلاثين التي سينشرها خلال الخمسة عشر يوماً التالية، عزا إلى الحالة البدنية أهمية كبيرة تضاهي الأهمية التي أولاها إلى العذابات المعنوية.

كان عمر الدكتور ريفيرند أربعة وثلاثين عاماً، وكان واثقاً من نفسه، مثقفاً أنيق الملبس، قدِم إلى البلاد قبل ست سنوات، لخيبة أمله من عودة آل بوربون إلى عرش فرنسا، وكان يكتب ويقرأ بلغة قشتالية سليمة ومتدفقة، لكن الجنرال انتهز الفرصة الأولى ليقدّم له دليلاً على اتفانه اللغة الفرنسية. فأمسك الدكتور بتلك الفرصة على الفور، وقال له:

«فخامتك تتكلم بلهجة باريسية».

فقال الجنرال متحمساً:

«ومن شارع فيفيان. كيف عرفت ذلك؟».

قال الطبيب:

«إنني قادر على معرفة الناصية الباريسية التي تربّى فيها أحدهم، من خلال لهجته وحدها. بالرغم من أنني وُلدت وعشت حتى سن متأخرة في إحدى قرى النورماندي».

قال الجنرال: «أجبان جيدة، لكن النبيد سيئ».

«ربما هذا هو سر صحتنا الجيّدة» - قال الطبيب.

كسب ثقته بالضرب من دون مشقة على الجانب الصبياني من قلبه. وقد كسبها أكثر عندما لم يصف له أدوية جديدة، وأعطاه بيده ملعقة من الشراب الذي أعده له الدكتور غاستيلبوندو لتهدئة السعال، وقرصاً مسكّناً تناوله من دون مقاومة لرغبته في النوم. واصلا الحديث قليلاً في موضوعات

مختلفة إلى أن أحدث المنوِّم مفعوله، فخرج الطبيب من الحجرة على رؤوس أصابعه. رافقه الجنرال مونتيللا وضباط آخرون إلى بيته، وقد ذُعر حين قال له الدكتور أنه يفكر بأن ينام بملابسه ليكون جاهزاً إذاً ما استدعوه على عجل في أي وقت.

لم يتوصل ريفيرند ونايت إلى اتفاق في اجتماعاتهما العديدة خلال ذلك الأسبوع. فقد كان ريفيرند مقتنعاً بأن الجنرال يعاني آفة رئوية ناشئة عن نزلة لم تُعالج بشكل جيد. أما الدكتور نايت، فكان مقتنعاً بأنه مصاب بملاريا مزمنة وذلك استناداً إلى لون بشرته والحمّى المسائية التي تنتابه. لكنهما كانا متفقين على خطورة حالته. طلبا مساعدة أطباء آخرين لحل الخلاف بينهما، لكن أطباء سانتا مارتا الثلاثة، وعدد آخر من أطباء الإقليم، رفضوا الحضور من دون إبداء الأسباب. وهكذا اتفق الطبيبان ريفيرند ونايت على علاج توافقي، يستند إلى استخدام مراهم صدرية من أجل النزلة الرئوية، وخلاصة أوراق الكينا من أجل الملاريا.

زادت حالة المريض سوءاً في نهاية الأسبوع بسبب كأس حليب أتان شربه بنفسه وعلى مسؤوليته من دون إعلام الطبيبين. كانت أمه تشرب ذلك الحليب فاتراً وممزوجاً بعسل النحل، وكانت تسقيه إياه وهو طفل لتخفيف سعاله. لكن ذلك الطعم البلسمي، المرتبط ارتباطاً حميماً بأقدم ذكرياته، شوّش إفرازات غدته الصفراء وأنهك جسده، وبلغ سوء حالته حداً جعل الدكتور نايت يستبق موعد سفره كي يرسل له طبيباً مختصاً من جامايكا. وقد أرسل طبيبين مزوَّدين بكل المعدات اللازمة، وبسرعة لا تصدق في ذلك الزمان، لكنهما وصلا بعد فوات الأوان.

بالرغم من ذلك كله، فإن حالة الجنرال المعنوية لم تكن تتفق مع حالة إرهاقه البدني. فقد كان يتصرّف وكأن الأمراض التي توشك أن تفتك به ليست إلّا إزعاجات تافهة. كان يقضي الليل في أرجوحة النوم مستيقظاً يتأمل دوران الفنار في حصن المورّو، متحملاً الآلام بصمت حتى لا

يكشف الأنين عن حالته، ومن دون أن يرفع بصره عن بهاء الخليج الذي اعتبره هو نفسه أجمل خليج في العالم.

كان يقول: «تؤلمني عينيَّ من كثرة النظر».

وكان يجهد نفسه خلال النهار مظهراً نشاطه الذي كان يتمتع به في أزمنة أخرى، فينادي إيبارا، أو ويلسون، أو فرناندو، أو أي ضابط آخر قريب منه، ليعطيه التعليمات حول الرسائل التي لم يعد لديه من الصبر ما يكفي لإملائها. وكان في قلب خوسيه بالاثيوس وحده ما يكفي من الوضوح ليدرك أن تلك التسرعات ليست إلا تفسّخات ما قبل الموت. فقد كانت تلك الرسائل عبارة عن ترتيبات لمصير المقرّبين منه، وحتى مَن لم يكونوا منهم معه في سانتا مارتا. نسي المشاحنة مع سكرتيره القديم، الجنرال خوسيه سانتانا، وحصل له على وظيفة في الخارجية تتيح له الاستمتاع بحياته كمتزوج حديث الزواج. أما بالنسبة للجنرال خوسيه ماريا كارينيو، الذي اعتاد الإطراء على طيبة قلبه الجديرة بذلك الإطراء، فقد وضعه في بداية الطريق الذي سيقوده مع مرور السنين ليصبح رئيساً مكلَّفاً لفنزويلا. وطلب من أوردانيتا أن يزوّده ببطاقات خدمة لكل من أندريس إيبارا وخوسيه لاورينثيو سيلفا، بحيث يتمكنان على الأقل من الحصول على راتب منتظم في المستقبل. وقد توصل سيلفا إلى أن يصبح جنرالاً عاماً وأميناً للحربية والبحرية في بلاده، ومات في الثانية والثمانين من العمر بعدما غطت عينيه غمامة الماء الأزرق التي طالما خشيها، وعاش في أثناء ذلك على بطاقة عجز حصل عليها بعد مساعٍ شاقة أثبت خلالها مشاركته في الحرب بجدارة من خلال ندوب جراحه الكثيرة.

وحاول الجنرال كذلك أن يقنع بيدرو بريثينيو مينديث بالعودة إلى غرناطة الجديدة ليشغل وزارة الحربية، لكن عجلة التاريخ لم تعطه الوقت الكافي لتحقيق ذلك. وترك لابن أخيه فرناندو توكيلاً في وصيته ليسهّل عليه شق طريق مناسب في الإدارة المدنية. أما بالنسبة للجنرال دييغو

إيبارا، الذي كان مرافقه الأول وواحداً من الأشخاص القلائل الذين كان يحادثهم ويحادثونه من دون كلفة سواء في اللقاءات الخاصة أو العامة، فقد نصحه بالانتقال إلى مكان آخر يكون أجدى له من فنزويلا. وحتى الجنرال خوستو بريثينيو، الذي كان لا يزال مستاء منه في تلك الأيام، فسيقدم له وهو على فراش الموت آخر جميل في حياته.

ربما لم يتصور أحد من ضباطه مطلقاً إلى أي مدى كان ذلك التوزيع يوحّد مصائدرهم. فجميعهم سيتقاسمون معاً، خيراً أو شراً، ما تبقّى من حياتهم، بما في ذلك السخرية التاريخية التي جمعتهم ثانية في فنزويلا، بعد خمس سنوات، ليقاتلوا إلى جانب القومندان بيدرو كاروخو في مغامرة عسكرية لصالح فكرة التوحيد الشامل البوليفارية.

لم تعد تلك الأشياء مجرّد مناورات سياسية، بل ترتيبات وصية لمنفعة أيتامه، وقد تأكد ويلسون من ذلك من خلال تصريح مفاجئ أملاه عليه الجنرال في رسالة موجهة إلى أوردانيتا: «قضية ريوهاتشا أصبحت خاسرة». في مساء ذلك اليوم بالذات، تلقى الجنرال رسالة قصيرة من الأسقف غير المتنبّئ، يطلب منه فيها أن يبذل مساعيه السامية لدى الحكومة المركزية من أجل اعتبار سانتا مارتا وريوهاتشا دائرتين إداريتين مستقلتين، لوضع حدّ بذلك للنزاع التاريخي بينهما وبين كارتاخينا. أومأ الجنرال بحركة تنم عن فقدان الحماسة عندما انتهى خوسيه لاورنيثيو سيلفا من قراءة الرسالة، وقال له: «جميع الأفكار التي تخطر للكولومبيين هي في سبيل التجزئة». وفيما بعد، بينما كان يصرّف المراسلات المتأخرة مع فرناندو، كان أكثر مرارة في التعليق على رسالة الأسقف، حين قال:

«لا تتكلف حتى مشقّة الردّ عليها. فلينتظروا إلى أن تهال فوقي ثلاث حفنات من التراب ليفعلوا ما يحلو لهم».

كان شوقه الدائم إلى تبدل المناخ يبقيه على حافة الجنون. فإذا ما كان الجو رطباً أراده جافاً، وإذا كان بارداً أراده دافئاً، وإذا كان جبلياً أراده بحرياً.

وكان ذلك يغذّي قلقه الأبدي بالدعوة إلى فتح النافذة كي يدخل الهواء، ثم إغلاقها ثانية، ووضع مسند الأريكة باتجاه مصدر الضوء، ثم إعادته ثانية إلى ذاك الجانب، ولم يكن يبدو عليه أنه يستريح إلّا وهو يهزّ نفسه بنفسه في أرجوحة النوم، بما بقي لديه من القوّة المستنفَدة.

أصبحت الأيام في سانتا مارتا شديدة الكآبة، وحين استرد الجنرال شيئاً من هدوئه وأكد عزمه على الذهاب إلى بيت السيّد مير الريفي، كان الدكتور زفيرند هو أوّل من شجعه على ذلك، مدركاً أن تلك هي الأعراض النهائية لإنهاك لا عودة منه. وقد كتب الجنرال إلى أحد أصدقائه عشية الرحلة: «سأموت بعد شهرين على أبعد تقدير». فبدا ذلك للجميع أشبه بكشف ملهم، لأنهم قلما سمعوه في حياته، وخصوصاً في السنوات الأخيرة، يذكر الموت.

كانت فلوريدا دي سان بيدرو أليخاندرينو، التي تبعد فرسخاً واحداً عن سانتا مارتا في المرتفعات المتصلة بسلسلة جبال سييرا نيفادا، هي مزرعة قصب السكر، فيها معصرة لصنع الدبس. قطع الجنرال، في عربة السيّد مير، الطريق المعفَّر الذي سيجتازه جسده، من دونه، بعد عشرة أيام في الاتجاه المعاكس، وسيكون ملفوفاً ببطانية عتيقة، فوق عربة تجرّها الجواميس. وقبل أن يرى البيت بوقت طويل، شمَّ الهواء المشبّع برائحة الدبس الدافئ، فانقاد لمخادعات العزلة، وتنهّد:

«إنها رائحة سان ماتيو».

كانت معصرة قصب السكر في سان ماتيو، التي تبعد أربعة وعشرين فرسخاً عن كاراكاس، هي مركز حنينه. فهناك تيتّم بموت أبيه وهو في الثالثة، وتيتّم بموت أمه وهو في التاسعة، وترمّل وهو في العشرين. كان قد تزوّج في إسبانيا من فتاة جميلة من الأرستقراطية الكريولية، تمُتُّ إليه بصلة قربى، وكان حلمه الوحيد في الحياة هو أن يسعَدَ معها، وينمّي في أثناء ذلك ثروته الهائلة كسيد حيوات ومزارع في معصرة سان ماتيو. لم يُعرف

على الإطلاق بشكل مؤكد ما إذا كان سبب موت زوجته، بعد ثمانية شهور من الزفاف، هو حمّى خبيثة أو حادث منزلي. أما بالنسبة له، فكان موتها هو ميلاده التاريخي. لأنه كان حتى ذلك الحين مجرّد سيد إقطاعي استعماري تبهره الملذات الدنيوية، وليس لديه أدنى اهتمام بالسياسة. لكنه تحوّل منذ ذلك الحين، ومن دون أية مراحل انتقالية، إلى الرجل الذي سيكونه إلى الأبد. لم يتحدّث بعد ذلك عن زوجته قطّ، ولم يتذكرها قطّ، ولم يحاول إحلال أخرى مكانها قطّ. وفي كل ليلة من ليالي حياته تقريباً كان يحلم بسان ماتيو، وكثيراً ما كان يحلم بأبيه وبأمه وبكل واحد من أخوته، لكنه لم يحلم بها مطلقاً، لأنه دفنها في أعماق نسيان راكد كوسيلة فظيعة تمكّنه من العيش من دونها. والشيء الوحيد الذي استطاع هزّ ذاكرته لبرهة واحدة كان رائحة دبس سان بيدرو أليخاندرينو، وعدم مبالاة العبيد في معصرة القصب الذين لم يولوه ولو نظرة شفقة واحدة، والأشجار الضخمة حول البيت المطلي حديثاً بالأبيض لاستقباله، ومعصرة القصب الأخرى في حياته التي يقوده إليها القدر المحتوم كي يموت.

«كان اسمها ماريا تيريسا رودريغيث دل تورو أي ألايثا» - قال فجأة.

كان السيّد مير ساهياً، فسأله: «من هي؟».

فقال: «التي كانت زوجتي». ثم تراجع فوراً: «ولكن انسَ ذلك، أرجوك: إنها إحدى مِحَن طفولتي».

ولم يقل شيئاً آخر.

سبّبت له غرفة النوم التي خصّوه بها تيهاً آخر في الذاكرة، فقد تفحصها باهتمام مدقِّق، وبدا له أن كل قطعة من أثاثها هي إيحاء بذكرى سابقة. ففضلاً عن السرير المركيزي، كان هناك صوان من خشب المُغنة، وكومودينو من الخشب ذاته تغطيه قطعة مرمر، وأريكة مغطاة بمخمل أحمر. وعلى الجدار، إلى جانب النافذة، كانت هناك ساعة ذات ثمانية أضلاع وأرقام رومانية، متوقفة على الواحدة وسبع دقائق.

«لقد كنا هنا من قبل» - قال.

وفي ما بعد، عندما ملأ خوسيه بالاثيوس الساعة وضبطها على التوقيت الصحيح، استلقى الجنرال في الأرجوحة، محاولاً أن يغفو ولو دقيقة واحدة. وعندئذ فقط، رأى جبال سييرا نيفادا من النافذة، صافية زرقاء، وكأنها لوحة معلقة على الجدار، فتاهت ذاكرته في حجرات أخرى من حيوات أخرى كثيرة، وقال:

«لم أشعر قط بأنني قريب من بيتي مثلما أشعر الآن».

نام جيداً في ليلته الأولى في سان بيدرو أليخاندرينو، وبدا في اليوم التالي وكأنه قد شُفي من آلامه، حتى أنه قام بجولة على معاصر القصب، وأبدى إعجابه بجودة سلالة الجواميس، وتذوّق العسل، وفاجأ الجميع باطلاعه على مهارات العمل في معاصر قصب السكر. أما الجنرال مونتيللا الذي فوجئ بذلك التغيير، فقد طلب من ريفيرند أن يخبره بالحقيقة، فأوضح له هذا أن تحسّن الجنرال الوهمي هو أمر كثير الحدوث لدى المحتضرين، وأن النهاية هي مسألة أيام، وربما ساعات. أفقد النبأ مونتيللا صوابه، فلكم الجدار بقبضته وهشم يده. ولن يعود أبداً، طوال ما تبقى من حياته، لأن يكون الشخص نفسه. لقد كذب على الجنرال مرّات كثيرة، لكنه كان يفعل ذلك بطيب نية على الدوام ولأسباب تتعلق بالشؤون السياسية الصغرى. أما في ذلك اليوم فقد كذب عليه بدافع الشفقة، وأمر جميع من يدخلون عليه بأن يفعلوا ذلك.

وصل في ذلك الأسبوع إلى سانتا مارتا ثمانية ضباط من ذوي الرتب الرفيعة، وقد طردتهم فنزويلا بتهمة القيام بنشاطات معادية للحكومة. كان بينهم بعض كبار المشاركين في مفخرة التحرير: نيكولاس سيلفا، وترينيداد بورتوكاريرو، وخوليان أنفانتي. لم يطلب منهم مونتيللا أن يخفوا عن الجنرال المحتضر ما لديهم من أخبار سيئة وحسب، بل أن يضخّموا من الأخبار الطيّبة كذلك، بحثاً عن وسيلة لتسكين أخطر أمراضه. وقد

مضى الضباط إلى أبعد من ذلك، فقدموا له تقريراً مشجعاً عن وضع بلاده، توصلوا من خلاله إلى إشعال عينيه ببريق أيام أخرى. وعاد الجنرال إلى موضوع ريوهاتشا، الذي كان قد ألغاه منذ نحو أسبوع، وعاد كذلك إلى الحديث عن فنزويلا باعتبارها إمكانية متاحة، وقال:

«لم تتح لنا من قبل قطّ فرصة أفضل من هذه للبدء من جديد في الطريق السليم». ثم أضاف بقناعة راسخة: «اليوم الذي سأعود فيه إلى وادي أراغو من جديد، سينهض الشعب الفنزويلي بأسره تأييداً لي».

وفي مساء أحد الأيام، رسم خطة عسكرية جديدة بحضور الضباط الزائرين، الذين قدّموا له العون في حمّى حماسته التي تدعو إلى الرثاء. لكنهم اضطروا إلى قضاء تلك الليلة بكاملها وهم يستمعون إليه يعلن بلهجة متنبئة كيف سيبني من الأساس، وبشكل دائم هذه المرّة، إمبراطورية أحلامه الفسيحة. وكان مونتيللا هو الوحيد الذي تجرّأ على معارضة ذهول من ظنوا أنهم يستمعون إلى مبالغات مجنون، إذ قال لهم:

«تذكروا أنكم كنتم تظنونه كذلك في كاساكويما».

لم يكن هناك من نسي يوم الرابع من تموز 1817، عندما كان على الجنرال أن يمضي تلك الليلة وهو غاطس في مستنقع كاساكويما، مع مجموعة محدودة من الضباط، من بينهم بريثينيو مينديث، لينجو من القوّات الإسبانية التي كادت أن تفاجئه في أرض مكشوفة. وفيما هو نصف عار، يرتجف من البرد، بدأ يعلن فجأة بصوت صارخ كل ما سيفعله في المستقبل خطوة خطوة: الاستيلاء الوشيك على أنغوستورا، واجتياز جبال الأنديز لتحرير غرناطة الجديدة، ثم تحرير فنزويلا بعد ذلك لتأسيس كولومبيا، وأخيراً فتح أراضي الجنوب الشاسعة حتى البيرو. «وعندئذ سنتسلق ذروة تشيمبوراثو ونغرس على القمم الثلجية العلم ثلاثي الألوان، راية أميركا العظيمة والمتحدة والحرة إلى أبد الآبدين». ومن سمعوه يومها

ظنوا كذلك أنه قد فقد عقله، لكن ما قاله كان نبوءة تحققت بحذافيرها، وخطوة خطوة، في أقل من خمس سنوات.

أما كلامه في سان بيدرو أليخاندرينو، فكان للأسف مجرّد رؤى عشية نحس. فالآلام المؤجلة في الأسبوع الأول، تسارعت معاً مثل وابل مَحقٍ شامل. كان الجنرال قد تضاءل في ذلك الحين كثيراً، حتى أنهم اضطروا إلى ثني معصمي قميصه طية ثانية، والى قصّ بوصة من ساقي بنطاله الرقيق. لم يكن قادراً على النوم أكثر من ثلاث ساعات في أوّل الليل، ثم يقضي بقية الليل مخنوقاً بالسعال، أو مشوَّشاً في الهذيان، أو بائساً من نوبات الفُواق التي بدأت تنتابه في سانتا مارتا، وأخذت تصبح أكثر إلحاحاً بعد ذلك. وعند المساء، حين يتناوم الجميع، يظل يسلو الألم بتأمل قمم الجبال الثلجية من النافذة.

كان قد اجتاز المحيط الأطلسي أربع مرّات، وجاب الأراضي المحرَّرة على صهوة جواد كما لن يفعل أحد على الإطلاق، ولم يكتب وصية أبداً، وهو أمر فريد في ذلك الزمان. كان يقول: «لا أملك شيئاً أتركه لأحد». وعندما كان يستعد للرحيل من سانتافي، اقترح عليه الجنرال بيدرو الكانتارا هيران أن يكتب وصيته، متذرعاً بأنه احتياط طبيعي يتخذه كل مسافر، فقال له الجنرال بنبرة فيها من الجدّ أكثر مما فيها من الهزل، إن الموت ليس وارداً ضمن مشاريعه المباشرة. ومع ذلك، فقد بادر هو نفسه، في سان بيدرو أليخاندرينو، إلى إملاء مسودات مشيئته الأخيرة، وبيانه الأخير. ولم يعرف أحد مطلقاً ما إذا كان عملاً واعياً، أم أنه خطوة زائفة من قلبه المغموم.

ولأن فرناندو كان مريضاً، فقد بدأ يملي على خوسيه لاورينثيو سيلفا مجموعة ملاحظات غير مترابطة إلى حد ما، لا تعبّر عن رغباته بقدر ما تعبّر عن خيبات أمله: أميركا عصية على الانقياد لحكم، من يخدم ثورة هو كمن يحرث البحر، هذه البلاد ستسقط لا محال في يد الجموع المفلتة من

عقالها لتنتقل بعد ذلك إلى يد طغاة صغار من كل لون وجنس، إضافة إلى أفكار كئيبة أخرى كانت متداوَلة بشكل متفرق في رسائل كتبها إلى أصدقاء كثيرين.

واصل إملاء تلك الأفكار لعدة ساعات، كما لو أنه في صحوته الأخيرة، ولم يكد يوقفه عن الإملاء سوى نوبات السعال التي كانت تنتابه. عجز خوسيه لاورينثيو سيلفا عن مجاراته في الكتابة، ولم يستطع أندريس إيبارا مواصلة إجبار نفسه على الكتابة بيده اليسرى لوقت طويل. وعندما تعب جميع الكتبة والمرافقين، بقي ملازم الخيّالة نيكولاس مريانو دي باث صامداً، ونسخ ما كان يمليه عليه بدقة وبخط جميل إلى أن انتهى الورق. طلب المزيد، لكنهم تأخروا كثيراً في إحضاره، فواصل الكتابة على الحائط إلى أن ملأه تقريباً. أحسّ الجنرال بالامتنان نحوه، فأهدى إليه مسدسَي الجنرال لاورينثيو كاركامو اللذين استُخدما في مبارزة سببها الحب.

كانت مشيئته الأخيرة تقضي بأن تُنقل رفاته إلى فنزويلا، وأن يُودَع الكتابان اللذان كانا لنابليون في جامعة كاراكاس، وأن يُمنح خوسيه بالاثيوس مبلغ ثمانية آلاف بيزو تقديراً لخدماته الدائمة، وأن تُحرق الأوراق التي تركها في كارتاخينا بعهدة السيّد بافاجيو، وأن تُعاد إلى مكانها الأصلي النجمة التي قلّده إياها كونغرس بوليفيا، وأن يُعاد إلى أرملة الماريشال سوكره السيف الذهبي المرصع بأحجار كريمة الذي كان الماريشال قد أهداه إياه، وأن توزّع بقية ثروته، بما في ذلك مناجم أورا، على شقيقتيه وأبناء أخيه المتوفى. ولم يكن هناك المزيد. فمن تلك الثروة كان لا بدّ من وفاء عدة ديون، بين كبيرة وصغيرة، ومنها كابوس العشرين ألف بيزو من الفضة المستحقة للبروفسور لانكستر.

ووسط تلك البنود الدقيقة، لم ينس تضمين بند استثنائي يشكر فيه السير روبيرت ويلسون على حسن سلوك ابنه وإخلاصه. ولم يكن ذلك التخصيص مستهجَناً، لكن المستهجن هو عدم تخصيص شكر مماثل

للجنرال أولياري، الذي لم يشهد موته لأنه لن يصل في الوقت المناسب من كارتاخينا، حيث بقي بأمر من الجنرال تحت تصرف الرئيس أوردانيتا.

فكلا الاسمين سيرتبط إلى الأبد باسم الجنرال. وسيصبح ويلسون فيما بعد قائماً بأعمال بريطانيا العظمى في ليما، ثم في كاراكاس، وسيواصل المشاركة، في الخط الأول، في الشؤون السياسية والعسكرية للبلدين. أما أولياري، فسيستقر في كينغستون، وسيعمل طويلاً قنصلاً لبلاده في سانتافي وسيتوفى وهو في الحادية والخمسين من العمر، بعد أن يودع في أربعة وثلاثين مجلداً، شهادة ضخمة عن حياته إلى جانب جنرال البلدان الأميركية. أما مصيره فكان شفقاً صامتاً ومثمراً، أوجزه هو نفسه بجملة واحدة: «بعد موت المُحرِّر، وتدمير إنجازه العظيم، انسحبت إلى جامايكا، حيث نذرت نفسي لتنظيم أوراقه وكتابة مذكراتي».

منذ اليوم الذي أملى فيه الجنرال وصيته، استنفد الطبيب معه جميع مسكّنات علومه: من لزقات خردل وزيت على القدمين، وتدليك العمود الفقري، ومراهم مخففة في كل أنحاء الجسم. وقد عالج إمساكه المزمن بحقن شرجية ذات مفعول سريع، لكنه مدمّر. ولخشيته من أن يصاب باحتقان دماغي، فقد عالجه بالكيّ لسحب الرشح المتراكم في الرأس. كان ذلك العلاج عبارة عن مرهم الذرّاح[1]، وهي حشرة حارقة، إذا ما سحقت ووضعت على الجلد فإنها تسبب حروقاً يمكنها امتصاص الأدوية. وقد كوى الدكتور ريفيرند الجنرال المحتضر خمس كيّات في عنقه، وكيّة واحدة في ربلة الساق. الآن، وبعد قرن ونصف، ما زال أطباء كثيرون يفكرون بأن السبب المباشر للوفاة هو تلك الحروق الكاوية، التي تسببت في اضطراب بوليّ رافقته تبوّلات لا إرادية، ثم مؤلمة، ومصحوبة

(1) مرهم الذُرّاح أو الذباب الهندي، وسيلة للكي، يطلق عليها العامة اسم الدبانة الإفرنجية.

بقطرات من الدم في النهاية، إلى أن جففت المثانة وألصقتها بعظم العانة، وهذا ما تأكد منه الدكتور ريفيرند عند تشريح الجثة.

أصبحت حاسة الشم لدى الجنرال شديدة الحساسية، حتى أنه كان يُجبر الطبيب، والصيدلاني أغوسطو توماسين، علي البقاء بعيدين عنه بسبب رائحة المراهم التي تفوح منهما. وصار يرش الحجرة عندئذ، أكثر من أي وقت آخر، بماء الكولونيا، وواصل الاستحمام في حمّاماته الوهمية، وحلاقة ذقنه بيديه، وتنظيف أسنانه بشراسة قاسية، وبإصرار خارق لمقاومة دَنَس الموت.

في الأسبوع الثاني من شهر كانون الأول مرّ من سانتا مارتا الكولونيل لويس بيير دي لاكرو، وهو شاب مُجرَّب في جيوش نابليون، وكان مرافقاً للجنرال إلى ما قبل وقت قريب، وكان أوّل ما فعله بعد زيارة الجنرال هو كتابة رسالة إلى مانويلا ساينث يطلعها فيها على الحقيقة. وما إن تلقّت مانويلا الرسالة، حتى بدأت الرحلة إلى سانتا مارتا، لكنهم أخبروها في غوادواس بأنها قد تأخرت حياة كاملة. فمحاها ذلك الخبر من الدنيا. غرقت في ظلال ذاتها، من دون أية مشاغل أخرى سوى اهتمامها بصندوقَيْن يضمّان أوراق الجنرال، تمكنت من إخفائهما في مكان آمن في سانتافي إلى أن أخرجهما دانييل أولياري بعد عدة سنوات بتوجيهات منها. وفي واحد من أوّل أعماله الحكومية، قام الجنرال سانتَندير بنفيها من البلاد. وخضعت مانويلا لمصيرها بوقار ملتهب، في جامايكا أوّل الأمر، ثم في تيه كئيب سينتهي بها إلى بايتا، وهو ميناء قذر على المحيط الهادي ترتاده للراحة سفن صيد الحيتان من جميع المحيطات. وهناك راحت تسلو النسيان بالتطريز، وبتدخين سجائر الحوذيين، وصنع حيوانات الحلوى التي كانت تبيعها للبحّارة حين يسمح لها التهاب مفاصيل يديها بذلك. أما زوجها، الدكتور ثورن، فقد قتلوه طعناً بسكين في منطقة مقفرة

في ليما، ليسرقوا منه القليل الذي كان يحمله. وقد ترك لمانويلا في وصيته مبلغاً مساوياً للمهر الذي ساهمت به عند زواجهما، لكن المال لم يُسلَّم لها قطّ. وكان عزاؤها في ذلك الهجران استقبالها ثلاث زيارات تاريخية: زيارة المعلم سيمون رودريغيث الذي شاطرته رماد المجد، وزيارة جوسيبّي غاريبالدي، الوطني الإيطالي الذي كان عائداً من النضال ضد دكتاتورية روساس في الأرجنتين، وزيارة الروائي هيرمان ميلفيل، الذي كان يجوب بحار العالم بحثاً عن التوثيق اللازم لروايته موبي ديك. وعندما تقدمت بها السن، وأقعدتها في أرجوحة النوم، كُسر عظم في ردفها، صارت تقرأ البخت في أوراق اللعب، وتقدم نصائح في الحب للعاشقين. ماتت في جائحة الطاعون، عن تسع وخمسين سنة، وقد أحرقت الشرطة الصحية كوخها مع أوراق الجنرال الثمينة، وبينها رسائله الحميمة. أما الشيء الوحيد الذي كانت تملكه من آثاره الشخصية، كما قالت لبيردي لاكرو، فقد كن خصلة من شعره، وفردة قفّاز.

كانت حالة من فوضى الموت تسود فلوريدا سان بيدرو أليخاندرينو عندما وصلها بير دي لاكرو. فالبيت مهمَل. والضباط ينامون في أي وقت يغلبهم النعاس فيه، وقد أصبحوا نزقين لدرجة أن الأمر وصل بخوسيه لاورينثيو الحذر، إلى تجريد سيفه ليواجه به توسلات الدكتور ريفيرند بالحفاظ على الصمت. ولم تعد قوى فرناندا باريغا ولا طبعها المرح كافية لتلبية طلبات الطعام الكثيرة في أوقات لا تخطر على بال. وكان أشدهم قنوطاً يلعبون بالورق ليلاً ونهاراً، ومن دون أن ينتبهوا إلى أن كل ما يقولون بأصوات عالية يسمعه المحتضر في الغرفة المجاورة. وفي مساء أحد الأيام، وفيما الجنرال مستكين لذهول الحمى، راح أحدهم يهذر صارخاً على الشرفة ويتذمر من الغشّ الذي أوصل الناس إلى تقاضي مبلغ اثني عشر بيزو وثلاثة وعشرين سنتافو ثمناً لنصف دزينة من الألواح الخشبية،

ومئتين وخمسة وعشرين مسماراً، وستمئة مسمار صغير من النوع العادي، وخمسين مسماراً مذهَّباً، وعشرة أذرع من نسيج المدابولين، وعشرة أذرع من شرائط مانيلا النسيجية وستة أذرع أخرى من أشرطة سوداء.

كان ترتيلاً صارخاً أسكت الأصوات الأخرى وهيمن على جوّ المزرعة بأسرها. وكان الدكتور ريفيرند حينئذ في غرفة النوم يُغيّر أضمدة يد الجنرال مونتيللا المكسورة، وأدرك كلاهما أن المريض، في صحو النائم المسهَد، كان يصغي إلى تلك الحسابات. أطل مونتيللا من النافذة، وصاح بكل ما في صوته من قوة:

«اخرسوا، عليكم اللعنة!».

فتدخل الجنرال وقال من دون أن يفتح عينيه:

«دعهم بسلام. فليس هناك حسابات لا يمكنني سماعها».

خوسيه بالاثيوس وحده كان يعلم أن الجنرال لم يكن بحاجة لسماع المزيد كي يفهم أن تلك الحسابات المعلنة صراخاً هي من المئتين وثلاثة وخمسين بيزو، وستة ريالات وثلاثة كورتيات، التي جُمعت من تبرعات عامة لجنازته، وقد جمعتها البلدية من بعض الخاصة ومن أرصدة المسلخ والسجن، وأن تلك القائمة هي المواد اللازمة لصنع النعش وبناء القبر. تولى خوسيه بالاثيوس منذ ذلك الحين، وبأمر من مونتيللا، مهمة منع دخول أحد إلى غرفة النوم، مهما كانت رتبته، أو لقبه أو منصبه، وفرض مونتيللا نفسه نظاماً صارماً لحراسة المريض، وقال:

«لو أنهم منحوني سلطة كهذه منذ البداية، لعاش هذا الرجل مئة سنة».

حاولت فرناندا باريغا الدخول:

«لا يمكن لهذا البائس اليتيم الذي كان محباً للنساء أن يموت من دون أن تكون إلى جانب سريره ولو واحدة فقط، حتى ولو كانت عجوزاً قبيحة، وعديمة الجدوى مثلي».

لم يسمحوا لها بالدخول. فجلست إلى جوار النافذة، محاولة أن تقدّس بصلوات جنائزية هذيانات المحتضر الوثنية. وبقيت هناك في كنف الإحسان العام، غارقة في حداد أبديّ، إلى أن توفيت بعدما بلغت الواحدة بعد المئة.

وكانت هي التي فرشت الطريق بالورود وقادت الإنشاد عندما جاء كاهن ضيعة ماماتوكو المجاورة لتقديم الزاد الأخير، في الساعة الأولى من ليل يوم الأربعاء. كان يسبقه صفّا هنديات حافيات يرتدين مسوحاً سابغة من نسيج قطنيّ خام ويضعن على رؤوسهن أكاليل من أغصان الأستروميليا، ويُضِئنَ له الطريق بقناديل زيت، ويرتّلن أناشيد جنائزية بلُغَتهن. اجتزن الطريق الذي كانت فرناندا تفرشه بأوراق الأزهار أمامهن، وكانت لحظة مؤثرة، لم يتجرأ خلالها أحد على إيقافهن. اعتدل الجنرال في السرير حين أحسَّ بدخولهن إلى المخدع، وغطى عينيه بذراعه ليمنع عنهما الانبهار، وجعلهن يخرجن بصرخاته:

«أبعدوا هذه القناديل من هنا، فهي تبدو وكأنها موكب أرواح».

وحتى لا يقضي جو البيت الخبيث على الرجل المحكوم، جاء فرناندو بجوقة جوالة من ماماتوكو، عزفت طوال يوم كامل من دون توقف، تحت أشجار التمر الهندي في الفناء. واستجاب الجنرال استجابة طيبة لتأثير الموسيقى المهدّئة، وجعلهم يعيدون عدّة مرّات معزوفة الترينيدادية، وهي معزوفته المضادة المفضلة، التي جعلها واسعة الانتشار في زمن مضى بتوزيعه نسخاً من نوتتها حيثما حل.

أوقف العبيد معاصر القصب، وتأملوا الجنرال طويلاً من خلال النافذة. كان مغطى بشرشف أبيض، وكان أكثر تحديداً ورمادية مما صار إليه بعد موته، وكان يتابع الإيقاع برأسه الذي بدأ الشعر ينمو عليه من جديد. وبعد كل مقطوعة كان يصفّق باللياقة التقليدية التي تعلمها في أوبرا باريس.

وعند الظهيرة، استرد أنفاسه بتأثير الموسيقى، فتناول فنجاناً من الحساء، وأكل قطعاً من لبّ النخل ومن فَرّوج مسلوق. ثم طلب بعد ذلك مرآة يدوية ليرى نفسه في الأرجوحة، وقال: «بهاتين العينين لا يمكن لي أن أموت». والأمل الذي كان مفقوداً من قدرة الدكتور ريفيرند على عمل أي شيء، عاد يولد من جديد لدى الجميع. لكنه عندما بدا أنه في أحسن حال، أخطأ في التعرّف على الجنرال ساردا وظنه ضابطاً إسبانياً من الضباط الثمانية والثلاثين الذين أمر سانتَنَدير بإعدامهم في يوم واحد من دون محاكمة، بعد معركة باياكا. ثم تعرض بعد ذلك لنكسة لم يشفَ منها، وقد صرخ بما تبقى له من صوت أن أبعدوا الموسيقيين من البيت، إلى حيث لا يزعجون سلام احتضاره. وحين استعاد السكينة، أمر الكولونيل ويلسون بتحرير رسالة إلى الجنرال خوستو بريثينيو، يطلب منه فيها أن يصالح الجنرال أودانيتا، إكراماً له وهو يموت، لتجنيب البلاد أهوال الفوضى. والشيء الوحيد الذي أملاه حرفياً هو السطر الأول: «في اللحظات الأخيرة من حياتي، أكتب إليك هذه الرسالة».

وفي الليل، تحدّث حتى وقت متأخر جداً مع فرناندو، وقدّم له لأول مرّة نصائح حول المستقبل. أما فكرة اشتراكهما معاً في كتابة مذكراته، فقد بقيت مجرّد مشروع، لكن ابن الأخ عاش إلى جانبه زمناً كافياً لمحاولة كتابة تلك المذكرات، ولو على شكل تمرينات قلبية، وبهذا حصل أبناؤه على فكرة عن تلك السنوات من الأمجاد والمِحَن. وقد قال له الجنرال: «أولياري سيكتب شيئاً إذا بقي محتفظاً برغبته. لكن ما سيكتبه مختلف». كان عمر فرناندو حينئذ ستة وعشرين عاماً، وسيعيش إلى أن يبلغ الثامنة والثمانين من دون أن يكتب أكثر من بضع صفحات متفرّقة، لأن القدر أمدّه بحظ عظيم حين أفقده الذاكرة.

كان خوسيه بالاثيوس حاضراً في غرفة النوم عندما أملى الجنرال الوصية ولم يَفه هو أو غيره بكلمة واحدة في أثناء عمل بدا وكأن وقاراً من القدسية يلفّه. لكنه في الليل، خلال الحمّام المليّن، توسل إلى الجنرال كي يبدّل مشيئته قائلاً:

«لقد كنا فقراء دوماً ولم ينقصنا مع ذلك أي شيء».

فقال الجنرال:

«الحقيقة هي عكس ذلك: لقد كنا أثرياء دوماً، ومع ذلك لم يفض لدينا أي شيء».

وكان كلا النقيضين صحيح. لقد دخل خوسيه بالاثيوس في خدمته وهو يافع، بأمر من أم الجنرال، التي كانت سيدته. ولم يجر إعتاقه بشكل رسمي. بقي يطفو في ليمبوس[1] مدني، حيث لم يخصَّص له راتب على الإطلاق. ولم يحدّد له وضع نهائي. لكن حاجاته الشخصية كانت تعتبر جزءاً من حاجات الجنرال الخاصة. وقد تطابق معه حتى في طريقة ملبسه ومأكله، وبالغ في تكبّره أكثر من سيّده. لم يكن الجنرال مستعداً لتركه يواجه مصيره من دون رتبة عسكرية أو بطاقة عجز، خصوصاً وأنه صار في سن لا يمكنه فيها البدء بحياة جديدة. ولهذا لم يكن ثمة مناص: فالبند الخاص بالثمانية آلاف بيزو لم يكن قطعياً وحسب، بل ولا يمكن التخلي عنه أيضاً:

وانتهى الجنرال قائلاً: «هذا عدل».

فرد خوسيه بالاثيوس رداً قاطعاً:

«العدل أن نموت معاً».

---

(1) ليمبوس: مكان بين الجحيم والفردوس، تتوقف فيه أرواح الأطفال الذين يموتون قبل تعميدهم، وتبقى هناك حتى ظهور المسيح المنتظر.

وهو ما حدث عملياً. فقد بدّد أمواله مثلما بدّد الجنرال أملاكه من قبل. وبقي بعد موت سيده في كارتاخينا دي أندياس، يعيش على الصدقات. جرّب الخمرة ليُغرق ذكرياته، فانقاد لها. ومات وهو في السادسة والسبعين، متمرّغاً في الوحل بفعل آلام هذيان الكحول الارتعاشي، في مغارة متسوّلين من خريجي الجيش المُحَرِّر.

طلع صباح يوم العاشر من كانون الأول على الجنرال وهو في حالة شديدة السوء، فاستدعوا الأسقف أستيفيث على عجل، لعله يرغب في الاعتراف. هرع الأسقف فوراً، وقد أولى اللقاء أهمية كبيرة، حتى أنه ارتدى الثياب الاحتفالية. لكن اللقاء جرى وراء باب مغلق ومن دون شهود، بناء على رغبة الجنرال، ولم يدم سوى أربع عشرة دقيقة. ولم تُعرف كلمة واحدة مما قالاه مطلقاً. خرج الأسقف من اللقاء مسرعاً وساخطاً، وصعد إلى عربته من دون أن يُودّع أحداً، ولم يرأس الجنّاز بالرغم من الدعوات الكثيرة التي وُجّهت إليه، كما أنه لم يحضر مراسم الدفن. أما الجنرال، فبقي في حالة سيئة، حتى أنه لم يستطع النهوض بمفرده من أرجوحة النوم، فكان على الطبيب أن يرفعه بذراعيه، وكأنه طفل حديث الولادة، وأجلسه على السرير مسنداً إياه بالوسائد حتى لا يخنقه السعال. وعندما تمالك نفسه أخيراً، طلب من الجميع أن يخرجوا ليتحدث إلى الطبيب على انفراد.

قال له: «لم أكن أتصوّر أن هذه اللعنة خطرة إلى حد التفكير بالزيوت المقدّسة. وأنا الذي لا أنعم بسعادة الإيمان بالحياة في العالم الآخر».

فقال ريفيرند:

«الأمر ليس كذلك. فما هو مؤكد أن تسوية شؤون الضمير تمنح المريض حالة معنوية تُسهّل كثيراً من مهمة الطبيب».

لم يولِ الجنرال اهتماماً لبراعة الإجابة، فقد هزّه عندئذ كشف مبهر بأن السباق المجنون بين أمراضه وأحلامه قد وصل في تلك اللحظة إلى هدفه النهائي. وما سوى ذلك ظلام، فتنهد:

«اللعنة. كيف سأخرج من هذه المتاهة!».

تفحّص الحجرة ببصيرة أيامه الفائتة، ورأى الحقيقة لأول مرّة: السرير الأخير المستعار، وخوان الزينة المحزن الذي لن تُعيد مرآته عكس صورته، وإبريق غسل الأيدي الخزفي مع الماء والمنشفة والصابون من أجل أيد أخرى، والسرعة القاسية التي تدور بها الساعة ذات الأضلاع الثمانية بجموح نحو الموعد المحتوم في السابع عشر من كانون الأول، الساعة الواحدة وسبع دقائق من مسائه الأخير. حينئذ قاطع ذراعيه على صدره وبدأ يسمع أصوات العبيد المتألقة وهم ينشدون صلاة السادسة في معاصر القصب، ورأى من خلال النافذة دُرّة الزهرة وهي تمضي في السماء إلى الأبد، والثلوج الخالدة، وشجيرة اللبلاب الجديدة التي لن يرى تفتح أزهارها الصفراء يوم السبت التالي في البيت المغلَق حداداً، وومضات الحياة التي لن يُعيد تكرارها أبداً، والى أبد الآبدين.

كلمة شكر

لقد استمعت خلال سنوات طويله إلى ألفارو موتيس وهو يتحدّث عن مشروعه في الكتابة عن رحلة سيمون بوليفار الأخيرة في نهر مجدلينا. وعندما نشر «الوجه الآخر» الذي كان جزءاً مسبقاً من الكتاب، بدا لي قصة مكتملة النضج، ذات أسلوب وإيقاع شديدَي النقاء، فأعددت نفسي لقراءة العمل كاملاً بعد وقت قصير. لكنني، بعد مرور سنتين، أحسست بأنه قد ألقى بالمشروع إلى النسيان، مثلما يحدث لنا نحن معظم الكتّاب، حتى في أكثر أحلامنا محبّة لنفوسنا. عندئذ فقط تجرّأت وطلبت منه أن يسمح لي بكتابة العمل. وكانت رمية صائبة بعد تَرَصّدٍ استمر عشر سنوات. لذلك فإن شكري الأول موجّه إليه.

ما كان يهمّني في ذلك الحين، أكثر من أمجاد الشخصية الأساسية، هو نهر مجدلينا، الذي بدأت أتعرفه وأنا طفل، بالسفر من الساحل الكاريبي، حيث حظيت بالولادة، حتى مدينة بوغوتا، النائية والمشوشة، التي أحسست فيها بأنني غريب أكثر من أي مدينة أخرى مذ زرتها أوّل مرّة. وخلال سنوات دراستي مَخَرت النهر إحدى عشرة مرّة في الاتجاهين، في تلك السفن البخارية التي كانت تخرج من أحواض بناء السفن في المسيسبي وقد حُكم عليها بالحنين وبحياة خرافية لا يمكن لأي كاتب الصمود حيالها.

من جهة أخرى، لم تكن الأسس التاريخية تهمني كثيراً، فالرحلة الأخيرة في النهر هي الفترة الأقل توثيقاً في حياة بوليفار. فهو لم يكتب أثناءها سوى ثلاث أو أربع رسائل - وهو الرجل الذي أملى أكثر من عشرة آلاف رسالة - كما أن أحداً من مرافقيه لم يترك أيّ مذكرات مكتوبة عن تلك الأيام الأربعة عشر التعيسة. مع ذلك، فقد وجدت نفسي منذ الفصل الأول مضطراً إلى طلب استشارة عارضة حول طريقته في الحياة، وقادتني تلك الاستشارة إلى واحدة أخرى، ثم استشارة أخرى وأخرى، إلى أن لم أعد أطيق المزيد. رحت أغوص طوال أكثر من سنتين في الرمال المتحركة لوثائق جارفة، ومتناقضة وغير مؤكَّدة في أحيان كثيرة، ابتداء من مجلدات دانيل فلورنثيو أولياري الأربعة والثلاثين، وحتى قصاصات الصحف التي لا تخطر على بال. وجاء افتقاري المطلق إلى تجربة البحث التاريخي ومنهجه ليجعل أيامي أكثر مشقّة.

لم يكن إنجاز هذا الكتاب ممكناً من دون عون من طرقوا تلك المجاهل قبلي، على امتداد قرن ونصف قرن، وسهّلوا عليّ المجازفة الأدبية برواية سيرة حياة تعتمد التوثيق الصارم، من دون التخلي عن قوانين الرواية التي تخرق كل القوانين. لكن امتناناتي تمضي بشكل خاص جداً إلى مجموعة من الأصدقاء، القدماء والجدد، الذين اعتبروا شكوكي قضيتهم الخاصة والمهمة، ولست أعني شكوكي الخطيرة - مثل التفكير السياسي الحقيقي لبوليفار وسط تناقضاته البيّنة وحسب، وإنما أكثر شكوكي تفاهة كذلك - مثل مقياس حذائه - ومع ذلك، لا يمكنني أن أقدّر شيئاً مثل تقديري لتسامح من لا يجدون أسماءهم في لائحة الشكر هذه بسبب نسيان بغيض.

فالمؤرخ الكولومبي أوخينيو غوتيريث سيليس، ورداً على استمارة استفسارات مؤلفة من عدة صفحات، نظم لي أرشيف جذاذات، لم تزوّدني فقط بمعلومات مذهلة - قسم كبير منها منقول عن الصحف الكولومبية في القرن التاسع عشر - بل قدمت لي الأنوار الأولى من أجل

منهج في تحقيق المعلومات وترتيبها. كما أن كتابه: بوليفار يوماً فيوماً، الذي ألّفه بالتعاون مع المؤرخ فابيو بويو، كان بمنزلة تصريح إبحار، أتاح لي على امتداد فترة الكتابة، أن أتنقل براحة في جميع أزمنة الشخصية. وقد كان لفابيو بويو نفسه فضيلة تسكين كروبي بوثائق مُسكّنة يقرأها لي على الهاتف من باريس، أو يرسلها لي بصورة مستعجلة على التلكس أو التيليفاكس، وكأنها أدوية حياة أو موت. أما المؤرخ الكولومبي غوستافو فارغاس، البروفسور في جامعة مكسيكو الوطنية، فقد بقي في متناول هاتفي ليوضح لي بعض الشكوك الكبيرة والصغيرة، وخصوصاً تلك المتعلقة بأفكار العصر السياسية. كما ساعدني المؤرخ البوليفاري فينيثيو روميرو مارتينث، من كاراكاس، في العثور على تفاصيل كانت تبدو لي مستحيلة، حول عادات بوليفار الشخصية - وخصوصاً طريقته البذيئة في الكلام -، وحول طبيعة مرافقيه ومصيرهم، وقد ساعدني كذلك في المراجعة المتأنّية للمعلومات التاريخية في نص الرواية النهائي. وأنا مَدين له بالتنبيه الملهم إلى أن بوليفار ما كان قادراً على أكل ثمار المانغا بالتلذذ الطفولي الذي نسبته إليه، لسبب وجيه، هو أنه كان لا بد من انقضاء بضع سنوات أخرى حتى تصل أشجار المانغا إلى أميركا.

خورخي أدواردو ريتير، سفير بنما في كولومبيا، ثم وزير خارجية بلاده بعد ذلك، قام بعدّة رحلات مستعجلة بالطائرة، وذلك ليُحضر لي بعض كتبه غير الموجودة في مكان آخر. ودون فرانثيسكو دي أبريسكيتا، من بوغوتا، كان دليلاً عنيداً لي في مسالك المراجع البيبلوغرافية البوليفارية المتشابكة والمتسعة. أما رئيس الجمهورية السابق بيليساريو بيتانكور، فقد أوضح لي شكوكاً مختلفة طوال سنة من الاستشارات الهاتفية، وأكد لي أن بعض الأبيات الشعرية التي كان بوليفار يردّدها من الذاكرة هي للشاعر الإكوادوري خوسيه خواكين أولميدو. وقد عقدت مع فرنثيسكو بيفيدال في هافانا المناقشات التمهيدية المتأنية التي أتاحت لي تكوين فكرة واضحة

عن الكتاب الذي عليَّ أن أكتبه. أما روبيرتو كادافير، أكثر اللغويين شعبية في كولومبيا وأسرعهم في إسداء الجميل، فقد قدّم لي جميلاً بتقصّيه معنى وعُمر بعض الألفاظ المحلية. وبناء على طلبي، قام الجغرافي غلادستون أوليفار والفلكي خورخي بيريث دوفال، من أكايمية العلوم الكوبية، بتقصّي الليالي التي كان فيها القمر بدراً خلال السنوات الثلاثين الأولى من القرن الماضي.

صديقي القديم أنيبال نوغيرا ميندوثا - من سفارته الكولومبية في بورت أوبرنس، أرسل لي صوراً عن أوراق خاصة به، مع إذنه الكريم لأستفيد منها بحرّية مطلقة، بالرغم من أنها ملاحظات ومسوّدات لدراسة كان يكتبها حول الموضوع نفسه. كما أنه اكتشف في النسخة الأولى من الأصول نصف دزينة من الأغلاط القاتلة والأخطاء الانتحارية في تسلسل الوقائع التاريخية، مما كان سيزرع الشكوك حول دقّة هذه الرواية.

وأخيراً، هناك أنطونيو بوليفار غويانيس - قريب زائغ لبطل الرواية، وربما كان المطبعي الأخير المتبقّي في المكسيك من الطريقة القديمة الحميدة - الذي تكرّم بمراجعة الأصول معي، في تصيّد ميلمتري للتأويلات المناقضة للواقع، والتكرارات، والتناقضات، والأخطاء والأغلاط المطبعية، وكل ذلك في تحرٍّ شرس للغة والإملاء حتى استنفاد سبع صياغات للرواية. وكان أن فوجئنا وأيدينا فوق الطاولة بعسكري يكسب معارك قبل أن يُولد، وبأرملة تذهب إلى أوروبا مع زوجها المحبوب، وبغداء حميم يجمع بوليفار وسوكره في بوغوتا، بينما كان أحدهما في كاراكاس والآخر في كيتو. ومع ذلك، لست واثقاً هل كان عليّ أن أشكر من قدّم لي هاتين المساعدتين الأخيرتين، فأنا أرى أن مثل هذه الأحداث غير المعقولة، كانت ستضيف قطرة فكاهة غير إرادية - وربما مرغوبة - إلى هول هذا الكتاب.

غ.غ.م

مدينة مكسيكو، كانون الثاني 1989

موجز لحياة سيمون بوليفار

(أعدّه فينيثو روميرو مارتينث)

1783: 24 تموز: يولد سيمون بوليفار.

1786: 19 كانون الثاني: يتوفى خوان فيثنته بوليفار، والد سيمون.

1792: 9 تموز: تتوفى دونيا ماريا دي كنثيبثيون بالاثيوس اي بلانكو، والدة بوليفار.

1795: 23 تموز: يغادر بوليفار بيت خاله. تبدأ محاكمة طويلة، وينتقل إلى بيت معلمه سيمون رودريغيث. وفي شهر تشرين الأول يرجع إلى بيت خاله كارلوس.

1797: تمرّد غوال وإسبانيا في فنزويلا. بوليفار ينضم إلى الميليشيا برتبة تلميذ ضابط، في فاييس دي أراغوا.

1798: يقدّم له أندريس بيو دروساً في قواعد اللغة والجغرافيا. ويدرس في هذه الفترة أيضاً الفيزياء والرياضيات في بيته بالذات، حيث الأكاديمية التي أقامها الأب فرانثيسكو دي أندوخار.

1799: 19 كانون الثاني: يسافر إلى إسبانيا، وفي الطريق إليها يتوقف في المكسيك وكوبا. ويكتب في فيراكروث (المكسيك) رسالته الأولى.

1800: يتصل في مدريد بالعلامة مركيز دي أوستاريث، صانعه الفكري الحقيقي.

1801: ما بين شهرَي آذار وكانون الأول، يدرس اللغة الفرنسية في بلباو.

1802: 12 شباط: في أميان (فرنسا). يعجب بنابليون بونابرت. ويقع في الحب في باريس.

26 أيار: يتزوج من ماريا تيريسا رودريغيث دل تورو في مدريد، بإسبانيا.

12 تموز: يصل إلى فنزويلا مع زوجته. ويكرّس نفسه للاهتمام بأملاكه.

1803: 22 كانون الثاني: تتوفى ماريا تيريسا في كاراكاس.

23 تشرين الأول: يعود ثانية إلى إسبانيا.

1804: 2 كانون الأول: يحضر تتويج نابليون في باريس.

1805: 15 آب: يُقسم اليمين على جبل مونتي ساكرو، في روما، بإيطاليا.

27 كانون الأول: يدخل في ماسونية الملة الاسكتلندية، في باريس. وفي عام 1806 يُرفّع إلى درجة معلّم.

1807: 1 كانون الثاني: يصل إلى تشاليستون (الولايات المتحدة الأميركية). يطوف عدّة مدن في تلك البلاد. وفي شهر حزيران يرجع إلى كاراكاس.

1810: 18 نيسان: يُحتجز في مزرعته في أراغو؛ ولهذا السبب لا يشارك في أحداث 19 نيسان، يوم البدء بالثورة الفنزويلية.

9 حزيران: يسافر في مهمة دبلوماسية إلى لندن. وهناك يتعرّف على فرانثيسكو دي ميراندا.

5 كانون الأول: يعود من لندن. وبعد خمسة أيام يصل ميراندا أيضاً إلى كاراكاس، وينزل في بيت سيمون بوليفار.

1811: 2 آذار: يجتمع الكونغرس الفنزويلي الأول.

4 تموز: خطاب بوليفار في الجمعية الوطنية.

5 تموز: إعلان استقلال فنزويلا.

23 تموز: بوليفار يقاتل تحت إمرة ميراندا في فلنسيا. وهي تجربته الحربية الأولى.

1812: 26 آذار: زلزال في كاراكاس.

6 تموز: تسقط من يد الكولونيل سميون بوليفار قلعة بورتو كابيو، إثر خيانة.

30 تموز: يُقدِم مع مجموعة ضباط على اعتقال ميراندا لتقديمه إلى محكمة عسكرية، اعتقاداً منهم بأنه خائن لتوقيعه الاستسلام. وينتزع مانويل ماريا كاساس الأسير البارز من أيديهم ويسلمه إلى الإسبان.

1 أيلول: يصل إلى كوراساو، وهي منفاه الأول.

15 كانون الأول: يعلن في غرناطة الجديدة (كولومبيا) بيان كارتاخينا.

24 كانون الأول: مع الاستيلاء على تينيريفي، يبدأ بوليفار حملة نهر مجدلينا، ويكنس القوّات الملكية من تلك المنطقة بأسرها.

1813: 28 شباط: معركة كوكوتا.

1 آذار: يحتل سان أنطونيو دي تاتشيرا.

12 آذار: يصبح بريغادير غرناطة الجديدة.

14 أيّار: يبدأ الحملة الموقرة من كوكوتا.

23 أيّار: يبايَع على لقب المُحَرِّر في ميريدا.

15 حزيران: يعلن الحرب حتى الموت في تروخييو.

6 آب: دخوله ظافراً إلى كاراكاس. نهاية الحملة الموقرة.

14 تشرين الأول: مجلس كاراكاس يبايع بوليفار في جلسة عامة، قائداً عاماً ومُحَرِّراً.

5 كانون الأول: معركة أراوري.

1814: 8 شباط: يأمر بإعدام أسرى في لاغواريرا.

12 شباط: معركة لافيكتوريا.

28 شباط: معركة سان ماتيو.

28 أيّار: معركة كارابوبو الأولى.

7 تموز: نحو عشرين ألف من أهالي كاراكاس، وعلى رأسهم المُحَرِّر، ينطلقون في هجرة إلى أورينتي.

4 أيلول: ريباس وبيار اللذان أبعدا بوليفار ومارينيو، يأمران باعتقالهما في كاروبانو.

7 أيلول: يعلن بوليفار بيانه المعروف ببيان كاروبانو، ويبحر في اليوم التالي إلى كارتاخينا وهو جاهل بأمر الاعتقال الصادر ضده.

27 تشرين الثاني: ترقّيه حكومة غرناطة الجديدة إلى رتبة جنرال عام، وتكلفه بمهمة استعادة إقليم كوندينا ماركا. يشن الحملة، إلى أن يتمكن من فرض الاستسلام على بوغوتا.

12 كانون الأول: يقيم حكومة في بوغوتا.

1815: 10 أيار: يحاول تحرير فنزويلا بالمرور عن كارتاخينا، فيجد معارضة جدّية من سلطات هذه المدينة ويقرر الإبحار في جامايكا، في نفي طوعي.

6 أيلول: ينشر رسالة جامايكا الشهيرة.

24 كانون الأول: يرسو في لوس كايوس (هايتي)، حيث يلتقي بصديقه لويس بريون، البحّار لويس بريون، البحار الكوراسوي. يقابل في هايتي الرئيس بيتيون، الذي يقدّم له مساعدة لا تقدَّر.

1816: 13 آذار: تخرج من هايتي الحملة المعروفة باسم حملة لوس كايوس. ويرافقه فيها لويس بريون.

2 حزيران: يصدر في كاروبانو مرسوم تحرير العبيد.

1817: 9 شباط: يتصالح بوليفار وبيرموديث ويتعانقان على جسر نهر نيفيري (برثلونة).

11 نيسان: معركة سان فيلكس، التي شنها بيار. يتم تحرير انغوستورا، والسيطرة على نهر أورينوكو والإقرار النهائي للجمهورية (الجمهورية الثالثة).

8 أيّار: يجتمع في كارياكو كونغرس دعا إليه خوسيه كورتيس مادارياغا. وينتهي هذا الكونغرس المصغر إلى الفشل، بالرغم من أن قرارين من قراراته ما زالا ساريَيْن: النجوم الستة في العلم الوطني، واسم دولة أسبارطة الجديدة الذي أُطلق على جزيرة مرغريتا.

12 أيار: يُرقّى بيار إلى رتبة جنرال عام.

19 حزيران: يكتب إلى بيار بلهجة مصالحة: «أيها الجنرال، إنني أفضّل خوض معركة مع الإسبان على هذا الاستياء القائم بين الوطنيين».

4 تموز: فيما الماء يغطيه حتى عنقه في بحيرة كاساكويما، حيث اختبأ هرباً من كمين نصبته له القوّات الملكية، تنبأ أمام ضباطه المذهولين بما سيفعله منذ فتح أنغوستورا وحتى تحرير البيرو.

16 تشرين الأول: إعدام الجنرال بيار، في أنغوستورا. وقد كان المجلس العسكري الذي أصدر الحكم برئاسة لويس بريون.

1818: 30 كانون الثاني: يلتقي في كاتيافيستولا، أوّل مرّة ببايث، زعيم منطقة لوس ليانوس.

12 شباط: بوليفار يهزم موريو في كالابوثو.

27 حزيران: يؤسس في أنغوستورا بريد الأورينوكو.

1819: 15 شباط: يؤسس كونغرس أنغوستورا. ويلقي خطبته الشهيرة، المعروفة بالاسم ذاته. ويُنتخب رئيساً لفنزويلا. ويبدأ فور ذلك حملة تحرير غرناطة الجديدة.

7 آب: معركة بوياكا.

17 كانون الأول: يؤسس بوليفار جمهورية كولومبيا المؤلفة من ثلاثة أقاليم: فنزويلا، وكونديناماركا، وكيتو. ويختاره الكونغرس رئيساً لكولومبيا.

1820: 11 كانون الثاني: يكون في سان خوان دي بايارا، في أبوريه.

5 آذار: في بوغوتا.

19 نيسان: يحتفل في سان كريستوبال بالذكرى العاشرة لبدء الثورة.

27 تشرين الثاني: يلتقي ببابلو موريّا في سانتا آنا (تروخييو) ويكون قد أبرم، في اليوم السابق، الهدنة وضبط الحرب.

1821: 5 كانون الثاني: ينهمك في بوغوتا بالإعداد لحملة الجنوب، التي يعهد بها إلى سوكره.

14 شباط: يهنّئ رافائيل أوردانيتا لإعلانه استقلال ماراكايبو، لكنه يبدي خشيته من أن تعتبر إسبانيا ذلك سوء نية، وخرقاً للهدنة.

17 نيسان: يعلن في نداء عن وقف الهدنة والبدء بـ«حرب مقدّسة»: «إننا نناضل لتجريد الخصم من السلاح، وليس لتدميره».

28 نيسان: تبدأ الأعمال العدائية مجدداً.

27 حزيران: بوليفار يهزم لاتوري في كارابوبو. وبالرغم من أن معركة كارابوبو لم تكن الأخيرة، إلا أنها وطدت استقلال فنزويلا.

1822: 7 نيسان: معركة بومبونا.

24 أيّار: معركة بيتشينتشا.

16 حزيران: يتعرّف على مانويليتا ساينث في كيتو، بعد دخوله الظافر إلى المدينة مع سوكره.

11 تموز: يصل بوليفار إلى غواياكيل. وبعد يومين من ذلك يعلن ضمّها إلى كولومبيا.

26/ 27 تموز: لقاء بوليفار وسان مارتين في غواياكيل.

13 تشرين الأول: يكتب هذياني فوق تشمبوراثو، في لوخا، قريباً من كوينكا، في الإكوادور.

1823: 1 آذار: يطلب رئيس البيرو، ريفا أغويرو، من المُحَرِّر أربعة آلاف جندي ومساعدة كولومبيا لتحقيق استقلالها. يرسل بوليفار الفرقة الأولى المؤلفة من ثلاثة آلاف رجل في 17 آذار، ثم يرسل في 12 نيسان ثلاثة آلاف آخرين.

14 أيّار: ينشر كونغرس البيرو نداء يدعو فيه المحرِّر إلى المجيء للقضاء على الحرب الأهلية.

1 أيلول: يصل بوليفار إلى ليما (في البيرو). ويخوّله الكونغرس مهمة إخضاع ريفا أغويرو، الذي تمرّد لمصلحة الإسبان.

1824: 1 كانون الثاني: يصل مريضاً إلى باتيفيلكا.

12 كانون الثاني: يُصدر مرسوماً يقضي بإنزال عقوبة الإعدام ضد كل من يسرق من الأموال العامة مبلغ عشرة بيزوات فما فوق.

19 كانون الثاني: رسالة جميلة إلى معلمه سيمون رودريغيث: «أنت صُغت قلبي من أجل الحرية، والعدالة، ومن أجل كل ما هو جليل وجميل».

10 شباط: يعينه كونغرس البيرو دكتاتوراً، كي ينقذ الجمهورية المقوّضة.

6 آب: معركة خونين.

5 كانون الأول: بوليفار يحرر ليما.

7 كانون الأول: يُعقد مؤتمر بنما.

9 كانون الأول: انتصار سوكره في أياكوتشو. بهذا الانتصار اعتبرت أميركا الإسبانية كلها محرّرة.

1825: بريطانيا تعترف باستقلال الدول الجديدة في أميركا.

12 شباط: كونغرس البيرو يُقرّر تكريم المحرِّر: بمنحه ميدالية، وإقامة تمثال له وهو فوق جواد، وتقديم مبلغ مليون بيزو له ومليون بيزو أخرى للجيش المحرِّر. يرفض بوليفار المال الذي قدّمه له الكونغرس ويوافق على المبلغ المقدّم إلى جنوده.

18 شباط: كونغرس البيرو لا يوافق على استقالته من الرئاسة بصلاحيات غير محددة.

6 آب: تقرر جمعية منعقدة في تشوكيساكا (أعالي البيرو) تشكيل جمهورية بوليفيا.

26 تشرين الأول: بوليفار في جبل بوتوسي.

25 كانون الأول: يصدر في تشوكيساكا مرسوم غرس مليون شجرة «حيث تقتضي الضرورة».

1826: 25 أيّار: يبلغ سوكره من ليما بأن البيرو قد اعترفت بجمهورية بوليفيا. ويرسل إليه مشروع الدستور البوليفي.

22 حزيران: يؤسس كونغرس ليما.

16 كانون الأول: يصل إلى ماراكايبو ويعرض على الفنزويليين من هناك عقد المؤتمر الكبير.

31 كانون الأول: يصل إلى بورتو كابييو بحثاً عن بايث.

1827: 1 كانون الثاني: يصدر عفواً عن المذنبين في الصغائر. ويثبت بايث في منصب القائد الأعلى لفنزويلا.

1 كانون الثاني: يكتب من بورتو كابييو إلى بايث: «لا يمكنني تقسيم الجمهورية، لكنني أتمنى ذلك لخير فنزويلا، وهو ما سيتم في الجمعية العامة إذا رغبت فيه فنزويلا».

4 كانون الثاني: يلتقي مع بايث في ناغواناغوا، قريباً من بلنسيا، ويقدم له دعمه. وقد قال لكونغرس بوغوتا قبل ذلك إن له «الحق في مواجهة الظلم بالعدل وتعسّف القوّة بالعصيان». فأزعج ذلك سانتَندير الذي كان يضخّم خلافه مع المحرِّر.

12 كانون الثاني: يصل بصحبة بايث إلى كاراكاس، وسط تصفيق الشعب.

5 شباط: يبعث من كاراكاس إلى كونغرس بوغوتا استقالة جديدة من الرئاسة مرفقة بعرض دراماتيكي للأسباب ينهيه بالقول: «بمثل هذه المشاعر، فإني أستقيل مرّة وألف مرّة ومليون مرّة من رئاسة الجمهورية».

16 آذار: يقطع علاقته بسانتَندير نهائياً: «لا تكتب إليَّ بعد الآن، لأني لا أريد الردّ عليك، ولا أريد منحك لقب صديق».

6 حزيران: كونغرس بنما يرفض استقالة بوليفار ويطلب منه المجيء إلى بوغوتا لأداء القسم.

5 تموز: يخرج من كاركاس إلى بوغوتا. ولن يعود أبداً منذ ذلك الحين إلى زيارة المدينة التي ولد فيها.

10 أيلول: يصل إلى بوغوتا ويؤدي القسم كرئيس للجمهورية، مواجهاً معارضة سياسية شرسة.

11 أيلول: رسالة إلى توماس دي هيريس: «أمس دخلت هذه العاصمة، وأنا الآن في منصب الرئاسة لقد كان ذلك لازماً: إذ يمكن الحؤول دون شرور كثيرة مقابل مصاعب لا نهائية».

1828: 10 نيسان في بوكارا مانغا خلال انعقاد مؤتمر أوكانيا. وفي ذلك المؤتمر تتحدد بشكل واضح معالم الحزبين: البوليفاري والسانتَنديري. يحتجّ بوليفار لدى المؤتمر على «الشكر الموجه إلى الجنرال باديللا، للاغتيالات التي اقترفها في كارتاخينا».

9 حزيران: يخرج من بوكارا مانغا وهو يفكر بالوصول إلى فنزويلا. كان ينوي الإقامة في مزرعة أناوكو، ومن أملاك المركيز دل تورو.

11 حزيران: ينفَضّ مؤتمر أوكانيا.

24 حزيران: تتبدّل مخططاته، ويرجع إلى بوغوتا، حيث يطالبون بعودته.

15 تموز: في نداء موجّه من بلنسيا، يقول بايث عن بوليفار إنه «عبقري القرن التاسع عشر الفريد.. مَن تنقل من تضحية إلى تضحية على امتداد ثمانية عشر عاماً من أجل سعادتكم، وقد قام بأكبر تضحية يمكن لقلبه أن يحتملها: ألا وهي القيادة العليا التي تخلى عنها ألف مرّة، ولكنه مكره على ممارستها في الحالة الراهنة للجمهورية».

27 آب: مرسوم يستند إلى الديكتاتورية، التي فرضت بسبب الخلافات في مؤتمر أوكانيا. يلغي بوليفار بموجبه منصب نائب الرئيس، وهكذا يصبح سانتَندير خارج الحكومة. يعرض عليه المحرِّر سفارة كولومبيا في الولايات المتحدة. فيوافق سانتَندير، لكنه يؤخر السفر لبعض الوقت. وربما كان إلغاء منصب سانتَندير سبباً في محاولة اغتيال بوليفار.

21 أيلول: يعترف بايث ببوليفار قائداً أعلى، ويقسم أمام الأسقف رامون أغناثيو مينديث، وأمام حشود اجتمعت في ساحة كاراكاس الكبرى: «...وأقسم على طاعة واحترام وتنفيذ المراسيم التي يصدرها كقوانين للجمهورية. السماء الشاهدة على قَسَمي ستجازي ولائي في تنفيذ عهدي».

25 أيلول: محاولة لاغتيال بوليفار في بوغوتا. تنقذه مانويليتا ساينث. يكون سانتَنْدير بين المتورّطين. ويحكم عليه أوردانيتا، الذي ينظر في القضية، بالإعدام. فيستبدل بوليفار حكم الإعدام بالنفي.

1829: 1 كانون الثاني: في بوريفيكاثيون. يكون حضوره في الإكوادور ضرورياً بسبب الخلاف مع البيرو التي احتلت غواياكيل عسكرياً.

21 تموز: تستعيد كولومبا غواياكيل. ويستقبل الشعب المُحرِّر الظافر.

13 أيلول: يكتب إلى أولياري: «جميعنا نعرف أن اتحاد غرناطة الجديدة وفنزويلا مرتبط بوجود سلطتي فقط، وهي سلطة ستغيب الآن أو في ما بعد، حين تشاء العناية الإلهية أو حين يشاء البشر...».

13 أيلول: رسالة من بايث: «لقد أمرت بنشر تعميم أدعو فيه جميع المواطنين والهيئات للتعبير عن رأيهم بشكل رسمي وصريح. ويمكنك الآن أن تناشد الجمهور قانونياً كي يقول ما يريده. لقد حان الوقت الذي تصدر فيه فنزويلا حكمها من دون أي اعتبار سوى المصلحة العامة. فاذا ما اتخذت إجراءات راديكالية تعبّر عما ترغبون فيه حضرتكم حقاً، فإن الإصلاحات ستكون كاملة وستنفّذ مشيئة الروح الشعبية...».

20 تشرين الأول: يرجع إلى كيتو.

29 تشرين الأول: يخرج متوجهاً إلى بوغوتا.

5 كانون الأول: يكتب من بوبايان إلى خوان خوسيه فلوريس: «من المحتمل أن يكون الجنرال سوكره هو خليفتي، ومن المحتمل كذلك أن ندعمه جميعاً؛ ومن جهتي فإنني سأفعل ذلك من روحي وقلبي».

15 كانون الأول: يعرب لبايث عن أنه لن يقبل رئاسة الجمهورية مجدَّداً. وإذا اختار الكونغرس بايث رئيساً لكولومبيا، فانه يُقسم له بشرفه أن يخدم بكل سعادة تحت إمرته.

18 كانون الأول: يندّد بحزم بمشروع الملكية في كولومبيا.

1830: 15 كانون الثاني: يعود مجدداً إلى بوغوتا.

20 كانون الثاني: يعقد كونغرس كولومبيا. رسالة من بوليفار. يقدم استقالته من الرئاسة.

27 كانون الثاني: يطلب الإذن من الكونغرس ليذهب إلى فنزويلا. كونغرس كولومبيا يرفض منحه الإذن.

1 آذار: يسلم السلطة إلى دومينغو كايثيدو، رئيس مجلس الحكومة، ويعتزل في فوتشا.

27 نيسان: في رسالة إلى الكونغرس الموقر، يؤكد قراره بعدم الاستمرار في الرئاسة.

4 أيّار: يُنتخب خواكين موسكيرا رئيساً لكولومبيا.

8 أيّار: يخرج بوليفار من بوغوتا إلى مصيره النهائي.

4 حزيران: يسقط سوكري صريعاً في بيرويكوس. ويعلم بوليفار بالأمر في الأول من تموز عند سفح جبل لابويا، فيتأثر تأثراً عميقاً.

1830: 5 أيلول: يتولى أوردانيتا الحكومة في كولومبيا بعدما أصبح غياب السلطة العامة أمراً واضحاً. وتشهد بوغوتا وكارتاخينا ومدن أخرى في غرناطة الجديدة مظاهرات وتحركات مؤيدة للمحرِّر ولعودته إلى السلطة. وفي أثناء ذلك ينتظره أوردانيتا.

18 أيلول: بعد إطلاعه على الوقائع التي حملت أوردانيتا إلى رئاسة الحكومة، يعرض نفسه كمواطن وكجندي للدفاع عن بقاء الجمهورية موحَّدة، ويعلن أنه سيزحف إلى بوغوتا على رأس ألف رجل لدعم الحكومة القائمة، ويرفض جزئياً الطلبات التي توجه إليه بتولي السلطة، بذريعة أنه سيُتهم باغتصاب القيادة، لكنه يترك المجال مفتوحاً للتقدّم إلى الانتخابات القادمة: «...فلتلفّني الشرعية

بظلها، وإلا فسيكون هناك رئيس آخر...». وأخيراً، يطلب من مواطنيه الالتفاف حول حكومة أوردانيتا.

2 تشرين الأول: في توورباكو.

15 تشرين الأول: في سوليداد.

8 تشرين الثاني: في بارانكييا.

1 كانون الأول: يصل إلى سانتا مارتا وهو في حالة من الإنهاك الشديد.

6 كانون الأول: يتوجه إلى مزرعة سان بيدرو أليخاندرينو، من أملاك الإسباني دون خواكين دي ميير.

10 كانون الأول: يُملي وصيته وبيانه الأخير. وحيال إلحاح الطبيب عليه كي يعترف ويتلقى الزاد الأخير، يقول بوليفار: «ما هذا؟.. هل حالتي سيئة إلى حد يستدعي الوصية والاعتراف؟.. كيف سأخرج من هذه المتاهة!».

17 كانون الأول: يموت في مزرعة سان بيدرو أليخاندرينو، محاطاً بعدد قليل جداً من الأصدقاء.

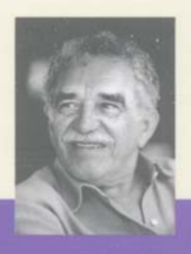
الجنرال في متاهته

غابرييل غارسيا ماركيز

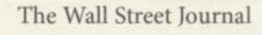
الجنرال في متاهته حكاية مؤثرة عن سيمون بوليڤار، يتتبع فيها غابرييل غارسيا ماركيز، الحائز على جائزة نوبل للآداب، خطوات بطل تتلاشى قوته ويتم نسيانه في رحلته الأخيرة، حيث يقوم الجنرال سيمون بوليڤار، الملقّب بـ«المحَرر»، والذي حرَّر خمس دول في أمريكا الجنوبية برحلة مجنونة في نهر مجدلينا، ويعاود زيارة المدن التي سبق أن زارها، ويكشف عن خساراته.. وانتصاراته.. وعواطفه.. والخيانات التي تعرّض لها.. فيقدم لنا صورة جنرال دائم الإبهار، عاش باندفاع غير عادي الحب والحرب والسياسة، والحلم بتوحيد القارة الذي كان عصياً على التحقق.

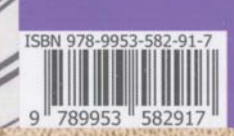
إنه نموذج مؤثر لكل ما هو ممكن أن يُكتسَب ويُفقَد في الحياة.

كتاب شديد التميز يقدم فيه غابرييل غارسيا ماركيز رؤيته عبر استرجاع رجل أمريكا اللاتينية العظيم.
Los Angeles Times Book Review



فقرة تلو فقرة يسطع علينا غابرييل غارسيا ماركيز بذكائه الواضح، فلقد أعاد ابتكار بعض من أكثر الشخصيات سحراً في تاريخنا، جنراله ليس سحرياً... بل إنه شديد الواقعية.


The Wall Street Journal


ISBN 978-9953-582-91-7
9 789953 582917

